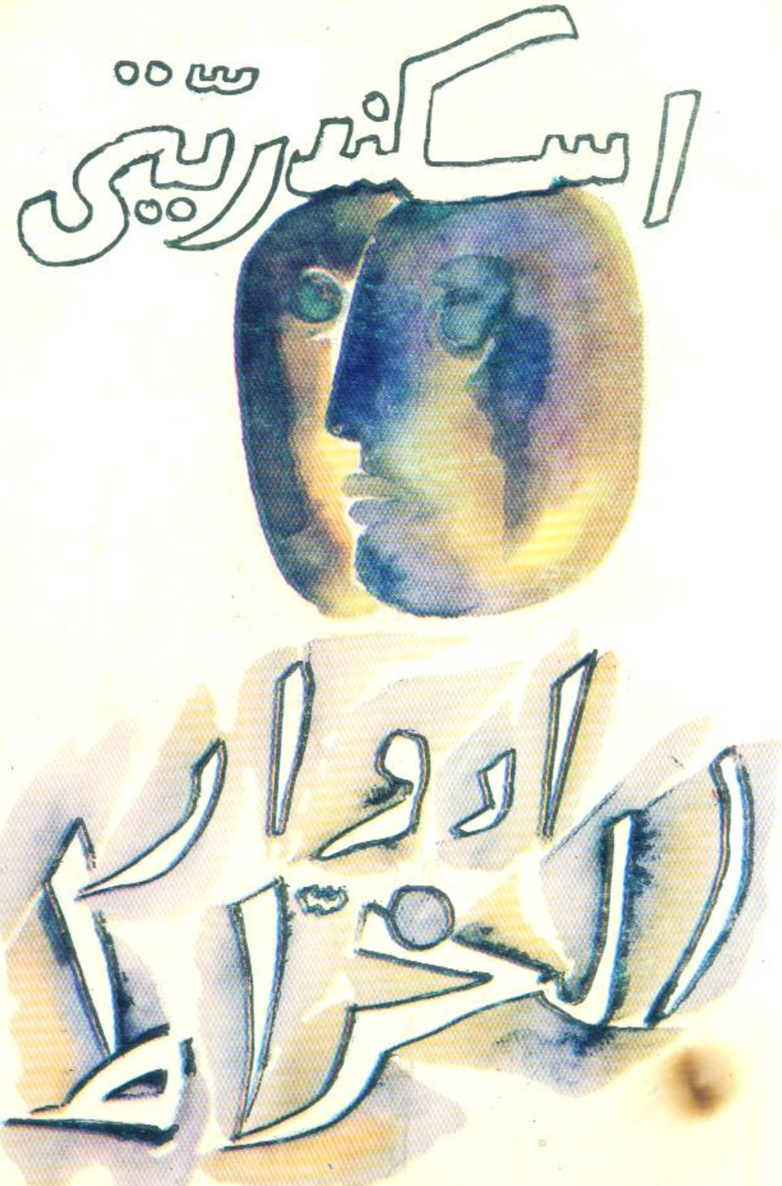

اسکندریہ

لوحة الغلاف مهداة من الفنان عدلى رزق الله

إدوار الخرّاط

أسكندريتي

مدينتي القُدسية الحُوشية

(كولاچ روائي)

دار و مطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية

الطبعة الأولى ١٩٩٤

أسكندريتى .. مدينة الزعفران

تقـــــديم

هذه النصوص «كولاج» قصصّى يقارب التقنية التي يعرفها الفن التشكيلى، إذ تضم صوراً وشذرات شتى، قد تكون من خامات مختلفة ومن مصادر متنوعة، إلى بعضها بعضاً، فتعطى لوحة جديدة.

علاقتى بالأسكندرية علاقة خاصة، فقد كانت الاسكندرية - وما زالت - مرتعاً حُلْميا، على كلّ واقعيتها.

هى ليست موقعاً جغرافيا جميلاً فقط، وليست - فقط - ساحةً لالتقاء واصطدام الناس الذين يعملون ويحبون ويموتون على أرض الحياة اليومية، وليست - فقط - مستودع ترسب ثقافات وحضارات تاريخية، عريقة وراهنة، هى ذلك كله. وهى كذلك حالة من حالات الروح ومغامرة سعى لاستيعاب حقيقة داخلية، وهى مواجهة ميتافيزيقية أيضاً

لغموض المطلق والموت الممتد على صفحة بحر ساجية أو جياشة، نحو أفقٍ ملتبس، بلا حدٍّ.

****

ولعلنى لا أعرف كاتباً آخر فى العربية تولهٌ بعشق هذا الموقع - الحلم - الواقع، كما فعلت.

لكأنها امرأة فردانية ومتكثرة بلا نهاية.

ومهما كان من حفاوة كاتب مثل نجيب محفوظ بأزقة وحوارى الجمالية، أو كاتب مثل عبد الرحمن الشرقاوى، وغيره من كُتاب الريف، بقراهم، فقد كانت المدينة - والأرض - عندهم، فى نهاية الأمر ديكوراً خلفياً، وفى أحسن الأحوال موضوعا أو ساحة للفعل الروائى.

الأسكندرية عندى هى نفسها الفعل الروائى، بمعنى ما، هى قوة فاعلة، وليست مادة للعمل ولا مكاناً له.

والمأمول أن يفُضى هذا «الكولاج» النصّى فى تجميعه الخاص الى تكوين صورة جديدة ومتباينة الظلال والدلالات لأسكندريتّى، مدينتى التى أعرفها وأصونها فى عمق قلبى، وأعشقها حتى التدلّه، والتى ترابها زغفران، حلم وتراث عريق وساحة للحب، والكد، ومسّاءلة للمجهول، فى وقت معاً.

****

أما لورنس داريل فلم يعرف الأسكندرية، فى تقديرى، مع أنه كتب

مئات الصفحات من رباعيته الشهيرة، فالأسكندرية عنده أساساً هى وهم غرائبى، كأنما كتب لكى يرضى نزعة لا تنتزع عند الكاتب وعند قرائه الغربيين، سواء، فى اختلاق، وابتعاث خرافة راسخة الجذور عن «الشرق» الذى يموج ويصطخب بشخوص عجيبة، غير مفهومة، تتقلب بين العنف تارة وبين الخنوع والذلة تارة، ولا تكاد تنتمى الى البشر أياً كانت جنسياتهم وبيئاتهم وثقافاتهم. وتحتشد هذه الخرافة الغرائبية بأجواء خارقة، يجهد الكاتب فى أن يضفى عليها جاذبية غير المألوف، الى درجة منفرة بل ومقززة أحياناً. فهى جاذبية الخيال المغرق، والجمال المصنوع، والقبح النادر أيضاً.

الأسكندرية عند داريل هى أسطورته الشخصية أولاً وأخيراً، أسطورة تكونت من مشاهد خارجية ألتقطتها عين أجنبية، ومشاهد داخلية تخلقت فى نفس منفصلة محجوزة عن قلب البلد وروحها، بانحيازات رازحة وراسخة.

لم يعرف داريل من الاسكندرية الا قشرتها السطحية: بيوت ومكاتب الديبلوماسيين، الفئة الفوقية التى تطفو على عباب مدينة تمور بالحياة، كالزبد أو الرغوة، الشوراع والبيوت التى كان محرمة على أهل البلد، «المتمصرين» الذين لم يعرفوا من مصر الا كيف يستغلونها، ثم من يدور فى فلك هؤلاء الخدم والبغايا الذين لا يراهم داريل الا من الخارج، دون مبالاة، وبشئ قليل من النفور.

أما الاسكندرية الحقيقية - التى يسميها، بأستعلاء متوقع ومنتظر: «المدينة العربية» أو بعبارة أدق بالعامية المصرية «الحتة البلدى » - فهى عنده مشاهد شرقية تلوح باذخة الزينة وغريبة الوقع، لا صلة لها بالواقع.

من الأمثلة الصارخة على ذلك، وأقع عليها ، عفو الخاطر، فالرباعية حاشدة بأمثال ذلك المشهد الذى نرى فيه «الدرويش» يرقص فى مولد ست دميانة القبطية، وقد تحوّل الى شمعدان آدمى، مغطى بالشموع الموقدة، وقطرات الشمع الذائب الساخن تتساقط على جسمه، ويأتى صبى ليدفع «خنجراً هائلا» فى كل من خدّيه، وعلى طرفى الخنجر اللذين يبرزان من جانبى وجهه يضع الصبى شمعداناً آخر، على الجانبين، وفيه الشموع المشتعلة. (ماونت أوليف ص ١٢١).

«أسير فى الحىّ البلدى الصاخب بأنواره التى تشبه الطعنات وروائحه التى تنهك اللحم. (جوستين ص ١٨٥).

وهو يحكى عن سيدة قبطية جليلة - لابد أن تكون قد وقعت فى غرام ضابط انجليزى يجيد العربية ويحظى باعجاب الصحافة العربية!: وهى قد خلعت «الحجاب» وعادت الآن ترتديه، وهى تربى ثعباناً فى البيت وتغذيه باللبن كل يوم، والا ساء مزاجه! وبعد مرضها لم تعد تسمح بوجود مرايا فى «الحريم». (بلتازار ص ٧٩). أما نسيم وناروز وهما من أصحاب الأملاك ، الأقباط، أبنا هذه السيدة - وأسمها ليلى -

فهما مرسومان طبقاً للوصفة الأستشراقية المألوفة فى الأدب الكولنيالى، وخاصة ناروز «مشقوق الشفة» ضخم الجسم عنيف وخانع فى نفس الوقت.

فى الحى «البلدى» المصرى تتغير رائحة اللحم: النشادر وخشب الصندل والبوتاس والبهارات والسمك» (جوستين ص ٦٦). وفى موضع آخر فإن رائحة هذا الحى هى «رائحة المدافن المفتوحة حديثاً» (كليا ص ٩٧).

وذلك يقابل النشوة اللغوية المحلقة فى مقاطع شعرية: «الجاموس المعصوب العينين يدير السواقى فى أبدية من الظلام .... جوانب كاملة من السماء والأرض تتزحزح وتنفتح كغطاء أو تنقلب رأساً على عقب. قطعان الغنم تدخل وتخرج من هذه المرايا المعوجة، تظهر وتختفى، تحفزها صيحات الرعاة غير المرئيين مرتعشة فيها خنة. فيض دافق من صور رعوية من التاريخ المنسّى ما زالت تعيش جنباً الى جنب مع تلك التى ورثناها. سحب النمل ذى الأجنحة الفضية تطفو صاعدة تلتقى بوهج نور الشمس .. صمت الركود الكامل، ولكن ريف مصر كله يقاسمه ذلك الشعور الكئيب بالهجران، بأنه قد تُرك لكى يتّردى ويذبل يصطلى ويتشقق ويتفتت تحت الشمس المتقدة ..

«وسمعت صوت المؤذن الأعمى، حلواً، من الجامع يتلو «العبادات» (التى يسميها داريل «عبيد» - فهو لا يعنى كثيراً بأن يدقق كلماته

العربية، أتصور أن ما يهمه هنا هو مجرد ايقاعها الغريب) صوت معلق كأنه شعرة فى الأهوية العلوية التى أبتردت من النخيل فى الاسكندرية (!!).

«سماء من المخمل المرتعش النابض، يقطعها الأشتعال العارى من ألف مصباح كهربى. كان الليل يمتد فوق شارع التتويج مثل قشرة من القطيفة. لم تكن هناك الا أطراف المآذن المضاءة، ترتفع فوقه بسيقانها الرشيقة غير المرئية - تبدو أطرافها معلقة فى السماء، ترتعد أرتعاداً هيّنا بالوهج كأنما على وشك أن تبسط قبازعها مثل ثعابين الكوبرا» (كليا ص ٢٩٥).

وهكذا الى مالا نهاية له من الشعر المبّطن بالغرائبية، والمنطوى أساساً على الرفض، والتبعيد، والأنفصال، والتعالى.

أنظر مثلاً اشارته الى حميد، الخادم المصرى الذى يفرش سجاد الصلاة فى شرفة المطبخ، والذى يقول عنه أنه «يركبه الجن» الى أنه لا يفتأ يكرر بأستمرار «دستور .. دستور» اذ يصبّ المخلفات فى حوض المطبخ، «لأنه هناك يسكن جنّى قوى لابد من التماس عفوه وسماحه». والجن يقطن الحمّام كذلك، وكان حميد يستخدم المرحاض الخارجى، ويستصرخ الجن كلما جلس عليه: «بالأذن ... يا مباركين !» والا سحبه الجن الى مواسير المجارى. وكان يتحرك، فى نعله القديم «مثل ثعبان البوا القابض يتمتم بخفوت» (جوستين ص ٨٧).

وهكذا ينتقل داريل من سخرية الاستهانة الى التشويه الصريح:
«الأسكندرية التى تبدو من الظاهر مسالمة الى ذلك الحد، لم تكن فى الواقع آمنة بالنسبة للمسيحيين» ثم يحكى حكاية مروعة عن رأس زوجة نائب القنصل السويدى التى تدحرج رأسها من حجر بدوية فى طريق مطروج» (ويقصد مطروح - بالحاء لا بالجيم، فيما أظن!).

الاسكندرية التى عشت فيها وعاشت فيها عائلتى وعائلات أقربائى وجيرانى وأهل «ملتى» مكان غير آمن لنا. ! هو يقصد طبعاً «المسيحيين» الأ جانب - هم أيضاً قد عاشوا فيها بأمان وبلهنية من العيش.

هذا التجنّى الغرائبى المبطن بسحر الشعر المصنوع يتحول أحياناً الى فضيحة حقيقية عندما يصف مشهد وقاع صريح بين اثنين من أهل البلد، بغّى وصاحبها، كأنما يجرى عليهما - كما يقول - اختباراً معمليًا، كأنهما من نماذج حيوانات التجارب، فى أثناء عملية الممارسة الجنسية (جوستين ص ١٨٧ وما بعدها) أو عندما يصف حياً للبغايا - ليس له وجود، كما أعترف بعد ذلك فى حديث صحفى - وليس له حتى مصداقية الشعر المصنوع (ص ١٨٩).

وهو يصف الأسكندرية على النحو التالى: «.... مرآة حجر القمر فى بحيرة مريوط، وأبدياتها المتصلة من الصحراء المشعثة - تهفّ عليها رياح الربيع بخفة فتحيلها الى كثبان من الساتان لا نسق لها، وجميلة

كمشاهد السحاب - وما زالت الطوائف تعيش وتتواصل: الترك مع اليهود، العرب مع القبط، والشوام مع الأرمن، والطلاينة مع اليونانيين. ارتعادات الصفقات النقدية تترقرق بينهم كالريح فى حقل من القمح، الأحتفالات والزيجات والمواثيق تصلهم وتفرق بينهم. حتى أسماء المحطات على طرق الترام القديمة ووهداتها الرملية من القضبان ترجّع الأصداء غير المنسّية، لمؤسسيها، وأسماء القباطنة الموتى الذين رسوا هنا أول من حّط بهم الرجال: من الأسكندر الى عمرو، مؤسسى هذه الفوضى من اللحم والحمّى، من حبّ المال الى الصوفية. أين تجد مثل هذا المزيج فى أى مكان آخر (بلتازار ص ١٥١).

فأنظر كيف يقسم المصريين: «عرباً وقبطاً» وكيف يساوى بينهم وبين الأتراك والطلاينة! ولكنهم ليسوا، عنده «مصريين».

لقد أبدع داريل رواية رائعة - ومروعة - وحاشدة بالتبصر العميق لنفسيات أبطاله وبطلاته، ولكن «الأسكندرية» التى أتخذ منها عنواناً لرباعيتيه ليست الا أسكندريته الشخصية: أسكندرية شاعر من أبرع صنّاع اللغة، ولكنه أنجليزى غريب وأجنبى تماماً عن أسكندريتى التى ولدت وعشت بها زهرة أيامى، وعشقتها وتغنيت بها، ولكنى عرفتها، فيما أحس، وعرفت حقاً ناسها وأهلها، هم ناسى وأهلى، يكدون ويحبون ويشقون ويموتون ويعملون ويحيون حياة كل يوم، وفى الوقت نفسه هم - بكدحهم اليومى - شعراؤها حقاً.

أسكندريتي هى الست وهيبة وحسنيّة وتلميذات مدرسة نبوية موسى وحسين أفندى مراقب «الكوبرى» بين غيط العنب وراغب باشا وفتاة باب الكراستة التى أنقذتنى من الشرطة السرية، والمعلم عوض صاحب سيرجة الزيت. أسكندرية رفلة أفندى وأخوالى ناتان ويونان وسوريال. أسكندرية شارع ١٢ ووابور الدقيق وأصطبل عربات الحنطور جنب ترعة المحمودية، اسكندرية أصدقائى من جابر الى المردنى، والبنات اللاتى أحببتهن: مصريات، وشاميات، ويونانيات، كلهن من بنات أسكندرية حقاً، ولسن أجنبيات أو غريبات أو غرائبيات. أسكندرية الرّيس نونو وبيرت الفراهدة، وعمّال المخازن من عم على والأسطى مرسى النجّار الى «أبو شنب» العجوز و «حميدو شورتى». وأسكندرية سيدى المرسى أبو العباس والكنيسة المرقسية، لها أبعادها الأسطورية حقاً ولكن لها صخرها الواقعى وتراب أرضها فى آن معاً. أن شطح الخيال والفانتازيا فى أسكندريتي يغوص فى داخل الواقع وينبع منه - الواقع الخارجى والداخلى معاً - ويتفاعل هذا الواقع بكل ما فيه من قسوة وجمال مع الأسطورة والفانتازيا تفاعلاً متبادلاً، أو هكذا أرجو. ومع ما أسعى اليه من دقة التفاصيل الخارجية، فإن أسكندريتي هى نبض متصل متراوح ومتلاحق، حشد من الأحساسات والتأملات فى حركة دائمة، هذا ما أرمى اليه. وهى واقع - جوهرى - أو عدة تجليات لهذا الواقع - يوضع موضع تساؤل بلا نهاية وبلا خاتمة.

الاسكندرية عندى، مع ذلك، مدينة سحرية، ترابها زعفران، حقاً. ولذلك فإن كتابى السابع أسمه هو هذا: «ترابها زعفران». الأسكندرية شط يقع على حافة بحر الأبد، حافة المطلق. وعندما أنظر منها الى أفق البحر، أعرف كما علمونى فى المدرسة والكتب، أن هناك شاطئاً من الناحية الأخرى. ولعلنى لا أصدق، ولا أقتنع بذلك حقيقة، أبداً، ليس هناك وراء هذا الأفق شئ. هذا امتداد لعباب المجهول، الى مالا نهاية. كأننى أقف هناك على شاطئ الموت نفسه، البحر والموت عندى مرتبطان بروابط انفعالية ورمزية، وبتجارب لاذعة المرارة لا يمحى طعمها أبداً من على لسانى.

والاسكندرية هى هذا المحيط السحرى اليانع النضرة على حافة كون ملحى شاسع بل غير محدود. الأسكندرية عالم ساطع ونقى ونظيف رحى. متقلب براوئح خصوبة جديدة دائمة التجدد، ولكنه هش - حتى فى احساسى بأنه متمدد على الساحل، متطاول مشدود هضيم الخصر قابل للانكسار فى أية بقعة، فى أية لحظة، لا بؤرة له يتكثف حولها ويحميها بنطاق وراء نطاق من الحواجز الواقية - يقع على حرف هوة لا قرار لها، متلاطمة، خادعة فى لحظات هدؤئها، فيها سحر جذاب لا يقاوم، وجمال لا يمكن أبداً الإحاطة به والانتهاء من تملى مفاتنه، قوية الاذُرع ممدودة الى تدعونى دعاء لا أكاد أعرف كيف أصده. دعاء فى الاستجابة له وقوع القضاء الذى لا مرد منه على هذه الحافة الهشة القلقة. بين الحياة والعدم، بيتى ووطنى.

أسكندرية الخَراط
فى رؤيــة النقــاد الانجليــز

قال الناقد روبرت ايروين فى مقال له بعنوان «معرفة الأسرار» نشر فى الملحق الأدبى لجريدة «التايمز» (١٥ سبتمبر ١٩٨٩):

«أن الرائحة هى أحد مفاتيح الذاكرة، فالرائحة عند الخراط كما هى عند الكاتب الفرنسى المعروف «مارسيل بروست» تحمل أو تنطوى على بناء شاسع من الذكريات.

«أن السردية فى هذه الرواية لا تسير على خط مطرد مستقيم، بل هى أشبه بارتماء الأمواج على الشاطئ وانسحابها عنه. والبحر صورة متكررة ذات قيم متعددة فى هذه الرواية. أن بطل الرواية «ميخائيل» ليس هو ادوار الخَراط، وان كانت هناك أوجه شَبه وأحداث شبْه متوازية

الاسكندرية عندى، مع ذلك، مدينة سحرية، ترابها زعفران، حقاً. ولذلك فإن كتابى السابع أسمه هو هذا: «ترابها زعفران». الأسكندرية شط يقع على حافة بحر الأبد، حافة المطلق. وعندما أنظر منها الى أفق البحر، أعرف كما علمونى فى المدرسة والكتب، أن هناك شاطئاً من الناحية الأخرى. ولعلنى لا أصدق، ولا أقتنع بذلك حقيقة، أبداً، ليس هناك وراء هذا الأفق شئ. هذا امتداد لعباب المجهول، الى مالا نهاية. كأننى أقف هناك على شاطئ الموت نفسه، البحر والموت عندى مرتبطان بروابط انفعالية ورمزية، وبتجارب لاذعة المرارة لا يمحى طعمها أبداً من على لسانى.

والاسكندرية هى هذا المحيط السحرى اليانع النضرة على حافة كون ملحى شاسع بل غير محدود. الأسكندرية عالم ساطع ونقى ونظيف وحى. متقلب بروائح خصوبة جديدة دائمة التجدد، ولكنه هش - حتى فى احساسى بأنه متمدد على الساحل، متطاول مشدود هضيم الخصر قابل للانكسار فى أية بقعة، فى أية لحظة، لا بؤرة له يتكثف حولها ويحميها بنطاق وراء نطاق من الحواجز الواقية - يقع على حرف هوة لا قرار لها، متلاطمة، خادعة فى لحظات هدوئها، فيها سحر جذاب لا يقاوم، وجمال لا يمكن أبداً الإحاطة به والانتهاء من تملى مفاتنه، قوية الاذُرع ممدودة الى تدعونى دعاء لا أكاد أعرف كيف أصده. دعاء فى الاستجابة له وقوع القضاء الذى لا مرد منه على هذه الحافة الهشة القلقة. بين الحياة والعدم، بيتى ووطنى.

أسكندرية الخرّاط
فى رؤيـة النقـاد الانجليـز

قال الناقد روبرت ايروين فى مقال له بعنوان «معرفة الأسرار» نشر فى الملحق الأدبى لجريدة «التايمز» (١٥ سبتمبر ١٩٨٩):

«أن الرائحة هى أحد مفاتيح الذاكرة، فالرائحة عند الخرّاط كما هى عند الكاتب الفرنسى المعروف «مارسيل بروست» تحمل أو تنطوى على بناء شاسع من الذكريات.

«أن السردية فى هذه الرواية لا تسير على خط مطرد مستقيم، بل هى أشبه بارتماء الأمواج على الشاطئ وانسحابها عنه. والبحر صورة متكررة ذات قيم متعددة فى هذه الرواية. أن بطل الرواية «ميخائيل» ليس هو ادوار الخرّاط، وان كانت هناك أوجه شَبه وأحداث شبْه متوازية

بينهما، واسكندرية ميخائيل ليست من هذا العالم تماماً، ومع أن الواقع الملموس المتجسّم للاسكندرية القديمة بشواطئها وحاناتها وعربات الترام والحناطير فيها، تُبعث لنا بدقة بالغة وبأقناع كامل، الا أن الرواية تنساب فصلاً بعد فصل الى عالم الفنتازيا والعجائبية والعزائم أو التعازيم الصوفية.

«شواطئ الأسكندرية مشاهد يدور فيها نوع من الشطح السريالى، وقاطرات الترام آلات للتدمير.

«وليس من المستغرب أن نعرف أن عملاً فنتازياً أو خياليا شهيراً «ألف ليلة وليلة» لعب دوراً حاسماً فى تلقين الصبى أسرار المرأة.»

ويستطرد الناقد: «ان «ترابها زعفران» التى ظهرت فى الترجمة الانجليزية بعنوان مدينة الزعفران «عمل متوهج ومحموم، ولكنه مكتوب بدقة ورهافة، وهو استكشاف للأسرار».

أما كريستوفر وردزورث الناقد الأدبى لصحفة «الجارديان» فقد قال: «ان كتاب الخَراط كله شفافية، وفيه شرائح جميلة ودقيقة من ماضيه: مشاهد عائلية، روائح الطهو أو الطبيخ، نعمة الظل بعد وقدة الشمس، خرير الماء، واغراءات الجسد الفتى».

بينما ترمض «ألف ليلة وليلة» فى الخلفية علي نحو مغر وساحر، انه انجاز غنى ونادر فى صفاء الجواهر متلألئ بالأسرار (١ سبتمبر ١٩٨٩).

ويقول آلان سمارت فى «كايرو توداى»: «ومن خلال رؤية الصبى ميخائيل، يتاح لنا أخيراً أن ندخل العالم الذى كان بالنسبة لداريل مجرد «اللون المحلى» متاهته الخاصة، وما يدور فيها من مؤامرات.

«أن «ترابها زعفران» تملأ فراغاً واضحاً، أنها احتفال بأكثر المدن مدعاة للاعزاز، ولكنه هذه المرة، يأتى من الداخل» (يونيو ١٩٩٠).

ويقول ميشيل موركوك ناقد «الديلى تلجراف»: أن «ترابها زعفران» عمل ينتمى الى الواقعية السحرية، وهو يعيد الى الحياة مدينة الاسكندرية التى تستطيع أن تحسها وتلمسها وتشمها، وأن تراها بحدة التفاصيل وبحيوية بالغة، تصبح المدينة أكثر واقعية وأكثر سحرية عن أى شئ كتبه لورانس داريل، فهنا الحياة اليومية للناس الواقعيين الذين يقومون بأعمال عادية، على خلفية من مائة قرن من الزمان، وعشرات العقائد والديانات والفاتحين الذى يشير اليهم الخراط جيمعاً مستخدماً كل كلمة، وكل وصف، استخداما واعياً، سواء كان ذلك عن طريق الاستعارة والمجاز، أو بالرجوع الى الوقائع الأدبية أو التاريخية.

«ان له رؤية تتسم بالسخرية والتعاطف فى الوقت نفسه، لصبى يترعرع وهو يقرأ ألف ليلة وليلة، والروايات الأنجليزية والفرنسية، محتفياً بثروة من الملذات، ومن الوجد والفقدان بالمدينة الرخامية البيضاء الزرقاء التى ينسجها القلب باستمرار».

أن «ترابها زعفران» تعطى صورة غنائية رائعة لعالم لم يختف كل

الاختفاء بعد.» (٤ نوفمبر ١٩٨٩)

أما ناقد الملحق التعليمى لجريدة «التايمز» الدكتور روبين أوستل أستاذ الأدب العربى الحديث فى أوكسفورد فقد قال: «أن الخراط له الحق فى أن يُعتبر أب الحداثة فى الأدب المصرى المعاصر، وقد قام بأعمال مُتعة فى فن الواقعية السحرية، حيث يمتزج ما حدث فى الماضى القريب مع الماضى العريق، فى أمواج متلاطمة لا زمن لها لبحر الأسكندرية ولشطحات خيال الكاتب معاً.

«ان عملاً على هذه القيمة من شأنه أن يكون فرصة حقيقية للخروج بالأدب العربي الى ما وراء الحدود الضيقة لما يسمى بأدب العالم الثالث» (١٠ نوفمبر ١٩٨٩).

وكتبت الأديبة والروائية فرانسيس ليارديت التى ترجمت الرواية مقدمة للرواية قالت فيها:

«إن أسكندرية طفولة الخراط هى أرض مسحورة، وموقع لألوان عديدة، حيث يشحن الناس والمكان والأشياء اليومية العادية بحقيقة مكثفة، حيث تراب الأرض هو زعفران، فلا تسجل تقلبات النور والظل فقط فى هذه الشرائح من الصور الفوتوغرافية، بل اللون والحس والرائحة والمذاق والصوت، ورقرقة زيت السمسم فى الطشت، وبهرة الشمس فى الشارع بعد عتمة الحانة الباردة، والألم الفظيع فى المرض.

«إن الواقع والخيال ينصهران معاً عند ميخائيل، وتحدث وقائع ألف

ليلة وليلة فى غيط العنب، ونجد تماثيل الفراعنة العتيقة ملقاة على الشاطئ.

«لقد نُشرت ترابها زغفران فى الأصل العربى بعنوان فرعى هو «نصوص أسكندرانية» مما يوحى عن عمد بمجموعة من الكتابات لا بحكاية لها حبكة، وتجرى فى أزمان متعاقبة، بل هى سلسلة من الذكريات يكمن تماسكها فى أسرار الذاكرة التى لا يمكن فضها، وفى البناء العميق القائم على الموضوع لا على التعاقب.

«أن عناوين الكتاب تحمل رموزاً قوية يأتى أثرها عن طريق التموجات التراكمية، والسرد يدور حول الصورة التى توحى بها هذه التموجات، فنجد أن أحد الفصول يشير الى سر من الأسرار، ليأتى فصل لاحق، وليس بالضرورة تالياً له، ليضى، هذا السر، كما يحدث فى الحياة.

«أنها كتابة تعيد أنتاج نزوات الذاكرة، وتستلهم فن الأرابيسك والخراطيش الهيروغليفية الرمز الذى يتكرر بلا نهاية على جدران المعابد الفرعونية، والنسق الذى يعيد التنوع الى وحدة أصلية.

«أن هذا الشكل الذى يبدو كأنه عفوى، ينطوى على عمل مركبَ، يقوم على النظام والأمانة المطلقة، ويحرر الأسكندرية مدينة الزعفران من قيود الزمن، ويتيح لها أن تحيا بأستمرار.

«أن لغة الخراط غنية ودقيقة فى الوقت نفسه، وهى أداة من الرقة

والرفاهة بحيث تنتقل سلماً كاملاً من الخبرات الانسانية، بدءاً من التفاصيل العائلية البسيطة، الى الترانيم الشعرية المفعمة باللون والموسيقى».

أسكندريتى

أسكندريتى.

وَجْد (وفقدان) بالمدينة الرخامية، البيضاء - الزرقاء، التى ينسجها القلب بأستمرار، ويطفو دائماً على وجهها المُزَبد المضئ.

أسكندرية، ياأسكندرية، أنت لستِ، فقط، لؤلؤة العمر الصلبة فى محارتها غير المفضوضة .....

رخام متسايل يبضّ بعريدة اللحم الشبقى أعمدة تميد بها الصخور ويسندها ظلام القلب العنيد كثافة العصائر الجسدانية تنز من شرخ الحب العريق، ومازالت التيجان المرمرية المكللة بأغصان العنب الحجرى تسقيها خمر الكروم المكتوزة أبداً لا تسيل، تواجه الأفق بصمت وتسائله بصمت، صروحاً تتحدى السنوات والحقب والدهور، ولا يعنو بها زلزال الإنكار.

تكسرت نفسى معك على سلم الرخام الأسود المستدير وأنت تتعثرين فى شباك الرفض، قوية الخيوط غير مرئية ذراعك فى يدى نحيلة غصناً مورقاً رقيق العظام كما هى دائماً فى حلمى، لم أكن قد قبضت عليها قط. وعلى طول العمر جرأة التقارب بينها ليست غير مألوفة، الحلم هو الحقيقة الوحيدة فى عرفانى، والحلم لم يحدث قط. قلت دعنى دعنى الآن. وجهك فاكهة مضرجة بدم الشجاعة، هل كان أيضاً دم الحلم الذى لم يُسْفكَ قط، سوائل الغضب المحسوبة الانسكاب تطيح بالحبوس، مرارتها لا تطاق. أصابعى وحدها من غير إرادتى، تزيح خصلة من الشعر عن تاج الجبهة الناصعة مَسَّ الشعر الخصيب واندفاق الدم فى شرايين الشوق المفتوحة حتى الآن. يدى ورقة شجر خفيفة النسيج أسقطتْها أصباحُ الشتاء، منقبضة الأصابع على سماء مستغلقة أدحضها ولا تموت، فى العتمة المحيقة ليس الا نور يحيط برخام وجهك المكسور وجسدك القائم شامخاً ومليئاً رغم الاندحار. طقوس النَكث وإقرار الإيمان مرة بعد مرة بلا انتهاء كل صبح وكل مساء، وصوتك منحة وذبيحة.

عرشت أشواق عشقى فى مدينتى العظمى الأسكندرية، الثغر المحروس، الميناء الذهبية، رؤيا ذى القرنين وصنيعة سوستراتس المهندس العظيم، ولؤلؤة قُلَبطرة الغانية الآبدية، المدينة الساطعة المرخمة لا تحتاج بالليل الى نور لفرط بياض رخامها، أكاديمية أرشميدس وأراتوسنيس الفيلسوف والشاعرين أبولونيوس وقاليماخوس، مثوى

الميوزات جميعاً وعاصمة القداسة والفجور معاً، أرض القديس مرقس والقديس أنانيوس وأصحاب الكنيسة البوقالية أوريجانوس والأسقف ديونيزيوس والأنبا أثناسيوس الرسولى الواقف وحده مع الحق ضد كل العالم. مدينة البطاركة عمود الأورثوذكسية القويم، أكليل السبعين ألف شهيد الذين سوف يُبعثون الى جانب المسيح، وجوههم بيضاء كاللبن والصاروفيم، يغنون فى مكرمتهم ويُسبحون. رأس فاروس يلقى نوره من إليوسيس الخَضَرة الى قانوب أبو قير، من الجومنازيوم ومعبد باسيدون الى الامبريون والستاديون، من الهيبودروموس الى معبد السيرابيوم، من تل راتوتيس كوم الشقافة الى السلسلة رأس لوقياس، من تل بانيون كوم الدكة وكامب شيزار الى بتراى حجر النواتية، المَرسى العظيم الشأن لا يضارعه الا مرسى قاليقوط فى بلاد الهند، تنبثق من قلبها المسلة الجسيمة التى ليس تحت قرار الأرض مثلها بنياناً ولا أوثق عقداً، أُفرغ الرصاص فى أوصالها، فهى مؤصرة لا ينفك التئامها، وعمود السوارى المنحوت من رخام جبل إيريم الأحمر، تاجه منقوش مُحزَّم بأحكم صنعة وأتقن وضع ليس له قرين، مدينة المراتع والمحارس والمدارس والمسارح والجنان، ذات العماد . ذات الأربعة آلاف حمام، الأربعة آلاف ملهى، كلها قمينة بالملوك الأربعة آلاف.يقال لا يبيعون الا البقل الأخضر دعك من الآلاف الأُخر. عروس البحر الدفاق من القلزم الى بحر الزقاق، جامعة المزارات من سيدى المرسى أبى العباس وسيدى أبى

الدردار إلى سيدى الشاطبى وسيدى جابر وسيدى كريم رضوان الله عليهم أجمعين. ذات الشوارع الفساح وعقائد البنيان الصحاح، جليلة المقدار، رائعة المغنى، شامخة الكبرياء. أسكندرية يا أسكندرية شمس طفولتى الشموس، وعطش صباى، ومعاشق الشباب.

قلت، أما زلت تحلم بالديمومة بما هو أكثر من الخلود ؟

قلت: ألا ترى أن هذا كله حلم سئ وخيم العاقبة؟

قلت: لا.

الملائكة الرخامية من وراء أسرار الجبانات تحلق معى فى الأفلاك العلوية صلبة وبيضاء، بأجنحتها المبسوطة الثابتة، ووجوهها الجميلة كأنها تبتسم لى أنا وحدى.

وعندما أنحرف فى الطريق الواسع الخالى الى اليسار، فليس ذلك، على نحو ما، بإرادتى. الشارع مظلم، ومرتفعات الشلالات الى جانب بأشجارها العجوز القوية فى الليل. والى جانب آخر، جدران مخازن فورد العالية، أحجارها رمادية وضخمة، تقطعها النوافذ الكبيرة المغلقة بزجاج شديد القتامة، تلمح عليه من الخارج قضبان حديدية سوداء، وليس فيها نور ولا تنتهى الأبواب الحديدية الهائلة، عليها أضلاع المتاريس المتقاطعة، وتحت الجدران صف واحد متلاحق من سيارات الأوتوبيس الزرقاء منتفخة البطن، سطوحها مقوسة وداكنة فى العتمة التى تتكاثف وكأننى أحس لها قواماً وجسماً.

رائحة المطاط القديم فى عجلات الأوتوبيسات المرصوصة تختلط بنفث التراب السخن من الشلا لات والخضرة الجافة وعبق الزهور اليابسة الحمراء التى تفتتت وغطت بقعاً واسعة تحت الأشجار المحترقة من الشمس طول النهار، وأنفاس البحر الليلية تأتى الى من فوق المدافن الشاسعة المزدحمة بالموتى، وأعرف أنه ليس لى موْتَىً فيها بعد.

كنا ذاهبين الى حمام الشاطبى، وكان اليوم الأربعاء هو يوم الستات. مشينا على الجسر الخشبى الممدود على أعمدة حديدية نال منها الصدأ، مغروزة فى كتلٍ من الحجر والأسمنت مدفونة فى الرمل. أحسست الجسر يتأرجح تحتنا وأنا أرفع وجهى، وجسم أمى فى فستانها السنىّ الناعم الطويل يقتطع نسيج السماء الزرقاء فوقى.

هبطنا السلم الزلج الذى ينزل الى الماء، وأرى درجاته الحديدية ممرُوجة وسوداء تحت سطح الموج، أمسك بالدرابزين بشدة. كانت أرضية الكازينو فوقنا الآن، ونحن تحتها فى الماء، وقاع البحر قريب. وقفتُ على آخر درجة من السلم. وابتل المايوه الصوف الأحمر الذى اشتغلته لى خالتى سارة، ووصل الماء الى ما فوق وسطى بقليل، فأحسست رقرقته الباردة الهادئة حولى.

كانت الأعمدة الخشبية السميكة التى تحيط بها من جانب واحد دعامات مسطحة من الحديد، ترفع أرضية الكازينو والحمّامات والجسر، الماء يصطفق بينها بكسل، وحبال سميكة ممدودة بين الأعمدة، متراخية

قليلاً، تهتز، لا يطولها البحر، والطحلب طرياً لامع الخضرة، يغطى الأجزاء المغمورة من أعمدة الخشب القديم، ويصعد قليلاً فوق الماء، يرشه الزبد القليل ثم يجف بسرعة. الأمواج فى هذا المحبس المائى تحت الكازينو كثيفة بخضرتها الداكنة، ولها رائحة عطنة قليلا من أعشاب البحر وطحلبه، كرائحة الكابينة. والضوء بارد له إشعاعات تنعكس وتهتز وتتموج من تحت، على السقف الخشبى فوقنا. ورأيت نور الشمس بعنفوانه وسطوته ينزل، بعد آخر الكازينو، على البحر المفتوح الفسيح المتقلب، الذى تأتى أمواجه بسرعة بَزَبَد رغوتها وكتلتها المائية الصلبة، فترتطم بأولى الأعمدة الخشبية، ثم تنسال إلينا بعدها، وقد أنكسرت شرتها، معتمة هادئة.

لم يكن بالبحر حولى غير السيدات، ينزلن على السلم ويشهقن من صدمة الماء، ويقفن قليلاً يمسكن بالحبال القوية بين الأعمدة، ثم يتحركن مشياً الى البحر يتهادين بحرص، ثم يرمين بأجسامهن فى الغمار الطلقة المضطربة، ويسبحن إلى عالم لا أعرف كيف أقترب منه.

كان الأنجليز قد أنسحبوا من ثكنات مصطفى باشا. تركوا فيها قوة رمزية، وكانت أعمدة الدخان قد توقفت عن الصعود من القنصلية البريطانية المبنية كالقلعة على ربوة عالية بازاء محطة الرمل، قبل المستشفى الأميرى.

ومع ذلك فقد كانت بنات الـ A. T. S. يتخطرن على الكورنيش

الخالى فى قمصانهن البيضاء الناصعة، والكرافتات الصغيرة الأنيقة والچيبات الكحلى المحبوكة على الأرداف الرشيقة. ينزلن الدرجات القلائل الى الشط الرملىّ النظيف الخاوى، والى الكباين المخصصة لهن فقط فى شاطئ مصطفى باشا، يحرسها البكيت، يمنعون حتى اقترابنا من السور الحديدى الذى نصبت عليه أسلاك شائكة متقاطعة. البكيت بالبيريه الأحمر، وعلي ذراعه الشريط الأحمر المكتوب عليه بالأبيض M. P. يلوحّ لنا بمدفعه الصغير، بصفاقة وبرود، دون أن يقول شيئاً. ونحن نلمح الأجسام البيضاء المشروقة الشاهقة البنيان، والمايوهات الداكنة المصروفة - تعيين - من مخازن الجيش أو البحرية أو الطيران، تلمع فى شمس ظهر الأسكندرية الشتوى، وهن يغبن فى البحر المضطرب دائماً بالزبد والموج المتقلب فى هذه البقعة بالذات.

فى الأيام التى ظننت فيها أننى شاعر، كنت فى أصباح الشتاء النقية يوم الجمعة، أنزل وحدى الى خليج ستانلى. كانت عيناى تحتفلان بعساليج النبات على الجدار المنبسط الناعم، تحمل إلىّ رسالة رومانتيكية، مهتزة الأطراف، من جمال الكون، تعذب قلبى وتعزيه معاً. أنزل علي سيف الرمل وشط الصخر، أشارف حافة الموج، ويرشنى رذاذه، وأنا أغوص فى تهاويم دوامات الماء المزبدة الصغيرة وتخابيله فى أغرار ضحلة بين نقر الصخور ونتوءات الحجر، حيث السماء مصغرة متموجة محبوسة ورقراقة في وهدات مسطحة قريبة القيعان، أو أراقب

نَهك البحر مرتمياً مستنفداً على الرمل بزيده المرغىّ ووشيشة العنيد، مرة بعد مرة بلا انتهاء. وأفكر بغموض فى أن هذه كلها أبدية، وأنها كانت هنا قبل أن أراها بدهور سحيقة وستظل هنا بعد أن أذهب بدهور سحيقة. ألم أكن شاعراً؟

كان سور الكورنيش على اليمين ونحن نتجه الى كامب شيزار عالياً جداً، وتحته الكباين الخالية المتنوعة الأشكال والتصميمات، لكل منها خيالاته المجسمة على هيئة مقاصير وأبراج من خشب ومظلات، من حصير ونوافذ، من زجاج ملون سميك. المربع منها والمستطيل، المسطح القريب من الأرض، والعالى تطلع إليه بسلمتين أو ثلاث. وكانت كلها مهجورة، وخشبها باهت وحائل من شمس الصيف، ومخرم كالدانتيلا أو مصَمت وجدرانه مخططة بشقوق رأسية رقيقة.

كنت أنحنى على الرمل، وجمعت لها من قرب الشطّ كومة من الصدف الأبيض الناصع، والأحمر المُموجُ الصُهبة، والقواقع الصغيرة الكاملة التكوين، ما زال حيوانها الهلامىّ حياً فى كنهًا العميق، متحيراً، ينبض.

هبّ الهواء، قوياً، من البحر. وجاء من الأفق، بسرعة، سحاب قاتم. وأربدَت السماء، وأدلهّمت فجأة، وخفق ضوء البرق واستطار، مرة واحدة، فى نور الغروب، واشتد عصف الهواء. جلجل الرعد وقصفَ بعنف فوق رأسينا مباشرة، كأن العالم ينقضّ. وقبل أن نتحرك أنهلّ مطر كثيف

ضخم القَطْر، أغرقنا في لحظة، وأحسست الرمل تحت قدميّ داكناً ومتماسكاً. نَقَدَ هشاشتَه، وأبتل شعرها الوحف كله دفعة واحدة، وسقط خصلاً غامقة لامعة على جبينها المدور وعلى ظهرها، وألتصقت البلوزة الموسلين البيضاء بصدرها وتغير هبوب الريح، فسمعت للنسيج صوتاً طرياً يتلوى بالهواء من أمام وهو يلتصق بظهرها.

جرينا، دون أن نتكلم، كأنما على اتفاق، الى أول كابينة. وكانت شرفتها الخشبية مغطاة عريضة. وأحسست الكِنَّ الجاف مطلوباً ومرغوباً، بينما وابل المطر يدق السقف الخشبي دقات متقاطرة مليئة، والهواء يهز الحصير من على جانبي الشرفة، وقد طلعت له رائحة ابتلال البوص القديم الحادة الريفية. وسمعت حنيف تموّج الحصير تحت هبات الريح المتتابعة.

نظرنا الى أحدنا الآخر. وفجأة، دون كلمة، انفجرنا معاً بالضحك.

والبحر جثة يلقيها الغسق، تحت أقدام المدينة.

الاسم يسقط منى، برغمى، بين يدى الموت.

فهل سمعتُ أبداً صوتَكَ المجيبى؟

وهل رأيت أبداً، على ستفى، لجمة الرجْد الواحدة؟

ولكنها جاءت.

الشئ الذى لا يصُدق ولا يعقل حدث.

جاءت فى الميعاد: بل قبل الميعاد قليلاً فيما يبدو، لأننى وجدتها،

هادئة الطير، فى ردهة كازينو الشاطبى الدائرية التى كانت جديدة وفسيحة وخاوية ودافئة قليلاً فى بعد ظُهريّة أكتوبر، وزجاج الردهة المقفل يدور حولنا. كل لوحة مغبّشة قليلاً بالزرقة الباهتة، تعكس بحراً خاصاً لها، معورجاً قليلاً، تلعب أمواج الزرقة المدهونة بأمواجه الصغيرة، وتؤطره بين جانبى الستارة القماشية المربوطة بكل نافذة على حدة. بحار كثيرة شائهة ومحبوسة.

كان العالم فى فجْره الأول، خاوياً ليس فيه أحد، والهواء النقى، صحراوياً وصحواً، فيه بلولة البحر وجفاف خاص فى الوقت نفسه.

كان الوقت ظهراً هادئاً، كامل السكون.

الصمت ليس صلباً، صمت ناعم. كل شئ كان ناعماً، وصافياً.

كنت قد عدت الى هذا العالم الذى لا ينقضى أبداً. أنا مع ذلك غريب فيه أعرف أننى لست هناك.

وأمى تمسك بيدى، ونحن ننزل من القطار الى المحطة فى أبو قير، وحدنا، لم يكن فى القطار، ولا فى المحطة، غيرنا،

أرصفة المحطة مرتفعة، قائمة مباشرة على الرمل الأصفر النظيف، وأرضيتها سوداء لامعة البلاط.

مبنى المحطة، بمدخله الرطب الظليل المفتوح على الرمال من الجانب الآخر، وسقفه المثلث المكسو بطوب القرميد الأحمر، وشباك التذاكر الوحيد المكتوب عليه بالعربية والأنجليزية، ومن وراء قضبانه الحديدية

وجه ناظر المحطة، جامد فى العتمة، يبدو كأنه مبنى مسحور.

الخرطوم الأسود الضخم، معلقاً بفوهته الحديدية المضلعة من الصهريج، متين العضل، جلده الخارجى مندي وحار، يتدفق منه سيل متماسك القوام من الماء، يضرب الرصيف ثم يسقط مندفعاً كأنه صلب، ويتقلب وينهضب ويُزبد برغوة شفافة وثقيلة وبيضاء، يهبط الى الفراغ المستطيل بين الرصيفين العاليين، ويسيل على الفلنكات الخشب وبين القضبان الحديدية الممتدة، بثقة، الى المصدات الحديدية الشريرة الشكل.

نزل السائق من القاطرة القوية المدورة البطن، كاملة السواد، وعليها كتابة ذهبية اللون، ومازالت تنفث هبات كثيفة من البخار الأبيض فى نور الظهر. انحنى بكل جسمه، وأدار، بجهد، عجلة ضخمة أفقية على الصنبور الكبير المنتصب على الرصيف، فانقطع انصباب الماء، وتحول الى سلسال رفيع يتقطع ويتصل، ويتقطر من على جانبى الرصيف الى الرمال الخشنة التى تتشربه، بسرعة وعطش، تحت الحصى والزلط وتراب الفحم.

كان الرجل صامتا وهو يعمل، وكان الماء صامتاً، والمحطة صامتة، لا صوت هناك ولا أحد.

كانت ترتفع من مرآة البحر الرصاصية اللون صخرة ناتئة عريضة، رأيتها مكسوةً بأكملها بالنوارس، كأنما حطّتّ عليها سحابة كثيفة مبطنة بالريش الأبيض، ساكنة عليها، متشبثة بها. النوارس متجاورة متزاحمة،

الجسم المطوى يلتصق بالجسم المطوي، وقد أحنت رؤوسها، وأدخلت مناقيرها الطويلة في صدورها، محدّبة الظهور، أجنحتها مطبقة إلى جانبيها. وكانت كلها تبدو جافة، مكسورة.

وألوان البحر قد أخذت تتخطط، أمام عينى، بنفسجية وزرقاء وبيضاء فضية مشعة، تحت سحاب أبيض تختفى الشمس وراءه، وتضيئه باحمرار سائل مشاع، وهدوء البحر عميق، صفحته مبسوطة لا تكاد تترجرج، ووشوشة الموج الذى يترقرق، على مهل، ناعمة، أسمع صوت الصمت المطبق تطرزه وتنمنمه، فجأة، زقزقة العصافير التى تتواثب على الرمل الطرىّ، وتنقر العشبَ اللزج والودع والصدف الحيّ بمناقيرها الصغيرة السريعة. ومن بعيد صدى نداء يتردد على الكورنيش: سيّد .. حسّونة .. لا يكاد يُسمع. وعلى آخر المدى أرى عاشقين غامضين على الرمال العذراء. فى هذا الفجر؟ أى هيام لا يقاوم؟ أية رغبة مبهمة رخرساء، مطلقة، تدفعهما يمشيان على هذا الشط الموحش المبلول؟

عند التقاء الرمل بالموج خطٌ الطحلب الأخضر الذى يَبْيَضُّ حينما ينحسر عنه الماء، غَض ويابس على التوالى، بلا توقّف. قلت لنفسى: أبدىّ، دائم، أمام فنائنا وانتهائنا.

الشاطئ طويل هش مشدود، ملقىً بين الفراغ والملء، خصرٌ هضيم ضامر مسحوب، قابل للأنكسار فى أية لحظة، فى أية بقعة، لا بؤرة له يتكثف وراءها ويحميها بنطاق وراء نطاق من الحواجز الواقية. خط

متموج يقع على حرف هوة لا قرار لها، متلاطمة، وخادعة عندما ما تهدأ، لأنها دائماً مهددة بالعصف وضاربة بجبال الماء. سحرها جذاب لا يتاوم، وجمالها لا يمكن أبداً الإحاطة به ولا الانتهاء من تملى مفاتنه، [illegible]ية الأذرع ممدودة اليّ، تدعونى دعاءً لا أعرف كيف أصده، دعاءً فى الاستجابة له وقوعُ القضاء الذى لا مردّ منه، على هذه الحافة الهشة القلقة، بين الحياة والعدم، وطنى الذى لا أعرف كيف أستقر إليه.

كنا في أواخر سبتمبر، وشمس بعد الظهر تصنع على صفحة البحر، تحتى، ملايين النقط اللامعة التى تبرق وتختفى وتُعشى عينى، وزرقة الماء تحتها عميقة وداكنة وكثيفة الشفافية في الوقت نفسه، فأمد بصرى من نافذة الكازينو العالية المفتوحة إلى الأفق الغامض فى اتصاله بخط السماء المهتز بالضوء، عندما رأيتها.

كانت تسبح تحت النافذة، بالمايوه الأزرق الفاتح، معبركاً عليها، لامعاً تحت سيرلة الموج الخفيف الذى يترقرق عليه وينحسر فى حركتها الناعمة، ذراعاها لا تكادان تصنعان رغوة فى انزلاتها المنساب على الماء. وعرفتها. وأنا الذي كنت نسيت كل شئ عنها. جسمها فاتح السمرة رفض، ولما يكاد يكتنز بأنوثته التى تتفتح وتزدهر، فى أول امتلائها الباكر، ولكنها أصغر سناً بكثير، فتاة بعد، ولها رشاقة سمكة فى الماء.

خفق قلبى، وتوقف. من هى؟ هل هى أخت لها، صغيرة، لم أرها من قبل؟ كنت موقناً أنها هى، هى. أم هى الأخرى التى سوف أعشقها،

وأنقذها. تعلقّت عيناى بها، مسحوراً وغائباً، وعندما ما انقلبت علي ظهرها، تطفو فوق الماء، رأيت وجهها المدورّ الخمرى، مغمض العينين تحت الشمس، طافياً إلىّ، وكان شعرها الخشن الوحف قصيراً حول رأسها، مبلولا وداكن السواد، أعرف حرافة عبقه المسكر، وخداها الأسيلان يومضان فى استدارة رخيمة كاملة تحت الماء، وهى تبتعد. ساقاها، فى بضاضتهما المخروطة البلة، لا تكادان تتحركان، وذراعاها تضربان الماء بحركة خلفية منتظمة، إيقاعها هادئ، وهى تبتعد. وعرفت أننى ساحبها، فى آخر العمر، حباً كأنه الموت، وأن قلبى هو ساحة بحرها اللجىّ الجياش أبداً بأمواج لا هدوء لها.

أرى الولد، صغير الجسم، ساقاه رفيعتان فى الشورت الأبيض الواسع، وقميصه مفتوح. عيناه كأنما فيهما نظرة متأملة، مبكرة كثيراً عن سنه، وهو يقف فى أول الصبح على حافة البحر الموحش، عند المندرة.

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة، مشعّة ولا تكاد تترقرق، دسامةٌ بيضاء فى الضوء الذى يكاد يكون شتوياً، تنتهى برغوة شفافة تغوص فى الرمل بوشيش خفيض، متكرر.

وأحسُ، عبر السنين الطويلة، بالنداوة اللينة تحت قدميه الحافيتين، والهواء المبلول علي وجهه.

وأجد أن الشوق، مثل نزوع الموج، يرتمى علي الشط ممدود اليدين،

بلا تحقق، مثل اندفاع الماء، مستنفداً بعد رحلة طويلة علي ثَبَج العمرُ، ينكص محسوراً أبداً إلى عرض اليم العميق، ولا يفتأ يعلو وينحسر، حلمه يأتى ويعود، لا يهدأ الى راحة، وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرّج، لحظة واحدة.

فى تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطئ الواسع.

كنت أحس نفسى وحيداً جداً، وهواء البحر يأتى على وجهى حاراً ثم رطباً على التعاقب، مرة بعد مرة، ومحملاً برائحة الماء الملحية، وأضاءت أعمدة النور على الكورنيش، معاً مرة واحدة، بقعاً مستديرة بصفرة وهاجة إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذى مازال فى طرفه احتراق الغروب، يسودّ بالتدريج، ونور المصابيح المهتز يقع على أسفلت الكورنيش وعلي ظهور السيارات اللامعة التى تمرق بصمت وسرعة، متباعدة وقليلة، لتختفى فى انعطاف الطريق، عند الكازينو البعيد.

وأمام الكابينة مباشرة التفتُ فجأة فرأيت جسمها يدور تحت عجلات السيارة، أمامى، ناعماً ولدناً بدون مقاومة، فستانها يطير وينقلب تحت السيارة، والذراعان تهتزان، والجسم يلتف مع العجلات، مرة ومرتين.

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامى نفسها.

وسمعت صرخة ثاقبة فى سكون الغروب.

كنا فى ليلة فى أول الصيف، العالم قد خلا فجأة، أصبح مجوفاً. صفارات الأنذار تُعَوِل عويلاً موحشاً، وسمعت الكلاب تنبح، بصوت

مرتفع، فى السكون، والظلام الذى سقط.

نزلنا السلالم مسرعين، من بيتنا، فى حارة الجلنّار، إلى راغب باشا، كنت أمسك بيد أختى هناء من ناحية، وأختى لويزة من ناحية أخرى، وكانت أمى تحمل أخى ألبير الصغير، وأبى قد لبس البالطو على جلابيته البيتى البيضاء، ومعه أختى عايدة، صامتة وخجلة قليلاً من أنها كبرت الآن ولم تعد طفلة. وعبرنا شارع راغب باشا، وكان معنا جماعات صغيرة من الناس يتحدثون بهمس، ودخلنا من ميدان صغير فى تقاطع شارع إيزيس وشارع صغير لا أعرف اسمه، ودخلنا من الفناء الصغير إلى باب الكنيسة الإنجيلية المبنية بالحجر الأحمر، ووقفت بالباب بينما نزل أبى وأمى وأخواتى إلى البدروم المتين الصلب الشكل.

كنا نعرف أن باب سِدْرة قد ضرب، أمس، بطوربيد، ونشرت الأهرام والمصرى والبلاغ خبراً واحداً وبنص واحدٍ معاً، أنه أنهار بيتان كانا آيلينْ للسقوط، وأنه لم تحدث خسائر فى الأرواح، وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة. وكنا نعرف أن العمود، صباح ذلك اليوم، قد غص بالجنازات المتتالية، وأن الكنيسة فى جبانة الشاطبى أيضاً، قد ظلت أجراسها تدق طول الصباح. وأن العديد واللطم والشلشلة قد فاض من بين البيوت والأنقاض، وأن صلاة الموتى والغائبين قد أقيمت فى جامع سيدى المرسى أبى العباس وفى الكنيسة المرقسية فى وقت وحد معا. وقال أبى إنه فى طريقه لشغله رأى فتحة واسعة غائرة ظهر الماء فى

قاعها، على دوران البياصة، ورأى، من خلال كوردون عساكر الجيش المرابط، الحيطان المتهدمة والأنقاض والأحجار المتراكبة، وإنه رأى سراير حديدية متلوية ومحروقة، معلقاً بها جلاليب رفساتين كأن أصحابها قد خلعوها الآن فقط.

كانت السماء فوقى قد أصبحت شاسعة ومخيفة، تحمل الموتَ فى بطنها، الموتَ ممدداً ضارياً وثقيلاً ونهائياً. وكان نور القمر قاسياً فى سطوعه النسيج، وانطلقت أسنة الأشعة الكاشفة سيوفاً طويلة متحركة من النور القاطع، آتية من أطراف المدينة ومن وسطها معاً، تدور فى الزرقة الصافية الحريرية، تتقاطع وتتجاذب وتتفارق وتتلاقى أطرافها لحظة، وتتركز فى نقطة واحدة وهاجة ثم تتشعب، تجوس فى البطن الفسيحة المغلقة عليها، تبحث عن بؤرة مراوغة، وطلقات الآك آك الرفيعة الثاقبة المتعاقبة تطقطق دون توقف، ثم تنفجر فى ورود حمراء معدنية تتناثر شظاياها على النور وتنطفئ، وهدير محرك الطائرة بعيد وعالٍ ولكنه مسموع بين انبثاقات الطلقات من المدافع المضادة للطائرات، فى الصمت الذى يجعل المدينة أكثر شفافية واتساعا، من الأنفوشى إلى المندرة والمنتزه، من الرند والبان والنخيل فى غيط العنب إلى اللبّان ورأس التين وأنسطاسى، من جليمو نوبرلو وزيزينيا إلى ستانلى والنزهة والورديان، من حجر النواتية إلى كوم الناضورة، من سيدى جابر وسيدى بشر وباكوس إلى سموحة والمكس، ومن محطة مصر والرصافة الى

مصطفى باشا عوداً إلى عزبة الصيادين، كانت حبّات أسكندرية عارية مطروحة، تغطيها فقط أسنة من شبكة الأشعة التى تطعن السماء.

كان العربجى يسابق ترام محرم بك وهو يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان الذى له لون الكونياك الفاتح الذى يشربه أبى، وكانت عجلات العربة تقرقع على قضبان الترام التى تومض فى الشمس.

ودخلت العربة الى شارع الرصافة، وكانت الأشجار ظليلة فى الصبح والشمس تهتز من بين أوراقها التى لها رقرقة سريعة المرح وجافة فى الهواء الرطب. ثم حودت العربة الى شارع جانبى ترابى ولكنه واسع، وفيه خرابات مسورة بالحجر الأبيض الكبير المكسر الضلوع، وفى الحجر خطوط متعرجة داكنة اللون، وفيه بيوت كالسرايات لها أسوار حديدية تتهدل عليها أغصان كثيفة وتهب منها رائحة الياسمين البلدى العبقة ورائحة الأرض المبلولة.

كنت فى الوقت الذى أحفظ فيه الشعر الجاهلى وأقرأ القرآن وأترجم رواية مغامرات أسمها «السهم الأسود» وأحب النتاة الأرستقراطية ذات الروب الحريرى الأزرق التى تطل من الشرفة، أمام بيتنا فى محرم بك، ثم تدخل مباشرة فى اتجاه الحديقة المسورة التى ترتفع من وراء الفيللا بأشجار النخيل والمانجو والموز، أذهب للمدرسة العباسية الثانوية - كنت فى السنة الثانية - عن طريق تخريمة فى قلب محرم بك.

يرتفع بى الشارع الرملى الحجرى المدكوك النظيف، وأنفذ من ثقب

في سور ضخم قديم من الحجر الأنترى الذى اصفر واريدت سطوحه المخشنة، فاذا بى فى سفح ربوة رملية صلبة الأرض قليلة الارتفاع، ورائحة الغنم والجمال وروثها وصوفها وجلدها تفغمنى كلها، وخيام الشعر المغبرة الداكنة أرى وبرها ممزقاً ومرتوقاً بقطع من الجلد الجديد مرة ومراراً عند خط المزقة نفسها، واطئة ومظلمة الداخل، متناثرة على الربوة بين بضع نخلات نحيلة وسامقة الأرتفاع. ثغاء الماعز ودخان الكوانين يرتفع.

وعندما أخرج، فى السابعة والربع تماماً، حاملاً كتبى وكراسى، فإن الحركة فى مخيَّم البدو تكون قد هدأت، فقد خرجت البنات وراء معيزهن التى ترعى على نفايات ورق الصحف وورق الشجر وخرق القماش القديمة فى شوارع محرم بك الهادئة، وكنت أجد نفسى فجأة فى نجد، أو تهامة، أو الحجاز، وأنا على ناقة امرئ القيس، مع البنت البدوية القصيرة الملفوفة، بثوبها المخطط، وأنفها مخزوم بحلق ذهبى مشرشر الحافة، عصابة حمراء عريضة تخفى شعرها إلا من ضفيرتين مجدولتين بقماش ملون يبدو غير نظيف تمام النظافة، ولكن العينين السوداوين تلمعان بوجد فى وجهها الخمرى المسحوب تحت نقاب نصفى سميك يخفى فمها، فلم أرشفتيها قط، ولا عرفت ابتسامتها، كانت تنظر إلىَّ، وكنت أحبها جداً، وأسميها ليلى الأخيلية، وأنا أمر ببطء تحت حافة الربوة.

تنزل برشاقة، ردفاها المضمومان يتحركان بموسيقية لدنة تحت الحزام الأحمر العريض النازل على أسفل بطنها، أنسَى البيوت القليلة المنخفضة

التى تحيط بالمخيم من بعيد، وأنسى الرائحة الحادة وخوار الجمل الشيخ الذى يهدر فجأة بصوت أجش ومحبوساً فى حلقه، وأنسى دخان الكوانين الذى ينفذ الى أنفى، ولا أعود احس الا بالمحبين العُذريين وأعرف جميل بثينة وكثير عزة والمجنون يقطنون هذا القلب الذى كان - وما زال، على كهولته - شبقاً وتواقاً وفياضاً بالحب والحلم.

وأخرج من الساحة الترابية المغبرة تحت الربوة كأننى أخرج من عالم سحرى رثٍ ومختلط التاريخ، طريق ضيق وعر ومتحدر، وأجد نفسى مرة أخرى فى الشارع العريض المسفلت الذى فيه عيادة الليدى كرومر، الانجليزية التى كانت أمى تأخذنى اليها وأنا صغير جداً لأمس عينى.

فى عشية عيد القيامة القبطي ذهبت الى مسرح «الجلوب» فى تقاطع شارع السلطان حسين وشارع صفية زغلول. كان صديقى جورج قد قال لى أنه سيكون هناك على الساعة التاسعة. كان الزجاج السميك الدائرى الذى يحيط بالقاعة الفسيحة مُنَدى ببخار الأنفاس من زحمة العساكر والضباط من كل صنف وجنس، ورائحة البيرة تختلط بزعيق الموسيقى الصاخبة حقاً، والپيْست الخشبى مكتظاً بالعسكريين يراقصون الفتيات السمراوات المجعدات والشقراوات وبنات البلد النحيلات والممتلئات بزواقهن الفاقع والانجليزيات من بنات الـ A. T. S. الصافيات البشرة كأنهن أبيات شعْر مصفى، ترفرف في ضجيج الخمرة والشبق والقذارة والعرق، والاحتفال الشرس بانتظار الموت الوشيك فى صحراء

العلمين وطبرق وبير حكيم. وكان وجه سيلڤانا الطويل بشعره المفروش كجناحي مروحةٍ بُنية الخُصل يطفو فوق الغمر. وكان العساكر يخرجون الى الحوش، رأيتهم وأنا داخل يتقيأون ويتبولون دون تورع تحت العراء، ويعودون متساندين على بعضهم بعضاً أو حتى على نسائهن اللاتى ينتظرن غير بعيد ويصرخن لمرأى الرجال يبولون أو يقذفون ما فى أجوافهم، بأصوات ثاقبة من السكر وانطلاق العربدة الحسية فى الأوصال الجائفة الجائعة.

رأيت أننى أسير الى كوم الدكة، وفى الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التى تقع على المحمودية والتى كنت أشترى منها، الآن وأنا صغير، الخسّ والجرجير والبصل الأخضر والكُرات والملوخية والكرفس والبقدونس والخبيزى والفجل والسلق للقلقاس. وفى كل مرة أسير إليها متمهلاً، متأملاً، أمر بسياج خشبى عالٍ فيه ثغرات طولية بين ألواح الخشب، أضع عليها عينى ولا أكاد أرى وراءه أسرار هذا المبنى الغامض البعيد الشاحب البياض، وله أعمدة.

ورأيت أننى صعدت إلى أعلى تلة كوم الدكة القديمة، وقد جلا عنها الجنود الانجليز سراً فى الليل، ولأول مرة منذ وعيت لم يكن اليونيون چاك يرفرف على ذروة التلة، وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن كوم الدكة القديمة قد أزيل، وحلت محله ساحة مسفلتة ومبان حكومية، وأننا كنا ننطلق فى جماهيرنا الغفيرة، منذ الصباح الباكر، نرتفع على طرقات كوم

الدكة الخالية التى كانت محرمة علينا، وقد أصبحت فى هذا الصبح حلالاً، جماعات جماعات، أصوات هتافاتنا مبحوحة فى الهواء النقى: الجلاء الجلاء يسقط الاستعمار يسقط الاستغلال، وكانت عنابر الجنود الانجليز خاوية على عروشها، ولم يتحرك الجيش المرابط لاحتلالها بعد، ودخلناها ورنت اصداء أحذيتنا فى فراغ حيطانها، وكان بلاط أرضها مترباً قليلاً وعليه قصاصات ورق ممزقة وبقايا القش، وكأن اليوم عيد، وجماعات المتظاهرين كأنهم يرقصون رقصات جماعية، يشورون ويهتفون وينشدون من الفرح.

وكانت الأشجار القصيرة المشذبة على جانبى الممرات الترابية كأنها رؤوس خضراء مشعثة، مطموسة العيون فى الجدائل الخشبية الغليظة المورقة بدغلات من الأغصان كثيفة جعدة منذرة ومهددة وشرسة. وعندما طوفنا بكل أنحاء القلعة المهجورة الموحشة، ونزلنا، وجدنا جنود بلوك النظام صفوفاً متراصة تحت سفح كوم الدكة، وفى أيديهم دروعهم الخشبية الخضراء القاتمة، على رؤوسهم خوذات حديدية صدئة، ركبهم مدورة سوداء بارزة تحت الشورتات الكاكى الطويلة، وشرائط الألشين تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحت الأحذية الميرى الضخمة المتربة بجلدها الخشن المتبب. وانتظمت الجموع بقيادة صديقى عبد القادر نصر الله الذى كان مازال فى كلية الطب، بينما كنت قد تخرجت سنتها من جامعة فاروق، وكان قد انضم الى جماعتنا الثورية الصغيرة، ورأيت

على جانبي شارع النبي دانيال جثث الأطفال المرمية هامدة، حمراء لها قشرة لامعة، كأنها جنبري مسلوق ضخم، أيديها وأرجلها ثلاثية الأصابع مبتورة ومتورمة، وحول رؤوسها غلاف صدفي شفاف، تحدق من وراء زجاجه عيونها المفتوحة المتوهجة. وكانت المظاهرة تشق طريقها، مع ذلك، بحرص، بين صفي الجثث الطفلية تحاذر أن تمسها، وعندما وصلنا إلى واجهة كأنها بوابة فندق مُنيف، ناطحة سحاب، ألواحها زجاجية مدخنة شاسعة، تقطعها أعمدة الألمنيوم المصقولة، هجم جنود بلوك النظام فجأة دون إنذار، وسمعنا في الوقت نفسه قرقعات الرصاص في الهواء كأنها غير جدية لا تحمل خطراً، آتية من نوافذ البناية الزجاجية الشاهقة، ورأيت الناس يسقطون بصمت، مضروبين بالرصاص، وتمر عليهم الأقدام المتلاحقة. والناس قد انطلقت تجري في كل اتجاه، وكانت موجة الناس تصعد وتهبط، ورأيت الأجسام التي أمسكت بها النار تُلقى من النوافذ العالية، وتتقلب في الهواء، وتسقط بعيداً في البحر، وكانت الرؤوس تطفو فوق الأمواج مفتوحة الأفواه بصرخة لن تصمت أبداً، ورأيت وجهها الذي أحبه، ويرودني في حلم مستمر، يسبح في مياه حبي التي لا تغيض، ساطعاً بسمرته الخمرية وسط زَبَد الرؤوس المتلاطم من غير صوت، وأحسست الطعنة في قلبي من عينيها الواسعتين بموجها المخضر الشَبِع، وسقطتُ في الغمر، ولما أفقت كانت الطعنة مازالت تغوص في عمقي الذي ينصهر ويتقد ويفيض حمماً كالبحار الوحشية الجموح، تنسكب متوهجة تئج باللظى وتُغرق جسمي في ضرام اللهب، وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النار ترفرف حولي وتصعد بي، في زُرقة

السماء الصحو الناعمة محترقاً من غير انتهاء.

أخذت ترام الورديان، وكانت عربة الترام تتأرجح قليلاً في اندفاعها وكان شارع السبع بنات خالياً في حر الظهر، ورطوبة البحر تأتى الىَّ من نافذة الترام المفتوحة، ونزلت بعد كركون اللبان بمحطتين، وكان الشارع مرصوفاً بأحجار البازلت السوداء المحدبة قليلاً وعلى جانبه مخازن الخشب والقطن العالية الحيطان، والورش الصغيرة، ومخازن الخيش والبصل، وعربات الكارو الطويلة واقفة تحت الجدران المصمتة الخشنة القوية الحجر، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر خفيفة وجافة قليلاً، تأتى من ناحية الميناء تحملها بلولة الهواء.

ولمحت البار في منعطف داخل شارع جانبى، اللافتة الخشبية على بابه مازالت حروفها الانجليزية «بطاطس وسمك» مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسود الذى لطخها به الطلبة الوطنيون بلا شك، وقد أقلع جنود الحرب الذين كانوا يملأون هذه النواحى بعيدة اليأس والقهر والموت.

كنت قد نزلت من الترام، وكنت أصعد على صقالة خشبية بها حزوز بارزة أثبت بها قدمىَّ، الى المركب الصغيرة المربوطة بالرصيف، تتأرجح قليلاً على المياه المخضرة الثقيلة القوام التى تطفو عليها، وسط زبد أبيض كرغوة الصابون غير النظيفة، عكارة، وأوراق خضراوات ذابلة، وقطع خشب عليها بقع زفت سوداء، حول جنزير الهلب الساقط في العمق الداكن، تبرق على موجه نقط حادة من شمس بعد الظهر.

وكانت المركب خالية تماماً، فجأة، وأنا أجرى فى ممرات تفتح على ممرات مفتوحة وفيها نوافذ زجاجية مدورة أرى منها أمواج البحر الزرقاء العالية وجوانب البواخر الشاهقة ومداخنها العريضة وأبراجها الثابتة، ومازلت أجرى وأجد أمامى سلالم خشبية عالية تصعد الى مالا نهاية، لا أصل الى سطح المركب أبداً، وكانت جدران المركب الداخلية بلون بنى فاتح جداً يكاد يكون أصفر، ولامعة مصقولة ترمض، وأنا أجرى، بلا وزن، على السلالم التى تصعد معى بلا نهاية، وأسال نفسى، من غير دهشة، الى أين تنتهى السلالم فى هذه المركب الصغيرة التى كنت أظن أننى سأقطعها، طولاً وعرضاً، فى دقائق، ولا أنهج ولا أحس ثقلاً ولا ضعفا.

وأنا أجرى الآن فى ممر طويل، على سطح المركب، خشبه مبلول داكن اللون من الماء الذى تشربه وينفث رائحة ملح البحر، وصرخات النوارس تحوم حولى ثاقبة وجائعة، تصعد وتحوم وتهبط على الموج الراكد حول خشب المركب الراقفة، وأنا أطل عليها فجأة من حاجز حديدى طويل.

وتنقض علىَّ نورس سوداء، صدرها صلب ومدور ومكتنز، وفى منقارها الطويل الجارح رائحة أعشاب البحر الحادة، وهى تنظر الىَّ بعينين عانيتين فيهما حُكم علىَّ بالقتل.

كان البحر فسيحاً. مراكب الصيد الصغيرة بأشرعتها الضيقة تهتز على الموج الذى يكاد يكون مسطحاً، وداكن الزرقة. رأيت الصيادين بالصديرى واللباس الأسكندرانى الأسود الواسع الطيات، يبسطون

شباكهم وينفضونها من السردين، فيتتابع ويصطدم ويرتطم بخبطات طرية دسمة، ويسقط على الكومة الفضية التي ترتعد مازالت بالحياة، فى قاع المركب. وينحنى الصيادون ويلقون بالسمكات الصغار الى البحر، والأولاد بأجسامهم المحروقة يسبحون حول المراكب، منهم العراة تماماً ومنهم من اكتفى باللباس العبك المتهدل الذى يكاد ينزلق من على وسطه، يغوصون، برؤوسهم أولاً، ويخرجون على الفور وفى أيديهم السمكات التى تضطرب وتتملص وتتلوى وتتزلق، فيرمزنها فى أكياس مرتجلة من الخيش الغامق المبلول يشر منها الماء كلما خرجوا يشقون سطح البحر. والنوارس الرمادية الضخمة الأجنحة تنقض فجأة من علٍ وتخطف صيدها من المراكب، ومن أيدى الاولاد، صدورهم المخسوفة يلمع جلدها مشدوداً على العظام الناتئة، ترتفع وتنخفض باستمرار، وتحلقّ النوارس ظافرة، صاعدة فى خط مستقيم، وهى تنعق مهدّدة، غاضبة أو خائفة.

كنت قد أخذت ترام المكس المفتوح من الجانبين، وكان ألم الحب، والغيرة، والامتهان يعتصرنى، وله رائحة المدابغ النفاذة العطنة التى خنقتنى. ولم أكن واثقاً أنها سوف تأتى، كنت قد تيقنت الآن أنها لن تأتى. أقف، غير مدرِكٍ تماماً ماذا يقع لى، تحت سور القلعة القديم بأحجاره الكبيرة الرمادية، يرتفع الى يسارى شاهقاً يحجز انهياراً دائم الحدوث، وكأننى لا أرى البيّاعين والصيّادين جالسين القرفصاء أمام مشنّات ومغالق وقُفف تفيض بالسردين والبورى والمياس والجمبرى

والكابوريا، وأحاذر أن أدوس على أجسام السمكات الصغار المنفية، مهروسة على الرصيف، مسطحة، انبعجت من أبيضها بروزات، مدُماة باهتة عند البطن والرأس المدعوك المسّوى بالأرض.

كان كل شئ يبدو معادياً، وقريباً جداً منى، كازينو زفير بخشبه الأخضر الداكن وزجاجه المغبش يلوح لى غير بعيد، كشك مزلقان السكة الحديد وعليه بالخط الثُلث الكبير، ثابت ثابت وشركاه نترات الشيلى الطبيعى. كانت هذه الكلمات تجعلنى أحلم باستمرار منذ أن كنت أجئ مع خالى ناثان الى الكازينو، ونأكل السمك بالليمون والبصل والبهارات فى ورقة دسمة طالعة سخنة من الفرن. البيت ذى الشرفات العربية المنمنمة الذى تعرفته، حائلاً وشكله مهجور ولكنه هو، بعد ذلك بأربعين سنة. فندق سِى جلْ - لم يكن عندئذ مطعماً مزخرف الأناقة - مبنى مصمت الجدران رملى اللون مغلقاً على أسراره المشبوهة.

كانت رائحة البحر والسمك النئ الطازج تتغلغل فى الحوارى المرحلة قليلاً، مياه المطر من نوة الأمس مازالت تترقرق تحت هبات الهواء الملح، وتنتهى الى الأرصفة البازلت.

وكنت أمشى بسرعة بين البيوت المبتلة القليلة الارتفاع أحاذر أن أنظر، بشكل صريح، الى المداخل المعتمة قليلاً المليئة بالنسوان، منهمكات فى الطبيخ أمام مواقد الجاز التى تفحّ وتنير العتمة بنور أصفر ثابت الاتقاد، أو متربعات أمام الطشوت المعدنية يغسلن ويدعكن هدوم

الرجال والعيال، أو محنيات الرؤوس عاكفات على تنقية الُرز فى الصوانى النحاسية فى نور النهار على عتبات البيوت، وهن يرضعن أطفالهن تركن لهم أثداءهن بحركة نسيان لهم وللعالم كله، وكنت أحس عيونهن مفتوحة علىّ، صاحية لى فى الوقت نفسه، متسائلة.

عند صهاريج البترول الكبيرة والشعلة المتقدة المتطايرة التى لا تنطفئ، رأيت على سيف البحر صفاً من العساكر الأفريكانه الشداد يقفون وظهورهم لنا، ينظرون فى اتجاه البحر، شاكى السلاح، مشدودين، وكانت البارجة الأنجليزية شاهقة بيضاء راسخة فى البحر، ومشرعة مدافعها نحو مركب حربية صغيرة رأيت عليها حروفاً باليونانية والعلم الأحمر يرفرف من بعيد، كأنما باستماتة، على صاريها، ورأيت صفاً من العساكر بخوذاتهم وأقنعتهم الزجاجية التى لا ينفذ منها الرصاص، مدججين، يسدون الشوارع الضيقة التى ذرعها الأنبياء والشعراء والحالمون، فى القدس ورام الله والناصرة وبيت لحم والخليل، يقذفون الأطفال بالرشاشات السريعة الطلقات والقنابل المسيلة للدموع، يحيطون بالنصب الدائرى الجرانيتى الذى يلمع بالليل فى قلب ميدان التحرير ويضربون الأولاد والبنات بالهراوات، ويسوقون الأسرى الى عربات السكك الحديدية المغلقة الخانقة والى الخنادق المرحلة المثلجة فى وارسو وسيبريا وغرف الغاز فى داخاو، ويجرون وراء عمال الغزل والنسيج فى المحلة وكفر الدوار وكرموز وطلبة الحقوق والطب وسائر العلوم على ربوة

العباسية فى محرم بك. دباباتهم الصفراء الصغيرة عارفة بنواياها، ويضربون بالرصاص من البنادق الطويلة القديمة الطراز، فيسقط المئات فى الساحة الفسيحة أمام قصر الشتاء، وتصفر سياراتهم السوداء المسدودة أمام السوربون، ويجرون بمقاودهم الجلدية الكلاب المدربة الشراسة فتنهش سيقان السود فى جوهانسبرج أو المسيسيبى على السواء. وسوف أعرف بعدها بسنوات، أن الانجليز قتلوا مئات من البحارة الثائرين الذين انضموا الى جيش التحرير فى اليونان، وأسروا الباقين، حتى انكسرت الثورة بعد الحرب.

ومازلت أذرع شوارع غيط العنب، كما كنت أعرفها وأنا فى مدرسة النيل الابتدائية، واسعة، نظيفة، مستقيمة، أرضها من الحجر المدكوك الملتصق به تراب رملى جاف، والشجر على الأرصفة أمام البيوت المنخفضة، وفيها رائحة الملاحة الرطبة تأتى من وراء سور السكة الحديد.

شارع الترامواى وحده كان مكسواً بالأسفلت الأسود الصقيل تشقه قضبان الترام اللامعة الجديدة، وكنا نسير، أنا وأمى، أمام مطعم الفول الذى كنا نسميه التركى، وكان فسيحاً ومبلطاً ببلاط أبيض وأسود، وبابه مفتوح المصراعين الزجاجيين اللذين يُبرقان، عريضاً جداً، ووراءه مباشرة بجانب المنصة الرخامية الطويلة، قدرة الفول النحاسية الهائلة، وكان يعلقُ صورة الملك فؤاد جامد الوجه ببدلة التشريفة والشارب والنياشين، وبجانبها صورة الملكة نازلى وعلى شعرها المرفوع فى شكل

هالة صلبة مرتفعة تاج نصفى صغير، وعلى الجدران الأخرى صور تلمع من تحت إطاراتها الزجاجية، فيها سبع يرفع سيفاً، وأبونا آدم وأمنا حواء، مطرودين من الجنة، عاريين إلا من ورقة التوت، والحية ملفوفة بنظام هندسى حول الشجرة، والخليل ابراهيم يرفع سكيناً ليذبح ابنه اسحاق بينما الخروف واقف والملاك نازل من السماء، وألوانها زرقاء وخضراء يانعة وخطوطها رفيعة مسطحة.

فى أول السنة كنت لابداً فى السرير متدثراً بلحاف وبطانيتين، وكنت قد استقللت بغرفتى فى شقة شارع ابن زهر. وكأن البيجاما الكستور الثقيلة التى أرتديها تحت الأغطية غير موجودة، وكان الفحم شحيحاً فكان وابور الجاز يئز فى الغرفة وعليه كسرولة ماء يصعد منها البخار والدفء والباب موارب قليلاً جداً خشية الاختناق، وأنا أقرأ، وأنا تحت اللحاف، «دليل المرأة الذكية الى الاشتراكية» بشغف كأنه رواية بوليسية، وسمعت صفارات البواخر التى تصل إلىّ من الميناء الغربية حتى راغب باشا عبر سكون المدينة فى الليل، تتجاوب ويرد بعضها على بعض. كان جيراننا الأروام والطليان والأرمن والقلائل من أهل البلد يقذفون، مرة واحدة، بالزجاجات الفارغة والقلل الفخار والأطباق الصينى المشروخة والأصص القديمة، على الأسفلت، فى تتابع بهيج، حتى يصبح الصبح فنجد الشارع الواسع مغطى بحطام العام القديم. وكانت نوة عيد الميلاد قد هبت منذ ٣ أيام فى ٢٣ كيهك، والهواء يعصف والأمطار

بالية كأنها ملاءات من المياه تفرقع وتصطفق بالشبابيك الموصدة ثم ترتخى وتعود ترتطم بالبيوت من جديد. ومنذ أيام قلائل، قبل الكريسماس بيومين، كنت قد نزلت فى أول الليل الى الشاطئ الذى يقع عند الشاطبى وتصطدم الأمواج عنده، الى اليسار، بأحجار سور السلسلة السوداء، وتعود فى صخب مزبد مُدوّمٍ داكن الزرقة، كانت النوارس تزعق فجأة، تنقض وتعلو.

وقلت: أرثوك، بلا رحمة ولا دموع، على ماباد من طل، واندثر؟ فماذا يُجدى؟ ريم يُقام؟

وقلت: وهل من معولٍ - بالعكس - إلا على الرسوم الدوارس؟

العطف والحزن الربّانى الشفيق الذى يملأ علىّ شوارع طفولتى وهراجسها وآمالها فى غيط العنب، أين هى الآن منى؟ وهل أستطيع أبداً أن أبتعث من جديد هذه الجنّات الواعدة البعيدة مفتوحة الأبواب عن كرماتها وموصدة في وجهى الى أبد الآبدين، وهذه الأشجار المثقلة برمان اللبن والعسل والمرّ، والخمر الصهباء التى يشعشعها لى أبى بماء حنوه ومحبته ويسقينى، وأنا طفل غرير؟ فوانيس الغاز المضلعة الزجاج متقدة أشعلها لنا عفريت الليل بعصاه الطويلة التي يطقطق شررها، ثم مضى فى مملكة ليله التى لا نعرف لها حدوداً. من أين جاء؟ والى أين يمضى ويترك لنا حبات النور، فاكهته المهتزة الغضة على شوارعنا الناعمة الغامضة التراب، اين هى؟ والبيت الخفيض جنب بيتنا، من دورين فقط،

مقفل دائماً وغريب ولكننا نعرف أنه معمور. نحس الحركة الحيية فيه ولا نرى سكانه أبداً، نوافذه لا تنفتح ولا يبوح بأسراره قط. دائماً مكنون على بحيراته الشاسعة الخفية الساكنة الماء، وعلى أهل مملكته البنات الطيور اللاتى يأتين مرة واحدة كل عام، ويخلعن ريشهن، فاذا هن الحور الخرد لا مثيل لجمالهن فى الأرضين. أين ذهبت البنات؟

قوة حضور الذِكر تنتقض القلب.

دخلت، وحدى، فى الممرات الصحراوية الواسعة بين العشش والكباين والبيوت الحجرية القليلة المبنية من دور واحد، من وراء أسوارها المعمولة من البوص والمربوطة بألياف باهتة غليظة، مغروسة فى الرمل. وكنت أمسها بيدى وأنا أجرى فى الرمل بصعوبة، فيتمايل السياج، خفيفاً، وكانت فيه فتحات طولية رفيعة بين قوائم البوص المحترق من الشمس. وكانت الشوارع ترتفع بى وتنخفض، كلها رملية، نظيفة. والهواء يرتفع بهبوات صغيرة من الرمل الدقيق، لها حفيف فى أعواد البوص الهش.

وكانت النقوش المخرومة بأشكال هندسية وزخرفية فى خشب الكباين المغلقة، والشرفات المائلة الخالية التى تقشر طلاؤها، تواجه نور الظهر بعتمة حميمة خاصة من الداخل.

وبين الكباين فجوات عرضية غير منتظمة، ضيقة وصغيرة وظليلة دائماً، وعلى الرمل أوراق صحف رقيقة يابسة غطتها الرمال. وتغوص فى الرمل أغطية زجاجات الكازوزة وعلب الصفيح الصدئة ونفايات جافة

حادة، وترتفع منه، بين حيطان الكباين، أشجار نخيل مائلة وخشبها صلب ومضلع، والهواء دائماً له وشيش في رؤوسها المترنحة بالخوص الرشيق المهتز.

في الفجوة الرطبة الظليلة بين رمل الشارع وأرض الكابينه، أقلب في الرمل بيدى وأحس نداوته تحت السطح المحبب، وأفكر في الجسم الضيق المسحوب الذى أخذته المياه بعيداً عنى، وأنا على سيف البحر، في وسط خليج صغير، مملوء بمياه شفافة بللورية النقاء، تترقرق فيها خطوط متموجة كأنها مرسومة بقلم متحرك رقيق، تذهب وتجئ بنعومة بين الصخور الصغيرة اللامعة التى تنحسر عنها المياه فتجف بسرعة ثم تعود فتبتل.

سرعان ما تحول المايوه الأزرق الباهت الى نقطة بعيدة في البحر الواسع. وكانت أمى قد سبقتها الى ما بعد البراميل، فلم أكد أراها بين ما تثيره الأمواج من زبد قليل.

كنت أقف في وشل الماء الصافى القليل الغور، وأنظر الى الجسر الخشبى الممتد الى داخل البحر على أعمدة مستديرة قصيرة من الأسمنت اللزج تنتفض عليه طحالب خضراء شفافة، تلعب في الماء، وتهتز، مخلوقات حية، ثم تخرج من سطح الماء مبللة ممتزجة الألياف، ثم تجف فجأة وتصغر وتصبح يابسة كالورق القديم، بلا حراك.

ولم يكن هناك الآن، في الظهر، من يقف على الجسر بأعواد البوص

وجرادل الجمبرى والدود الصغير. كان الجسر يمتد بخشبه الجاف بعيداً الى داخل البحر لا ينتهى الى غاية.

وكانت الوحشة على الشاطئ كاملة، لم يكن هناك أحد من المستحمين فى هذا الظهر الهادئ، وكانت الشمسيات المتناثرة المتباعدة قديمة الألوان، تلقى بظلها على المقاعد القماشية المفتوحة الخالية، وحتى حارس البحر، بصفارته النحيلة الصوت لم يكن موجوداً.

كنت وحدى لا أعرف كيف أدخل البحر الواسع العميق المخيف السحر، ولا أعرف كيف أرجع عنه.

وكنت أذهب، فى مضض هذا الحب الذى لم أكن أعرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهى، إلى كازينو كليوباترا ، وأقضى ساعات بعد الظهر المبكر أنظر الى البحر، وأحلم أحلاماً مضطربة ، أحاول أن أقرأ رواية، أو أنتظر صديقاً قبل ميعاده بكثير، أو أقرر ، خلال ساعات، هل أذهب إلى سينما ، أى سينما ، أم إلى قهوة الفريسكادور أو باستروديس فى شارع سعد زغلول ، أو سان جيوفانى فى ستانلى ، لمجرد أننى لا أطيق البقاء بين أربعة حيطان وحدى.

لا غفران أبداً لقسوة العالم. نهائية مطلقة. لا شئ يرجعها، أو يفسرها. ونبض دمى يضرب فى الوحشة، والصمت. ما أشد الايجاع .. الدموع لا تجفّ ولا تُرتاً ، ولا تعنى أحداً على أية حال.

كان الجدار الخارجى الجانبى للمحطة، أمام باب الدرجة الأولى، يرتفع حتى الشارع العلوى تتخطر عليه عربات الحنطور التى تبدو صغيرة، وأجراسها دقيقة مصلصلة الصوت، فوانيسها النحاسية الأمامية بزجاجها المصقول المكعب السطوح كأنه معمول من ماس كثيف ونقى، تحبس شعلات صغيرة صفراء محمرة تتقد فى النهار. وقع حوافر الحصان على بازلت الطريق له موسيقى رشيقة. وكنت أنظر الى إعلانات، «شركة الأدرياتيك وتريستا للسفريات والملاحة» والباخرة تمخر مياه الحلم المتمرجة بزرقة فاتحة الصبغة، دون أن تتحرك، مستقيمة الخطوط وهفهافة الريح فى وقت معاً، ثابتة فى سرعتها الساكنة التي لا زمن فيها، ونوافذها، في البطن المسطح بصفحته المستوية، فتحات كاملة الإستدارة ومسدودة بلون الزجاج المعتم الشفافية.

كنت أرقب الدبور الذى صنعته من ورق كراسات المدرسة، مدبباً أبيض حاد المقدمة، أشد طيرانه بالخيط الطائر فى السماء، بحزم ورفق فوق رؤوس النخل، وأنا على سطح بيتنا فى غيط العنب. وقلت لنفسى بفرح أننى عندما أكبر جداً، وأصبح فى العشرين سوف أسافر فى بعثة، كما سافر رفاعة الطهطاوى، الى مارسيليا، وأركب البحر على باخرة شركة الأدرياتيك وتريستا، وأعرف فنون الحرية فى باريس كما لم يعرفها أحد فى مصر قط. وكنت أعرف اننى لم أركب هذا البحر، ولم أمخر عباب هذه الحرية، وأن القلب الطفلى مازال يطفو فوق أحلامه القديمة، وإن كان

الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة.

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة، لأقدامي عليها رنين معدني، كسلالم الحريق. سياجه الدائري يهبط معي الى دور سفلي في المحطة معقدة المسالك، خاوياً أيضاً، متكرر الأرصفة، أيضاً، بلا نهاية. والسماء نفسها نوقي، وفوق الأرصفة العلوية الأخرى، منفصلة ما تزال، لا يهب فيها النسيم.

وأجد أمامي المصعد الكبير الذي ينزلق على بابه الحديدي المصمت، بهدوء وثقة، في مجراه المحفور، ويصطك بالجدار المعدني بصوت ثقيل، نهائي. وفي الهبوط البطئ أحس في قلبي الروع الذي يريد أن ينفجر. هذا الباب لن ينفتح عليّ قط. لن يسمع أحد صوتي عندما أنادي النجدة. لن ينجدني العالم.

وتمتلئ المحطة والممر العريض، حتى الساحة الخارجية، بالجنود، والزهور، في صفوف وثيقة ومتلاصقة لا ينفذ منها شئ. ولا يقف عمال الأبواب على رؤوس الأرصفة عند الحاجز الحديدي المنخفض، لا يثقبون التذاكر بمقراضهم الحديدي الشرير الشكل ولا يقتضونها منك عند الخروج، فلا يمكن أن تدخل أو أن تخرج الآن. مرة واحدة لمحته من بعيد، الملك، من بين ظهور الجنود والناس الواقفين بجلاليبهم وطرابيشهم وعمائمهم وشيلانهم وربطات العنق الرفيعة الضيقة الخناق، ورأيت اهتزاز ذيل السموكنج الطويل الذي يلبسه على جسمه الثقيل، غريباً على

ساقيه المتلئتين، وجانباً من وجهه المحتقن المزدحم بالدم، وشاربه القائم بذؤابتين رفيعتين مشدودتين بالكوزماتيك المشمع. كان أبى يقبض على يدى، بقوة، ونحن نخرج فى الزحام وأشم الرائحة الحريفة من معطفه وسجائره ورجولته، وهو يمسك بعصاه الرفيعة السوداء الحديدية الكعب ذات المقبض الأبيض المحفور بزخرفة، عرفت عندما ما كبرت أنها اسمه «قلته فلتس» من العاج المخروم. كان فى ميدان المحطة قرة قول من تلاميذ المدرسة الحربية بالشريط الأحمر الذى يشق البنطلون الداكن الضيق المستقيم حتى تحت الحذاء الأستيك اللميع، وبلوك من الجيش البريطانى وموسيقى القرب الأسكتلندية بأصواتها الثاقبة المملة، والجونلات ذات الطيات المتعددة وقطرات العرق تتفصد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسحونها. والموسيقى النحاسية تضرب بقرقعات بهيجة وإيقاع واحد لا يتغير. وجندى قصير يحمل طبلا ضخماً على بطنه الكبير يدق عليه بانتظام دون توقف، كأنه وحده فى العالم.

جنود بلوك النظام ينزلون جرياً من عربات الجيش المربعة العمودية الجوانب، على سلالم قصيرة مثبتة فى مؤخرة السيارات، ويطاردوننا، بقمصانهم الطويلة المهدلة، وسراويلهم تنزل الى ما فوق الركبة بقليل، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف الأشين الكاكى الرمادية التى ترتفع الى ما تحت الركبة بقليل. ونحن نجرى فى ميدان المحطة الفسيح بين عربات الترام الصفراء اللون التى توقفت، واحدة بعد الأخرى، على

خطوطها، والناس ينظرون منها بفضول. وكان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد انضموا الينا. وكنت أهتف ولا أسمع صوتى: تحيا فلسطين. يسقط وعد بلفور. الاستقلال التام .. حملت العلم يا عبد الحَكَم ... الشمس حارة فى دمائنا ونحن نجرى. والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا، والعصىّ القصيرة فى أيديهم. وكانت الشتائم موجعة جداً. والغضب يلغى العالم.

«كان أبوه أيامها قد ترك عمله عند الشيخ المراغى تاجر البيض والبصل والمسلى فى شارع أنسطاسى بسبب قضية ما ظلت غامضة عليه حتى الآن، وكان بالكاد يعمل حسابات التجار الآخرين باليومية، أو بالمقاولة، يشتغل يوماً أو يومين، أو أسبوعاً أو أسبوعين ثم لا يجد شغلاً بالأسابيع. ولكنه، ينزل كل يوم على الصبح، فى ميعاده، بعد أن يشرب قهوته التى يصنعها بنفسه على السبرتاية، رلا يعود إلا على المساء، جفّ وجهه ونحل وغارت عيناه الثاقبتان المليئتان بالذكاء واليقظة، ولم يعد يشرب خمسينيّة الكونياك على العشاء إلا فى النادر، ولكنه ظل أنيق الملبس، أمى تنظف له البالطو بالفرشة صباح كل يوم، والجلابية المفتوحة الحرير السكروتة مكوية دائماً، تهفهف، شقها مطوى على الشق الآخر بحزام مضفور دقيق، والطربوش حاد الدوران، جاف الحافة من غير أثر للعرق ليس عليه ذرة غبار.

«وقرأ فى اللطائف المصورة أن حضرة صاحب السعادة مراد سيد أحمد

باشا عيّن وزيراً مفوضا لمصر بألمانيا، بعد أن كان شغل هذا المنصب فى بلجيكا خلفاً لسعادة سيزوستريس سيداروس باشا، وترك أثراً جليلاً فى التمثيل الخارجى، وتأمل قليلاً فى صورته، بالطربوش القصير والنظارة المدورة اللامعة، والشارب المشذب، والياقة الصباغ، والمعطف الاسموكنج، ممتلئاً باعتداد وكبرياء».

كنا فى ليلةٍ فى أول الصيف، العالم قد خلا فجأة، أصبح مجوّفا. صفارات الإنذار تعُول عويلاً موحشاً، وسمعت الكلاب تنبح، بصوت مرتفع، فى السكون، والظلام الذى سقط.

فى تلك الليلة، عندما نزل الطوربيد من الطيارة الطليانية، على مقام سيدى أبى الدردار، لم يصل إلى الأرض أبداً.

قال شهود العيان إنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلّب، حانته المدببة مصوبة إلى الأرض، ويومض تحت القمر بلمعةٍ شريرة، أنشقّت قبة المقام الخضراء، وسط تعريشة العنب المورقة المسوّرة بسورٍ رقيق من الحديد، ثم التأمت على الفور، وصعد منها الحضور الأكرم لولىّ الله. وكان من الصالحين، يفدى عُزوته وكل أبناء مدينته البيضاء المحروسة، والبرنُس المغربى السمنّى الهفهاف ينفتح كالجناحين فى الهواء، ووجهه كالبدر الطالع يكسف بدر السماء، سناه يعُشى الأبصار، فاحت رائحة المسك والعنبر المدفون فى المقام المصون، وإنه بسط ذراعيه فإذا هما عريضتان، نورانيتّان، وتلقّى فى حضنه الطوربيد الهائل المندفع

كالصاعقة، فإذا هو برد وسلام، وطار به كلمح البصر أو أسرع، فوصل به في الحال إلى أكمة الشلالات العالية الخضراء الخالية من الناس، ووسدّه الأرض على جَنْبه، وقد نزع شِرته وأذاه، فرقدَ بين الشجر الملتف الأغصان حديداً بارداً ميتاً بلا حول ولا قوة. وجده الناس في أول الصباح فتوافدوا عليه ألوفاً مؤلفة، وفككوه دون ضرر ودون عناء، وكلّ واحدٍ أخذ منه قطعة حديد خُردة للبركة والعبرة، وعندما وصل رجال الجيش المرابط وضربوا نطاقاً حول المكان، لم يكن قد بقى من الطوربيد المهول إلا قطع صغيرة هشة من الصفيح، وكومة باردة منفتتة من البارود تشبه الفلفل الأحمر المطحون.

زرقة الحلم الداكنةُ هى لون العالم.

كل الآفاق التى طاف بها الحلم ولم تكن قطّ مواقع للأقدام. الشطوط الفسيحة الرمال على مياه ساجية عذبة، لا نهلت منها ولا رددت نفسى عنها، والبحار التى لم تطف عليها أشرعتى حتى لو هبت بها رياح أشواقى، والشوارع المبلّطة بالحصى المدّور فى القرى السحرية المسكنة بين المروج الخضر تحت شعاب الجبال وعلى سفوح المراعى، تجرى فيها قنوات وجداول شفافة ثلجية الماء، والأعمدة الضخام مكسورة الأضلاع أحجارها الهائلة يترعرع على خشونتها عشب الربيع النضر لا يعيش الا قلائل الأيام، أنتاض لا تندثر وتوة الزمن لا تكسرها، فاضت نفسى، ولم تُشْفَ، بحبٍ لا أدرى ماذا أفعل به، ولا ماذا تفعلين.

كان المطر يسقط بلا انقطاع على خشب الشباك الذى يشبه المشربيات، له وقع متصل رتيب، طوال الأيام الستة الماضية.

الشوارع الراقية فى الرمل وحول ملعب الملك وفى الحى اليونانى، كانت نظيفة تلمع، ولخرير الماء المتدفق صوت بهيج، أما الحوارى التى أخوض فيها الى الربع القديم فى بحرى ثم الى بيتنا فى راغب باشا فقد كانت بركاً موحلة، وما زال الطين فيها ملبداً وشكله شرير.

«فى الليل، فى ضوء المصباح الكهربى القوى، كان وحده، على الكنبة الأسطمبولى، وحده، يقرأ رواية السهم الأسود على مائدته الرخامية البضاوية المفروشة بكتبه وقواميسه، وإلى جانبه دولاب الملابس العالى، خشبه البنى لامع ومصقول، وعلى كلٍّ من ضلفتيه مرآة بلجيكى سميكة بلورية النقاء، ساقين بيضاوين يرمضان باللحم الناعم ينضمان على المثلث المقبب المسرد، والنسيج الأسود الساتان يلتصق بالاستدارة الصغيرة وينتهى تحت تكوّر الردفين بنمنمة الدانتيللا، يتراوح سوادها المشغول بين خرومها الدقيقة مع بياض الجسد المتنزى المتقلب الذى يحتضن انبثاق الصلابة الجياشة بالدم والمتعة المحبوسة حتى تنبجس، من جديد، سورة مياه الطوفان، ويتقوض الجسم».

فى حارة الجلنار فى راغب باشا، كان البرد فى بيتنا لاذعاً للعظم، ولكنه لم يكن أبداً جافاً ولا قاسياً، بل مبلولاً بشكلٍ ما، ورطب الهواء.

وكنت أنزل أشترى الفحم من عم عبده البقال، ونضع قطع الفحم الهشة، تلمع بقطرات الجاز القليلة المصبوبة عليها، على التراب فى الموقدة الفخار، وعلى أصابعنا آثار سواده الناعم، يدخنّ الفحم قليلاً برائحة نفاذة، ثم تتطاير ألسنة النار الصغيرة ونحن ننفخ عليها، حتى تتقد حبات الفحم وتسطع، ويتحول جسمها الهشّ إلى جمرات متوهجة الحمرة فيها خطوط رقيقة أكثر اتقاداً وحمرتها أكثر التماعاً، وتتكون عليها طبقة من رماد أبيض كالدقيق، وتظل محتفظة مع ذلك بشكلها، وتكسّر حناياها الحادة وطبقاتها المتراوحة الحمرة، ولا تنهار إلا اذا حرّكنا الموقدة، وجدّدنا الفحم، ووضعنا عليه حبات «أبو فروة» بقشرها البنّى الجاف المتجعد، نتخاطفها سخنة ومحمرة البطن ولها عبق خفيف فيه نفحة من حلاوة السكر وطزاجة الفطير في الفرن.

وكان أبى يجلس على الشلتة، على الأرض، وأمامه الطبليّة المنخفضة، وعليها الحسينيّة الشفافة وشقائق البيض المسلوق المقشّر وقد عُصر عليه الليمون، وورك الفرخة المحمّر، وشرائح الجبنْة التركى الصفراء يابسة ومشققة وندية فى الوقت نفسه بزيتها الناضح من لحمها.

ركبت ترام السبع بنات، ونزلت فى محطة كركون اللبان، وخرمت على القراهدة مباشرة. لماذا افتقدت أبى، فجأة، وأنا أسير فى الشارع، بأنواره الزرقاء، وباراته، وبيوته الغامضة؟.

انطلقت قريباً جداً منّى عربة حنطور مثقلة بالعساكر الأستراليين، مكّومين فيها ومتدلّين من جانبيها ومعلّقين بمؤخرتها، بقبعاتهم المدّورة العريضة وجثثهم الضخمة الشاهقة، عملاق منهم أخذ مكان العربجى الذى أنحشر جنبه فارغ اليدين مسُلماً أمره للهّ، والعملاق أخذ يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان، فراح يعدو كأنه قد جمح بالعربة المائلة إلى جانبها بخطورة، والأسترالّ يصفرّون صفيراً ثاقباً يائساً ويصرخون باستماتة: هَا .. شى .. شى، بأعلى أصواتهم، فى صمت الشارع الخالى.

وجدتُ حارة القاضى الفاضل مباشرةً بعد أنقاض البيت الذى سقط عليه طوربيد طليانى، السنة التى فاتت، وتكومت أحجار القديمة وترابه رخشبه، ونبَتت فيها عناقيدُ ملْتفّة من النباتات والحشائش شكلها بالليل مهّدد، وكانت رائحة البحر دائمة.

عندما دخلتُ الحارة الطويلة أحسست بأمان أكثر. كانت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة ومظلمة كأنها لا تغلق أبداً، ورأيت جماعات صغيرة من العساكر الأفريكان السود الضخام، والانجليز الشقُر النحيلى القامات، وعدداً قليلاً من أهل البلد بالجلاليب والبلاطى الخفيفة أو البنطلونات، معظمهم كبار فى السن جداً، يخرجون ويدخلون البيوت بصمتٍ وسرّية. ومررتُ، وأنا أحاول أن أقرأ أرقام البيوت، على بار واحد ضيّق الباب وعليه كلمة واحدة بالأنجليزية «بار» تومض وتنطفئ لمبة كروية حمراء فوقها، وعلى قمة الحارة التالية عربة

الكبْدَة والطحال، عليها صينيّة مدورةٌ فوق وابور جاز يفحّ بصوتٍ واضح أبحّ في سكوت الليل، ونشيش مرقة الكبدة ورائحتها المقلية تفغمنى وتفتح نفسى للأكل.

تأتينى حتى الآن رائحة الملح والسمك الطازج ريود البحر تفغمنى.

نزلتْ جماعة صاخبة من العساكر الأستراليين، بقبعاتهم العريضة الواسعة، من عربة حنطور وقفت أمام الكازينو، وهم يصفرّون للبنات والنسوان بملاءاتهن المحبوكة على الأرداف، ويهتفون دون جدية ودون اهتمام تقريباً: كام أون بنت ... فانتازيّة .. كم أونّ. وقلت لنفسى، لماذا قلت لها، أن تأتى هنا ؟

تزلزلَ قلبى وأنا أراها، مرة واحدة، تقف أمام صيادٍ فارع وشاب، محروق الوجه ووسيم وأزرق العينين، وهو ينحنى على طشت كبير وعميق ملئ بماء البحر، تخبط فى جدرانه النحاسية المستديرة ترِسَة ضخمة، محبوسة وحيّة وبطيئة الحركة. ولما وقفت الى جوارها، لم تلتفت إلىّ، لم تحيِّنى. قلت نفسى: خائفة على نفسها أن يراها معى أحد. قلت لنفسى: أنكرتنى للمرة الثالثة. وكانت تساوم الصياد الشاب بصوتها الأغن قليلاً، تنظر اليه بعينيها المرفوعتين المغويتين. قلت لنفسى: كل الأسلحة مباحة. والأنوثة - وحدها - سلاح هى تعرفه. وكانت تلعب بعقدها الكبير الحبات حول عنقها، أصابعها الطويلة تتحسس الجزء العلوى من جيدها البّين.

- لا يا خويا عشرة صاغ كتير أوى والنبى. دى بشلن ونبقى كارمينك، وعشان خاطرك أنت بس. طب وحياة النبى، ومن نبّى النبى نبى، داحنا عايزين نكرموك، دانى حنيجى على نفسى بسّ عشان ذوقك، ومجدعتك. ياالله بقى، بيع، ربنا يعوض عليك.

فقال لها الولد الاسكندرانى الحليوة: ماشى كلام الحلوين، بس قولى لى على العلوان يا ست الكل وأحنا نوصّل لك لحدّة الباب عندكو، والناس لبعضها برضك .. وكله قسمة ونصيب.

فلم تقل له إن الترسة ليست لها، هى، وظننت أنا أنها تركت له ساحة الغواية مفتوحة، كعادتها.

رمقتنى بسرعة، بجانب عينها، نظرةً أحسستها تغرقنى بانهمارٍ مضطرب سخن وغير صاف، نظرة تغريبٍ تنفينى وتلغينى. وعرفت عندئذ أنها سوف تحيلنى الى شفرة.

وجاء من محرم بك، مشياً، إلى محطة الرمل، ترك وراءه أحزان صباح ثقيل السحاب فى سماء الأسكندرية الفضية، المنثلة على نفسها فوق البحر، وعَبْر السلسلة، ووقف عند الشاطبى. ترك الكورنيش، ونزل على سلالم متعرجة منحوتة فى الصخر المتآكل الزلق تحت قدميه، وكانت السلالم تغوص فى مياه بحرية هادئة، ويهتز موجها فى دوائر تتسع حتى تصل إلى حافة جدران الصخر فتصطدم به بخفة، رغوتها متقلبة الزبد. وتحت قدميه العاريتين، بالضبط عند التقاء الماء بالصخر، طحلب

مخضر كث الوبرة، مُخْضلٌ بالبلولة اللزجة، اذا انحسرت عنه موجة الماء الشفافة، الهفهافة القرام. جف الطحلب بسرعة، وأصفر لونه قليلاً ونشف الماء تماماً، يبيضَ جسد الطحلب شيئاً فشيئاً، فاذا هو غض رناعم وأملس يلتف بلدونة ملتصقاً بحانة الصخر الدائرية، حتى يرتفع الماء فجأة، ويلطمه برفق، فيبتل من جديد، ويعود أخضر غَضراً كثيف اللحم.

النور يأتى من فتحة علوية واسعة منقورة فى السقف الحجرى منعطرية الحواف، فيغمر هذا الاتساع الداخلى المحصور بين صخور مشققة عليها طبقات بارزة قليلاً متلوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشة ومتماسكة بالكاد. وينفتح، إلى جانبه، فى الجدار المحبب، نفق متحدر نصفه العلوى القريب منه جاف، مدور، أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كبيرة، ثم يهوى النفق إلى الماء وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيز الفراغ فوق المرج حتى يغرص النفق تماما فى الماء الذى يملؤه، بلونه الأزرق الداكن، حتى العمق المدفون الذاهب الى تحت فى ظلمة القاع.

ولما عدنا بالترام فى أول الليل، كان الميدان الصغير فى آخر شارع راغب باشا خالياً، ودكان الدخاخنى، بمنصته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجة فى الشارع، مغلقاً، ولكن السينما، التى كانت فى عنبر صفيح عريض مثلث السقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة، كانت منيرةً بعقد طويل من المصابيح الكهربائية مدلى على الباب، يضئ إعلاناً ملوناً فيه

حصان أحمر يجرى وعليه راعى بقر قبعته عريضة مستديرة زرقاء، باهتة على وجهه الناصع الزرقة، ويرفع سوطاً طويلاً فى الهواء، وكنت أتامل الإعلانات الملونة المصورة على هذه السينما فى طريقى للمدرسة كل صباح، وأقرأ عناوين الأفلام وأسماء الأبطال، وأتخيل أحداث الروايات، طويلاً، وما يدور فيها، وأحلم كثيراً بأن أدخل هذه السينما.

ولم أدخلها أبداً.

وكان أمام بيت عبده، فى محرم بك، ڤيللا قديمة من الحجر، مربعة، مسطحة الجدران، وراءها حديقة لا يرى منها، خلف البناء المتين، إلا أعالى النخل وشجر المنجة والتوت الداكنة، ولم يكن يعرف عن أصحاب هذا البيت إلا أنهم أغنياء، مترفعون، لا يختلطون بالجيران بل لا يكلمونهم، وأنهم أم عجوز لم يرها أحد قط، وولد فى مثل سنه كان يخرج إلى البلكونة، فى مقابل بلكونة بيتهم، كثيراً، وكان يذهب لمدرسة فى سيارة فورد سوداء عالية ومربعة، وأخته الأكبر منه بعدة سنوات، جميلة جداً. ولم يعرف أسماءهم ولا جرؤ أن يسأل، وكان عرف أنهم من أصل تركى.

كان يقف فى البلكونة المطلة على الڤيللا، أعلى منها قليلاً، ساعات لا يفعل شيئاً، ينتظر فقط أن تخرج إلى الشرفة المقابلة.

وكانت لا تخرج إلا لحظة واحدة، ثم تدخل على الفور.

كانت بيضاوية الوجة، ناصعة، شعرها الفاتح ينسدل على كتفيها

وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقة، ودائماً تخرج فى روب دى شامبر حريرى، أزرق سماوى عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير، ملفوف على جسمها اللدن، سابغ يؤكد انسياب ساقيها الطويلين، وكان لحذائها الصغير ذى الكعب العالى قليلاً وقع على بلاط شرفتها، يسمعه فى الشارع الساكت.

يحبها جداً، ويحلم بها أحلاماً مبهمة غير متحددة، ولم يفكر قط أن يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة من أى نوع، فقط ينتظرها، وينظر إليها، وترفع إليه عينيها أحياناً. ويحبها جداً».

الحلم لم ينطق .. اسودت شفتاه.

وكانت بئر عينيها عميقة تومض بلمعة سوادها، وكان الصراع بين جسدينا لا ينتهى، ومعركة الحنان بيننا لا شفاء لها. جسمها كالعجين الأبيض المتماسك، والسواد الشفاف يبرق نسيجه المهفهف كالموج، بالليل، على رمالها الدَمِثة، وهى تنفتح عن ربوة ڤينوس المتحدرة، شقها الطرى ملتئم بنعومة رشوق، وشفتاى منطبقتان على ثمرة البلح الصغيرة الداكنة، أستطعم سُلافتها المسكرة، وأنين المتعة كأنين الموت، لم أجد فى الجسم الاجابة التى أنشدها ولوعتى إليها لاعجة، أبداً. الطائر الأبيض الرؤوم يطبق علىَّ بجناحيه الأسودين الوثيرين، يرفرفان، حنانه قاتل ولاغنى لى عنه، واختناقى في الريش اللين كأننى أريده وآوى اليه. الغراب الحدأة الانثى الخصيبة المعطاء بذلت لى جسم عمرها، وعرفت فى

صدرها الطيّب قوة الحب والمقدرة على البقاء. فأين مهب الهواء الفسيح في الأفق الواسع المفتوح؟ وأين عصف الرعد بموسيقى الحرية والفرح، ومياه المطر الهامرة، مدراراً مُبرئة؟ عدت إلى حضن طائرى بعد أن أحرقنى عقيق برق العشق، بعد أن اشتعلت فى نار العليقة القائمة أبداً لا يبقى منها إلا جذع أسود الجمال، متفحم وصلب ومستضى، لا يسقط ولا ينكسر.

كتب چورچ خطاباً هو عقد من الأشواك.

الاسكندرية فى ١٩/ ٧/ ١٩٤١

أخى وصديقى العزيز

لا أدرى ماذا أكتب ولا كيف أبتدئ، أنما يكفى أن أقول لك أن خطابك العزيز تبلته آلاف المرات وسألته آلاف الأسئلة، وقد كاد اللعين أن يضل طريقه الىَّ ولكن الله سلّم.

وأخيراً دعنا من المقدمات ولندخل فى الصميم، ولأقص عليك قصتى كما قصصت علىَّ قصة شحنك أنت وأسرتك الى بلدك أخميم، فى عربة بضاعة مكشوفة ولمدة ليلتين كاملتين وثلاثة أيام، بعد الغارة الشهيرة على الأسكندرية.

إنك تعرف رأيى فى «عُجر» وفى آراء «عُجر» حينما يشطح عن تدريس العربى الى أفكاره الفلسفية، ولكن حدث ما قد خيب ظنى. لقد كان عُجر دائماً ينفخ كرشه العظيم ومن أعمق أعاميقه يقول: «جورج ده

ولد مستهتر»، لم أكن أعنى بالتعليق على هذه الجملة ... ولكن حدث أخيراً ما جعلنى أؤمن بأنه كان على حق. فقد بلغ من استهتارى أننى استهترت بالحياة، هذا هو الفصل الأول من تلك القصة.

فى اليوم الذى انتهى فيه الامتحان اللعين ذهبت الى مصطفى باشا، وهناك كان كشف الهيئة فوجدوها لا بأس بها. وبعد أيام تلقيت خطابين أحدهما من الأميرالية تطلب الىّ التوجه الى مطار الدخيلة والآخر من سمير يتمنى لنا النجاح ويسأل عن أرقام جلوسنا. وضعت أحد الخطابين فى جيب، والآخر فى جيب آخر.

وفى اليوم التالى توجهت الى مطار الدخيلة، حيث أوصلتنى سيارة الى الباب الخارجى وقال لى السائق هنا مطار الدخيلة، سرحت الطرف فرأيت عدة معسكرات تمتد على جانبى طريق صحراوى، والمدافع منصوبة من كل الأشكال والألوان، منها الرفيع ومنها السميك، ومنها الطويل ومنها القصير. كما رأيت الطائرات جاثمة من كل الأشكال والألوان، منها الرفيع ومنها السميك، ومنها الطويل ومنها القصير. كما رأيت الطائرات تصعد وتهبط مما يسمونه «المطار» وكم كان منظر ظل الطائرة على الأرض مهيباً، لم أشعر بشئ سوى لسع حرارة الشمس. وقد وسوس لى الشيطان أو وسوست لى نفسى الخبيثة أن أتجول قليلاً فى تلك المنطقة. تخلفت المطار ورائى وتقدمت فى الطريق أتفرج، فطالعنى

من الجنود أصناف وأشكال. بعد مدة وصلت الى باب أحد المعسكرات فتقدمت منه. وعندئذ رأيت قزما يقفز من أحد شقوق الباب هاتفاً «باس بورت».

كانت مفاجأة ولم يكن لدّى «باس بورت» فأبرزت للحارس الخطاب وأخبرته بأنى أريد أن أصل الى المطار الانجليزى. ولكن الحارس لم يكن انجليزياً بل كان بولندياً، فلم يفهم الا كلمة انجليزى ولم يستطع قراءة الخطاب، فأعطاه لى وأشار لى بيده وأخذ يتكلم بالبولندية، وفى كل جملة كان بضع كلمة «بريتش» ففهمت أن البريتش معسكر فى الاتجاه الذى يشير اليه. فدخلت.

كان أول ما صادفنى جماعة من الهنود، وقد جلسوا تحت ظل النخيل وخلعوا أقمصتهم وفردوا لباساتهم، وأخذوا ينقونها من خيراتها. مررت بهم وتابعت سيرى، فإذا بى أجد نفسى فى معسكر بولندى. تقدمت من أحد الجنود قائلاً هل تعرف الانجليزية، فهز رأسه وأشار الى زميل له وناداه، وكررت السؤال على الزميل ولكنه بدوره هز رأسه وأشار الى زميل له وناداه، وتكررت هذه المهزلة بضع مرات الى أن تقدم أحدهم وهو طويل طويل جداً ورفيع رفيع جداً فأطل علىّ برأسه من علٍ قائلاً: ماذا تريد؟ فأفهمته أنى أريد أن أصل الى المطار الانجليزى، فتشاور قليلاً مع زملائه بالبولندية ثم أشار الى حائط فاصل وقال: خلف هذا الحائط تجد المطار، ولكن غير ممكن أن تقفز منه، لذلك يجب أن تدور حوله

حتى تصل اليه. هنا شكرته وخرجت، وعند خروجي أشار لي الحارس سعيداً كأنه أدى لي خدمة جليلة.

ذهبت الى المطار، وهناك تقدمت الى حارسه وأطلعته على الخطاب فأذن لي بالدخول. سرحت النظر في المطار فإذا بالطائرات تنتشر على الأرض، تعرفت على رؤيتها كلها، وأخذت أتجول في أنحاء المطار زهاء الساعة، حتى كلت قدماي وكاد الحرّ أن يهلكني. ولكنني شاهدت العجب العجاب من طائرات مطاردة الى أخرى قاذفة للقنابل الى أخرى بحرية، كما شاهدت أعشاش المدافع، ولم أر في حراستها غير البولنديين والفرنسيين. كما لاحظت أن معسكرات البولنديين والفرنسيين من الخيام، أما معسكرات الأنجليز فمبنية بالطوب وأمام كل ثكنة حديقة صغيرة. وأخيراً تقدمت الى الكابتن، وكان أول مالاحظته عليه ذقنه الغريبة، فهي تبتدئ من تحت العينين وتنتهي قرب الذقن، ولا يلتقي الفرعان ولا يتجاوزا الذقن أبداً. وقد قابلني بكل احترام، وأفهمني أن العمل على حاملة الطائرات فورميدابل غير متيسر الآن، ولكن قد يكون من الممكن بعد مدة. وتمت جميع الاجراءات الرسمية، وهكذا أصبحت عضواً في سلاح الطيران التابع للأسطول. وقدمني الكابتن الى أحد الطيارين الذي اقتادني الى أحدى الثكنات ووقف في وسطها صائحا: أيها السادة لقد كسبنا زميلاً جديداً متطوعاً. فأقبل عليّ الجميع مرحبين مهنئين.

أننى لا أستطيع أن أصف لك مقدار غبطتى ولا مقدار سرورى بين هؤلاء الزملاء الأوفياء، ولكن الذى يحزننى هو أن أمرح مع أحدهم فى أحد الأيام ثم اذا سألت عنه بعد ذلك قيل لى لقد ذهب .. ذهب بغير رجعة .. وقد كان لى صديق كنت أعزه أكثر من الجميع وكان اسمه (إدورد) كان دائماً بشوش الوجه، دائماً ضاحكاً لا يحزنه شىء، دائماً يغنى ومن الأغانى التى كان يغرم بها ويحبها الانشودة التى تقول:

سوف ألتحق بالإسطول لأرقص فوق الأمواج، على نغمات الأمواج.

وكان يغنى فى أنشودته بصوت سحرى ونبرات فياضة تهز مشاعر القلب، وفى بعض الأحيان كان يغنى: سوف ألتحق بالطيران لأركب متن الريح، وأختفى فى أعماق السماء المجد لنا .. ولكن هذا الصديق ذهب فى إحدى المرات فى إحدى الطائرات الطاردة الامريكية الجديدة ولكنه لم يعد.

لقد مرّت بى ساعة من أحرج الساعات. فقد كنت فى أحد المرّات جالساً مع بعض الزملاء من الطيّارين فى نادى الطيران، وكانت الساعة إزاء العاشرة، فإذا بالصفارة تدوى، وجلسنا فى الظلام وأخذ أحد الزملاء وكان جديداً يقص ما صادفه وما قام به من جليل الأعمال، وإذا بنا نسمع صفير إحدى القنابل الهابطة فكان أول من انبطح على وجهه

هو ذلك الطيار الجرئ، ولكن لحسن الحظ لم تنفجر تلك القنبلة فى هذه الساعة، وأيقنت أن الله حقٌ، ولعنت هتلر والحرب، وأيقنت أنها نقمة وليست بنعمة.

وبعد بضع دقائق مرّت سيارة، نظنوها طوربيداً نازلاً فكان أسبقنا الى الانبطاح هو ذلك الزميل.

إنّ لباسى الرسمى يتيح لى الكثير، وقد تفهم معنى الكثير، فإن الكثيرات يتهافتن علىّ والكثيرات ينظرن الىّ، وهذا مما لم أحظ به من قبل. وفى أحد الأيام شاهدت منظراً مؤلماً. فبينما كانت إحدى الراقصات ترقص فى أحد البارات، إذ أسر فى أذنها أحد الخدم بضع كلمات، فتركت الرقص وخرجت هارعة، فدفعنى الفضول الى تتبعها، فإذا بى أراها وقد احتضنت ابناً لها وأخذت تقبله بكل شغف، وقد لوثت المساحيق التى تزين بها وجهها وجه الطفل. وبكل براءة مد يده النحيلة وأزالها عن وجهه، ترى هل أنف الطفل الصغير من أن تلطخه تلك المساحيق المشربة بالعار المدنسة بالقذارة؟ ترى هل فهم الطفل الصغير معنى تلك الحركة التى قام بها. لقد كان منظراً مبكياً، وعندئذ تذكرت قول اسكندر دوماس: «اذا أردت أن تحكم على بغى فتفتش عن سبب عهرها» من يدرى لعله أحد الأنذال قد غرر بتلك المرأة ثم رمى بها الى عرض الطريق بعد أن

خلف فيها ثمرته، ومن يدرى فلعلها هى التى غررت بأحدهم ثم تركته تحمل ثمرة إثمها، ومن يدرى لعّل ذلك الطفل البرئ هو ثمرة حب برئ ...

والآن لأحدثك عن حالة المدينة، فقد أصبحت خاوية خالية هجرها أبناؤها، وصارت المدينة وكأنها مدينة الأموات، وقد أصيب منزل عمى بقنبلة وأصيبت مدرسته بقنبلتين وأصيبت المكتبة البلدية بقنبلة، وأصيب جميع أحياء المدينة بلا استثناء، وأصيب باب سدرة بطوربيد جديد أفنى ما أبقاه سلفه. والغارات الآن لا تكون الا فى الليالى غير القمرية، فإن الألمان يأتون معهم بكلوبات يعلقونها فى السماء فيطغى نورها على نور القمر. وقد نزل طوربيد فى حديقة المحافظة ولكنه لم ينفجر. وقد قال أحدهم أن سيدى أبو الدردار صعد الى السماء وأنزله على الأرض بسلام. وأن الذى رأى أبو الدردار وهو نازل بالطوربيد هو يونانى فأسلم، وبالأمارة أن سيدى أبو الدردار لابساً لباساً أبيض، فلعل أحدهم رأى الطوربيد نازلا بباراشوت أبيض فظنه أبا الدردار.

وأخيراً نأتى الى أثمن شئ فى الحياة وهو نتيجة الامتحان الذى كنا فيه من الناجحين نجاحاً مشرفاً. وقد قابلت عُمر فأراد أن يفتح أحدى المحاضرات - وكنت بلباسى الرسمى - فتوعدته بطوربيد ألقيه عليه.

لقد انتشرت المدافع فى الشوارع وفوق أسطح المنازل العالية كما انتشرت فيها المناطيد التى سماها أحد الظرفاء «خنازير». كما أخبرنى أحد الظرفاء أيضاً أن الصفارة تنطلق قائلة: طابخين إيبه .. طابخين إيبه .. فيأتيها الرد العاجل كُرمب كُرمب كُرمب.

لم يبق لدى الكثير من الوقت، فعلّى أن أستعد اليوم للطيران للمرة الثانية منذ التحاقى. فعذراً، وأرجو أن تكتب إلىّ بهذا العنوان: ٥٣ شارع دارا برمل الاسكندرية. وقد عملت الترتيبات اللازمة حتى تصل الىّ الخطابات فى يومها. لم أتلق خطابات من رفيق أبداً فأرجو أن تدلنّى على عنوانه قريباً.

وأخيراً الى اللقاء !!!!   المخلص: جورج

الى اللقاء؟

فهل التقينا حقاً، بعد ذلك؟

لم ألتقِ بعد ذلك، لا بسمير، ولا بجورج.

شطت بنا الطرق وانشعبت المسارات.

وها نحن نضرب - كل منا وحده - فى آخر الدروب.

اذا كنا ما زلنا، بعد.

وخطر لى أنه بينما كان سمير قناوى - كالنبات المعتنى به جيداً فى

صُوته المحميّة - فيه براءة تشفى على الطفولة، كان وفيق - فى تلك السنة - أنضج منه، ومنى، بكثير، وأكثر تجربة. فهل كان وفيق أيضاً أكثر خبرة بالنساء؟ هل كان قد تردد على البيوت السرية؟ أم كان يكتفى بكتب مثل «بئر العسل» أو «اعترافات مومس» أو «مذكرات فانى» بالانجليزية، فى طبعاتها الرخيصة - بالبنط الكبير والأخطاء المطبعية الفاضحة - والورق الهش الأصفر، التى كانت تطبع عندئذ فى مطابع شبرا والفجالة، خصيصاً لاستهلاك العساكر الانجليز والأسترال الذين كانت تغص بهم شوارع الأسكندرية فى ١٩٤٠ و ١٩٤١ والذين ذهبوا الى موتهم فى العلمين والبرارى الغربية؟ هل كان يكتفى - فوق ذلك - بمجلات البورنو الانجليزى اللامعة الصفحات - التى أسميتها ماجنة - والتى اشتراها سمير أيضاً؟ وقراتها، منهما معاً، بافتتان ونفور مزدوج.

أما چورج فقد كنت عرفته - كما عرفتهم، معظمهم - قبل ذلك بأربع سنوات، ياه .. يعنى فى ١٩٣٧، فى سنة أولى، أو ربما ثانية ثانوى حسب نظام التعليم حينئذ - يعنى ثلاث سنوات قبل التوجيهية - التى لم يحصل عليها چورج قط.

كان چورج عندئذ فتى ضخم الجسم ولكنه رياضى، ممشوق الطول،

قوى، على طريقة القبضايات، وجهه محمر، مدّور وكثيف، على الطريقة الشامية، كان أبوه ناظر محطة ترام سيدى جابر (المحطة لا الحمامات).

«عرفته عندما حاول اغتصاب راية من درجى فى الفصل. وإنىّ لأذكر التفاصيل كما لو كانت بالأمس. فقد كنت حريصاً على رايتى، تلك الثمرة الشهيّة التى تتدلى من دوحة الفن والجمال. كنت غيوراً عليها، خائفاً من استلابها، لذلك خبأتها تحت الچاكتة، وخرجت بها فى الفسحة، حذراً مترقباً.

وحدث ما توقعت، إذ فحص المغتصب درجى، فلما لم يجدها استشاط غضباً وانطلق يبحث عنى، مع أحد زملائه. وعثر بى عندما كان الجرس يدق، وقد ابتدأ الفناء يخلو من رواده بالتدريج، فلم يبق معى غير أحد أصدقائى وأسمه إدوارد. لست أذكر تماماً كيف استطاع أن يَجرّ شكلى، وإنما تتمثّل لى صورة الموقف الذى تلا ذلك، فى قوة وجلاء.

أمسك چوريج بساعدى وحاول أن يثنيه (يعنى أن يفرده عن صدرى) لكى يخرج الراية من مخبئها تحت الجاكتة، وأخذ زميله يعاونه فى تلك العملية، لكنى كنت حريصاً عليها، فاستبسلت فى الدفاع والمقاومة. وكنت خجولاً فلم أحاول الرد بسيل من الشتائم والسباب، كما

يفعل المرء عادة فى مثل هذه المواقف.

أذكر أنه لم يفلح فى الاستيلاء على بغيته، وذلك بمعونة صديقى إدوارد اللبق طلق اللسان. وارتد جورج على عقبيه محسوراً محبوطاً. ثم أذكر أخيراً كيف أسرعت الى الفصل وقد تدفقت الدماء فصبغت وجهى بحمرة الانتصار والنشوة والظفر.

يوميات: أخميم، حوالى الساعة الحادية عشرة مساء

١٩ أغسطس ١٩٤١

لماذا لم أكتب فى تلك اليوميات التى أصفر ورقها (بعد أكثر من خمسين عاماً، ألا تريد أن يصفر، ويصبح هشاً، مثل حياتك نفسها، وتظل له مع ذلك سطوة؟) لماذا لم أحكِ كيف أننى واجهته، فى البداية، بلكمة على فكه، بالضبط كما كنت أقرأ فى روايات أرسين لوبين (هل هذه حكاية داود وجوليات، مثلاً؟) لكننى، بالطبع، لم أكن قد تلقيت أى نوع من التدريب على الملاكمة، فإذا بقبضتى، مهما بلغ من حماستها، واهنة، قاصرة، لا تكاد تمس وجهه، واذا هو يضربنى بقبضة قوية - لم يضع فيها كل طاقته والا كانت قد أودت بى! - واذا بالدنيا تدور بى، ولكنى أحطت الجاكتة - وتحتها الرواية - بذراعىّ كلتيهما، واستقتلت!

ترى ماذا كانت الرواية؟

فى الفناء الرملىّ الذى أصبح الآن خاوياً تقريباً، وفى عز الشمس، بين المبنى الذى أصبح كلية الحقوق فيما بعد، والمبنى الذى أصبح كلية الآداب، ولم يعرفهما چورچ قط على هذا النحو، أذكر - حتى الآن - كيف كدت أختنق، وهو يجهد فى أن ينتزع تلك الرواية العجيبة منى - وزميله الذى لم أعد أذكر لا أسمه ولا شيئاً عنه على الاطلاق - يجهد فى أن يفرد ذراعى الأخرى التى ماتت على الچاكتة، لا يهزها شئ.

هذا الصبى - الطفل فى الثانية عشرة من عمره، هش الجسم، ضئيل الحجم، هل أذكر - مع هذا الصبى - حسّ الغرق وشهقة الغصص والاستماتة مع ذلك فى الدفاع عن الذات؟ أو عن الفنّ؟

وهل أنحسرت هذه الاستماتة أم هى - أو بقاياها - مازالت هناك؟

«لست أدرى كيف تصادقنا. وكيف وجدت فيه ميولاً نبيلة، وأفكاراً سامية، وقابلية للأدب، وميلا لسماع آرائى المتطرفة، والشعور بمثلها.

أذكر كيف كنا نسطو على حديقة المدرسة، وحديقة الناظر، لنسرق الزهور الجميلة الباسمة، وكيف كنا نبرر أعمالنا بآراء فلسفية رائعة، وندعمها بحيل شيطانية غريبة.

ثم ألفنا عصابة تتكون منه، ومنى، ومن «صبى حرامى» - تلميذ شقى فى سنة أولى- وكنا نسطو على أشجار النبق، والعنب، ونملأ جيوبنا فى فسحة الفداء نبقاً للديلة، وان كان فى الغالب فجًا، ولكن نطلبه للذة المغامرة وطرافة الأمر.

وكنا نعقد فى أثناء تلك الأعمال مؤتمرات عجيبة يتخللها الجد مع الهزل، والدعابة مع الخطورة، وتمتزج فيها الفلسفة بالسخرية، وتشوقنا اليها رغبتنا فى الخروج على التقاليد المتبعة والسخرية بكل ما هو مألوف وعادى.

أذكر كيف كنا، قبل الامتحان بدقائق، نسطو على كرمة العنب فنجنى منها كمية كبيرة من ورق المحشى والحصرم وطائفة لا بأس بها من الأشواك والغبار والمتاعب المحبوبة التى تنتهى بابتسامة....»

وكما كان يحدث لى فى «الطرانة» ها هو ذا التشبث، فى آخر حدود الاندفاع الصبيانى، بالخشب الهش الرقيق، هيكل العنباية التى تقع فى داخل حدود المحظور: بين فناء المدرسة، وهو مباح، وحديقة الناظر وهى ممنوعة.

أهجوم باكر على الطابو، أو مناوشة له، واقتحام، مَرَّةً بعد مرة، على طول السنين؟

الخدوش فى الوجه والذراعين والساقين من غير تَرَف ومن غير جرح للروح.

كأنما الأشواك عِقد خفىّ مضفور حول كل الجسم.

كانت هناك لحظات قوطية فى محرم بك.

كان سمير قناوى من أولاد الذوات. واضح.

وكانت لديه لكنة خفيفة فى نطق الراء.

كان يأتى للعباسية الثانوية - على بُعد عشر دقائق من بيتهم - فى سيارة باكار سوداء يقودها شوفير أصلى مصنوع حسب المواصفات المضبوطة: كابْ أزرق داكن، بدلة بياقة صلبة من نفس القماش تدور حول رقبته، وصفّ رأسىّ من أزرار صفراء كبيرة وهاجة. لا ينزل سمير من المعقد الخلفى النسيح للسيارة الا بعد أن يثب الشوفير من السيارة ويفتح له الباب ويمد له يده بحقيبة الكتب والكراريس - التى يحتفظ بها معه فى مقدمة السيارة - منحنياً انحناءة خفيفة.

أين اختفى بيتهم الآن؟

بيتهم؟

قصرهم على الأصحّ.

كان القصر فى آخر شارع محرّم بك الذى كان عندئذ هادئاً مظللا بأشجار ضخمة، توت وكافور وجّميز ومنجه، لها حفيف تسمعه عندما يهب هواء أسكندرية المبلول قادماً من ناحية محطة مصر. مع أن الترام - هل كان نمرة خمسة؟ - يقطع الشارع وهو يتأرجح ويتقلقل وله صوت كركرة وجلجلة، والجرس يصلصل برنين متصل، بهيج، فى سكون الشارع الذى لا تقطعه الا ترقعة عجلات الحنطور ووقع سنابك خيلها على أحجار البازلت الصغيرة المتلاصقة، لامعة وسوداء.

للبيت - أو القصر - كما لابد أن يكون له، سور عالٍ من قوائم حديدية رفيعة متقاربة مغروزة فى كنار حجري متين الشكل، وراءه حديقة، كما لابد أن تكون، متكاثفة الشجر حوشية الخضرة قليلاً من الاهمال أو من غضارة النجيل الغنىّ اليانع.

القصر يقوم غامضاً شيئاً ما وراء هذه الخطوط المتعاقبة من التمهيدات، التحصينات المناعات.

ما كان يسحرنى فى هذه السراية ليس النوافذ العالية الخضراء المقفلة الضلف، على المقاس الكلاسيكى، وليس الشرفات الحجرية الصغيرة، ملاصقة للحيطان تقريباً، لا تكاد تسع الا شخصاً أو شخصين، لها سور خفيض دائرى قليلاً من عواميد منحوتة. كأنها أرجل مقصولة عند الركب، منتفخة الربلات.

ما كان يسحرنى، من الخارج طبعاً لأننى لم أزره قط ولم يزره أحد

قط، هو ذلك البرج على طرف السراية.

لحظة قوطية.

مّدور، كامل الاستدارة، شاهق، صاعد للسماء، نابع من ركن القصر مباشرة، فيه نوافذ صغيرة مفتوحة دائماً عليها قضبان حديدية. وله قمة مخروطية مغطاة بقرميد أخضر.

برج الباستيل، كنا نسميه ونحن نمر من أمامه بعد خروجنا من المدرسة، شلة العيال المقاطيع العفاريت الذين ليسوا من أولاد الذوات ولا حاجة.

أخميم فى الحادية عشرة مساء ٢٢ أغسطس ١٩٤١: يوميات.

عرفته من أربع سنوات أيضاً، كان معى فى الفصل، علاقتى به لم تكن تتجاوز تحية معتادة، فيها ميل يسير متبادل. كنا نعلقّ أحياناً على بعض روايات، أو كتب، بملاحظات عابرة ..

فى السنة التالية كان الأدب، والعلاقة المدرسية، وتواصل الألفة، باعثة على توثق الصلات بيني وبينه. وكانت حصص «الدين» التى كنا نقضيها فى حدائق المدرسة، أقوى رابطة بين أعضاء «المحور الثلاثى» كما سمّينا فيما بعد، أنا، وجورج، وسمير.

كنا نقضى هذه الحصص متجولين متحدثين، نغازل الشرفات من بعيد، ونقتطف الأزهار، ونعبث - باختصار - فى الحرش، والمجرى خلف السحالى فى حديقة الكشافة المحجوزة الواطئة قليلاً، وكثيفة الزروع

بأزهارها حريفة الرائحة خشنة الورق.

زوّغنا مرة من المدرسة، فى يوم أحد السعف، وطفنا فى شوارع المدينة، حتى وصلنا للكورنيش، ونحن نضحك ونمرح - كنا فى العيد - ونخوض فى أحاديث تتراوح بين أحدث ما قرأنا من كتب، وأطرف ما عرفنا من نظريات، وأجمل السائرات فى الطريق.

كان عند خروجنا من المدرسة يزدلف الى سيارته الفخمة، يلقى بالتحية، ثم تمضى به السيارة كالسهم المارق. وكان، على الرغم مما يبدو من جدّيته، مرحاً يحب الحديث العابث المستهتر - خاصة أحاديث چورج - وقد تعتريه نوبات اندفاع فيشترى المجلات الماجنة، لكنه كان فتى كريم الخلق فيما عدا ذلك، سمحاً، بشوشاً، رقيق المحَضر.

فى أول سنة كنا نأكل على مائدة واحدة - أنا وهو وچورج - وكنا نعاكسه، ويستشيط غيظاً، بأن نغنى له: سوسو، حنتوسو، يالطافتك ياحلاوتك يا ننّوسو ..»

وعلى أننا كنا نعز سمير، ونوده، فلم يَخلُ الأمر - في الأول - من قليل من الاحتقار لرفاهته، وربما هبوة من الغيرة - لا تكاد تُحس - من العز الذى كنا نفترض أنه يعيش فيه، لكننا بعد أن أصبحنا أصدقاء حقاً أسقطنا المعاكسة، والأغنية التى كانت شائعة عندئذ ولها ترقيع خاص منغّم، ونسينا أنه ابن ذوات، حتى تجئ الباكار والشوفير فنتذكّر من جديد، ولكن لا نكاد نعير ذلك أهمية.

كان سمير قناوى يكتب قصصاً - ساذجة بالطبع، ماذا يمكن أن تتوقع؟ - عن شقاء العمال وكفاحهم، وعن قسوة قلب أصحاب المصانع - وطيبة بعضهم - قصص أشبه ما تكون بقصاصات من جريدة يومية. وكانت خطاباته أشبه ببلاغات رسمية، وان كان يُشْرق فى خلالها بأشياء جميلة.

وكان أيضاً يحفظ أنساب قبائل العرب، ويرسم لها خرائط تفصيلية طويلة ومعقدة بطون قحطان: سبأ، حمير، الهميع، وهكذا متسلسلة حتى حطم ومعاوية مثلاً، وانتهاء ببنى يعفر. وبطون كهلان: ابتداء من سبأ وانتهاء بقيس وعبيد، مرورا بالأزد مثلا. وعدّى. كان عندهم فى البيت مكتبة حافلة من التراث، الأغانى وصبح الأعشى والكامل ونحوها. كَتَبَ مرةً قائمة بتسعة وتسعينَ اسماً للأسد.

ضربت أيدى الليالى بيننا، بعد ذلك، ولم نلتق بعد أن سافر الى القاهرة فى صيف ١٩٤٠ - بعد الغارات الألمانية الشهيرة على أسكندرية - والتحق بمدرسة من طراز السعيدية أو الخديوية أو نحوها، وانقطعت الصلة.

طيلة سنوات - عندما انتقلتُ الى القاهرة - كنت أرى اسمه على لافتة نحاسية صغيرة على عمارة قديمة كبيرة فى الزمالك: الدكتور سمير قناوى طبيب باطنى وجراح. وأفكر أنه ربما كان هو صديق الصبا القديم وأفكر أن أزوره أو أكلمه على الأقل بالتليفون وأنسى وأرجئ، حتى

اختفت العمارة وقامت محلها بناية حديثة بها سوبر ماركت ومحلات مزادات فخمة، وواجهات زجاجية ضخمة لامعة فيها ملابس أنيقة وغالية.

بحثت أخيراً عن رقم تليفونه فى الدليل، أما الذى أجاب علىّ فقد كان خاله الذى أنبأنى - بتردد وتوجّس - أنه هاجر الى انجلترا، ثم الى أمريكا، وأنه الآن فى فلوريدا، وطلبت منه عنوانه، وتليفونه فى فلوريدا، وعندما مررت فى اقامة قصيرة بنيويورك كتبت له، وجاءنى الرد - على الطريقة الأمريكية - بالتلفون.

حكى لى بسرعة قصة هجرته، ونجاحه. قال انه لم ينس العربى ولا الأدب العربى - وان كان الوقت المتاح له لا يسمح له بقراءة كثيرة - كان مشغولا جداً فى عيادته ومستشفاه ومنزله على السواء، وله فى كلّ منها سكرتارية فى ساعات العمل وآلة للاجابة فى غير أوقات العمل، وألحّ علىّ فى أن نلتقى. كان احساسه بالنجاح، وبالزمن، وبالسلوك، احساساً أمريكياً خالصا. من يستطيع أن يلومه؟

لم نلتق، ولم نتكلم، ولم نكتب.

عرفت - كما أفاجأ كل مرة، بأن أعرف - أنه غريب، أنه آخر.

قلت أين تلك الرسائل التى كتبها الىّ عندما كنا صبية سارع بنا نضج مبكر وان كان ساذجاً لاشك فى غرارته.

هل يبقى سمير القديم، فتى، دمثا، محباً وصديقاً. أم قد اندثر؟

مازالت عندى صورة له وهو فى الخامسة عشر ربما: وجه أسمر هادئ أميل الى التربيع، فيه ارادة قوية فى بكرتها، شعر أجعد مفروق بعناية، ونظرة صعيدية حالمة قليلاً وشاردة قليلاً، وبدلة شيك.

بعد عودتنا للاسكندرية من أخميم كتبت له على عنوانه الذى كان قد تركه لنا قبل أن يسافر: ١٠ شارع الديوان جاردن سيتى، وجاءنى الرد. واتصلت الرسائل والأخوانيات.

ثم جاء الخطاب الأخير:

«القاهرة فى ٣ أبريل ١٩٤٤

أخى العزيز

لست أدرى فى الواقع كيف أبدأ خطابى اليك، ذلك الخطاب الذى تمنيت أن أكتبه من زمن طويل. أأبداه بالاعتذار عن التأخير الطويل أم أبدأه بالعتاب لأنك ظننت فىّ شخصاً ينسى أحب صداقة اليه وأعزها؟

ولست أريد الافاضة فى الاعتذار فلعلك أدرى منى بالمشاغل الشاقة التى يتعين على الطالب الجامعى احتمالها. وان كنت أظن أن لطلبة الطب حظاً أوفر من تلك المتاعب.

لنتحدث قليلاً عن تلك الصداقة القديمة التى حزّ فى قلبى شكُكَ فى بقائها وطيدة ثابتة مهما طال الزمن وكثُر الفراق. أتظن أنى أنسى تلك الأيام السعيدة التى قضيناها معاً وتلك الصلات الروحية التى استمرت بعد ذلك؟ وأنك لتظن نفسك الملوم على قطع تلك العلاقة مدة طويلة،

ولكنى أجد نفسى أحق باللوم وإن كنت ألتمس الأعذار. ولكن أرجع مرة ثانية الى ذلك العذر القوى وهو الانهماك فى الدرس لعلك ترضى به.

وقد أحزنني جداً ما أخبرتنى به عن مداعبة القدر لك، وفى الحق أن ضربات القدر فى هذه المرة كانت قاسية عنيفة بل أكثر من القاسية العنيفة. ولكن صبراً فالصبر شيمة الكرام. لست أجد فى الواقع الكلمات التى أعزّيك بها لأن الخطب لا ينفع فيه عزاء، ولكن تجلّد يا صديقى.

عزيزى

لعلك تدرى أنى قد انقطعت عن الكتابة الى چورج من زمن طويل، أما السبب فى ذلك فهو أنى فقدت عنوانه ونسيته تماما. وهذا شئ لم أكن أتوقع حدوثه مطلقاً، وحاولت الاتصال به بعد ذلك فلم أستطع، ولم أرسل لك خطابات فى الصيف لأنى لم أكن أعرف عنوانك. وقبل أن يصلنى خطابك ببضعة أيام قابلت عبد المتعال تدال فأخبرنى عن كثير من أحوالكم، فرجوته أن يحث چورج على أن يبعث لى بعنوانه، وأن يفهم عذرى، وأن يحثك على الكتابة لى ولست أدرى ما تم فى الأمر.

وختاماً تقبل تحياتى الحارة وأشواقى القلبية.

صديقك المخلص

سمير قناوى

سمير، چورج، وفيق، أنطون، قدال، بدوي، منير، أين أنتم الآن؟

منكم من رحل عنا، وعن كل هذا العناء الرديء، منكم من هو بعيد،

لا سبيل اليه، ومنكم من لا أعرف اليه سبيلاً من الأصل، ولا أعرف إن كان معنا على هذه الأرض الواسعة ... أو ....

كم أحبُّ هذه الطيوف الأطياف، ماثلة وغائبة على السواء، مازالت ترودنى باستمراره. فما قيمة - وما معنى - هذا الحب؟

سؤال قائم باستمرار، ولا يكاد يكون له معنى، أو مكان.

لكنه ممضٌ، ملحاح، عنيد. وما من رُقية - عقلية أو خرافية - تنفع فى أن تطرده.

وبينما كنت أكتب الى وفيق، من أخميم أو من دمنهور أو من أسكندرية، ويكتب لى سمير من القاهرة، أو من المحلة الكبرى - طرف وصفى بك الزيادى صندوق بوستة ٢٥ - لم يكن سمير ووفيق يعرف شيئاً عن أحدهما الآخر.

ثمْ انقطاع تام، ليس لأحدهما بالآخر أدنى معرفة.

لم يكن وفيق قد جاءنا - بعد - فى الاسكندرية، فلم يلتق وسمير قط. أو هكذا أظن. فهل تلعب بى الذاكرة؟

وبطبيعة الحال لم يلتقِ أىّ منهم - سمير، چورچ، وفيق - بمنير رمزى.

خطر لى أن هذا النمط متكرر.

كم من صديق لى، كم من دنيا عشت فيها، كم من فلك كنت أدور فيه لا صلة لها - جميعاً - بأصدقاء، ودُنىً أعيش بها، فى الوقت

نفسه.

كنت أنعى على «رامة» انقطاع أفلاكها بعضها عن بعض. أنا الذى لا يعرفنى أصدقاء - وغرباء - الا ثورياً قديماً، وآخرون إلا موظفاً صغيراً أو كبيراً، ولا يعرف عنى أصدقاء أخر الا أننى مشغول بأشياء من قبيل هموم الروح أو الثقافة - كانت هناك نسوة يهجس بهن أننى لا يمكن - لا يمكن - أن أعرف شيئاً مثل الحب، أو حتى النوم مع امرأة. وأخريات - قليلات جداً - عرفن معى من صنوف الشبَق والعشق وفانتازيات الجنس ألواناً.

أليس ذلك شأن كلّ الناس؟ سألت نفسى.

كنت أظن أننى مشقوق شقين.

أتصور الآن أننى، كلىّ، شظايا ومِزق.

هل ثَمّ ما يجمعنى؟

دخول تراب العنب المحمْل برائحة الفجاجة النيئة فى خمر السكر الخام الذى يتخثر ببطء وتتعجل مذاقه في لهوجة.

التأرجح على الغصن المهتز المترنح تحت ثقل قلب، ما أخفه، يهدد بالهُوىِ فى أية لحظة، فى غمار شجرة النبق الكثّة.

ومن خلال تواشج الورق وتفجر شرايين الخضرة والسماء الزرقاء صافية مشحونة بالمعانى - لم تكن قفراً مجدبة - تسبح فيها سحابات معنيّة.

وتبدو أرض الحوش - بين المُباح والمحظور - سحيقة، تحت.

الوصول بأصابع ممدودة متوترة بالطلب والشهوة الى كُريات الثمر

متضرجة صفرته باحمرار لما يكد يشيع فى الروح الرقيق المتماسك، وفى إهابه معاً.

التحكّم فى بهلوانيات الجسم والرغبة، بين السماء والأرض، عند حشو الجيوب بورق العنب وحبّ النبق الذى يشر قليلاً بعصارة نزرة ويصبغ طرف القميص المحشور بين القماش المشمور والجلد العارى الحار، حلمات أثداء منتظرة.

معُلّق أزحف على فرع الشجرة الشاهق على خشب البحث بلا وصول.

ثم الانحدار بسرعة وخشونة.

انهيار على شروخ الجذع الجارح المشقق قويّ اللحاء.

حتى صدمة الألتقاء بالأرض كأنها غير مأمولة وغير مألوفة، مفاجئة تزلزل القلب بوعى اليقظة.

كنا، أيضا، نصعد على سلالم الطرارئ العمودية، قضبان حديدية رفيعة أحدها فوق الآخر، حتى سطوح مبنى عنابر النوم لطلبة الداخلية. ولم تكن السطوح منطقة يمسها تلميذ أو غير تلميذ، كان الهواء يهّب بنا هناك، فى العلو، نقياً وحاداً ويهزنا قليلاً، وكان حول مدخنة المطبخ عشّ عصافير معتنى به، وبعيد التناول، نمد اليدين اليه ونحن ملتصقان بحافة السطح، على حافّة التردى البهيجة، لكى نصل الى البيض الصغير المكنون. ترفرف الأم، تزقزق فى فزع ولهفة، فنقرر بعد المخاطرة بأعناقنا أن نترك لها عشها آمناً، استجابة لنداء الطبيعة الذى لا يُقاوَمّ، كما كنا نقول، ونسعد بذلك سعادة صبيانية.

فهل أحتاج أن أقول إننا كنا أقرب صديقين الى أحدنا الآخر، مشيات طويلة بالساعات على الكورنيش، أو فى الشلالات، وحدائق محطة مصر، ومدافن الشاطبى، وبائعى الكتب القديمة فى حوارى العطارين، نبحث ونصطاد كتباً ومجلات - بالعربى والانجليزى - تفوح منها رائحة تراب المكتبات الحميمة التى انتزعت منها - كان الطلاينة قد اعتقلوا، واليهود قد سافروا، وتشتتت مكتباتهم، وكانت الكتب برخْص التراب.

«وأذكر على الخصوص ونحن على الكورنيش أمام المنشية، كيف تقابلنا نجاة مع المصروسى، وطلعت. وما كاد الزميلان يلقيان بالتحية حتى صرخت: «إلحق، أديب .. مجنون .. حرامى!» ووجدت على الفور صدى لصرختى عند چورچ. وسرعان ما كان المارّة يرون أربعة صبية يعدون وراء بعضهم بعضاً، صارخين، ضاحكين، صائحين فى وسط الشارع ..»

وثبنا على سور الكورنيش الأبيض العريض، نطارد بعضنا بعضاً على السور الحجرى إذ تضرب الأمواج تحته، وتصطدم بمكعبات الصخر الأسمنتية الضخمة التى نما عليها طحلب أخضر لزج قديم، وترْغى فى ارتطامات هيّنة متلاحقة، ونهتف: «أديب .. مجنون .. حرامى».

فيم تهم هذه الصبيانية كلها، وحكاياتها، وماذا تعنى، إن كانت تعنى شيئاً على الإطلاق؟

وكيف انتهى هذا «الفتى اللص المستهتر الفيلسوف» الى مقاول نَقْل عنده لوريات، بعد أن مرَّ بسلسلة أحداث وتقلبات، خرج من عمله الذى لم نعرف قط ماذا كان بالضبط، أمتطوع طيار حقاً؟ أم كاتب مدنى أرضى ملحق بالطيران الأنجليزى؟ ثم أصبحت له علاقات غريبة مع العساكر الأنجليز والأسترال والأفريكان، مع الطيارين والبوليس الحربى وبنات الـ A. T. S.. وكان وراء دكان البقالة الذى يملكه أبوه فى شارع دارا، مخزن خلفى مكدس ببضائع «الأورنس» من أول علب البولوبيف والمربّى الى البطاطين والبلاطى، وكان چورچ يتقن الكلام باللهجات الأنجليزى ولكناتها المختلفة، من لهجة أوكسفورد مع الضباط والضابطات، الى لهجة الكوكنى القّح، والسكوتش، والأسترالى، كأنه، فى كل حالة، من أبنائها. وكانوا يأتون فى ساعات محددة متفق عليها سلفاً، تقف لوريات الجيش الضخمة العالية، وفى لمح البصر تكون شحناتها قد أنتقلت الى المخزن الخلفي، بينما العسكر يشربون كأساً من البراندى، ينصبُ مباشرة من حنفية فى برميل صغير، وتمضى اللوريات قبل أن تأتى دوريات البوليس الحربى، وكان لچورچ أيضاً علاقات ومعاملات أخرى مع البنات الاجريجيات والشاميّات ونسوان الطلاينة، يلتقى بهن ويرتّب أمورهن فى مسرح الجلوب فى شارع السلطان حسين أو فى ساحة الباتيناچ فى سبورتنج أمام محطة الترام، وكنا نسميّها «الوباء».

إلام آلَ هذا الفتى، وقد كان شاعراً كتب فى أنغام قيثارته: «وفى طرف الغاب مسحت الآلهة دموعهنّ صائحات: ما أقسى الانسان!»

عندما التقيت بجورج، بعد ذلك بسنين، فى ردهة شركة التأمين الأهلية لم أصدق. كان - وكنت - مشغوليّن ساعتها بأنفسنا، وهموم ساعتنا.

وبعد التحية العابرة، المندهشة، أحسست أننا غريبين.

ومن غير مليودراما، ولا رثاء للنفس، أسأل:

هل نحن دائماً، فى النهاية، غرباء؟

كلّنا؟

أما مفَر من هذه الغربة الكلّية؟

حتى نسقط فى الغربة الأخيرة النهائية؟

لا .

لا.

أرى يمينى بيوت رأس التين والأنفوشى وبحرى، واطئة، مبلولة الحيطان، ناصلة الحَجَر.

كان الثعبان قد خرج من الباب، وانسلّ بسرعة على الأرض الترابية الرملية الرطبة.

لم يقربه أحد.

بل وسّعوا له. قال لى الواد مرسى الجرسون، وهو يقدم لى القهوة

المحّوجة على الصينية النحاس المدّورة والمطبقة قليلاً:

- لا عم. وأنا مالى. دا بركة الحتة كُلتها. أضربه إزاى يا سيدنا لفندى؟ دى وليفته مستنياه. اللى يمسّه حتبخّ فى عينيه، تجيب داغه، فى ثانية يابويا .. اللهم احفظنا.

قال لي إنه مهما حطمنا رأسه، فسيذهب الى أليفته - بعد أن يموت - وعيناه قد رجعتا مفتوحتين وفيهما صورة مَنْ قتله. وسوف تعرف أنثاه كيف تناله.

تأتيد ولها نفخ ورعيد وهديد تحرق كل شئ فى طريقها الى ضحيتها، مسحوراً بنظرتها، وعلى رأسها إكليلها المعمول من ثلاث قبازع براقة بشتى الألوان.

تغرز ذيلها فى الأرض، تنتصب كالعود، وهى تفح، ثم تثب كالطير على القاتل المقترل.

يتيبسّ فور طعنتها لدغتها نهشها.

وينزف الدم الأسود.

القئ والشلل والسقوط، القاتل القتيل يعرف آلام الجحيم كلها في أقل من ثانية، من غير ثمن.

صورة وجهك الأسيل مطبوعة على حدقتىْ عينّى، حتى بعد أن أموت.

تنبحنى الكلاب بشدة، فى سكك الجبّانة العتيقة، بين حيطان

القبور المتداعية، تهت عن الطريق الى قبر أمى الذى عليه اسمى منقوشاً بالخّط النسخ على رخامة بيضاء، هل هو قبرى؟ وكان عم مسيحة الآن قد تهدّم بنيانه الجسيم، هائش اللحية، غير قادر على الحركة، بوابير الجاز التى تفّح تحت قلقاس الغطاس انطفأت من سنين، حل محلها الآن بوتاجاز عصرى أبيض شيك فى العشة التى انبنت الآن بالحجر وأصبح لها باب خشبى مردود عليها.

السور الأبيض على يسارى ممتد الى مالا نهاية، لا أعرف إلام يفضى.

بارحت أحلام النور والظّل وصورها المهتزة بالأبيض والأسود.

احترقت الآن سينما ماجستيك الواسعة الجميلة، وحل محلها دكّان جزم، وإن ظل برجها الدائرى مخروطىّ القمة، شامخاً.

كانوا قد أغلقوا الباب الطالع على شارع سعد زغلول، والذى تأتيه من عتمة الصالة الداخلية الى ردهة دائرية فسيحة فيها واجهات زجاجية عالية ومقّوسة، تضئ فيها - حتى الساعة عشرة مساء - صور الممثلين الأنيقة مصنوعة العيون مصفوفة الشعر بإتقان.

خرجت، مع جمهور حفلة الساعة ١٢، من الأبواب الجانبية الحديدية الصغيرة، على الشارع الطويل الخاوى الممتد الى مالا نهاية.

ليل الأسكندرية صافٍ وصحو وبليل، فيه دفء مريح منعش لا أجد مثله أبداً فى النهار، ولا فى أى مكان على الأرض.

ولحقت بنيامين قبل أن يقفل أبوابه، الساعة اثنين الصبح، رأخذت سندوتش فول بالطماطم والجرجير وسندويش فلافل بالطحينة البيضا، ودفعت ٢٤ مليماً فكّة.

هل ينتهى بى هذا الشارع المقفر الى شارع السلطان حسين، ومسرح الجلوب؟

ولكنه لا ينتهى.

لمحتها قادمة من بعيد، من الناحية الأخرى.

جاكتتها الجلدية التراواكار، عريضة الكتفين، تنزل الى ما فوق ركبتيها العاريتين، جلدها أشهب يومض.

ولما اقتربت رأيت أن عينيها المدورتين المتعبتين، نصف مغمضتين، وأن زواق شفتيها وخديها فاقع، وهى تنسل، لا تكاد تتلفت، تحت السور الأبيض الذاهب الى غير غاية. ولما حاذتنى قلت: «صباح الخير». فشبكت ذراعها على الفور بذراعى، دون كلمة، وأحسست جسمها ندياً وبارداً، وأردت - دون إرداة - أن أدفئها بحنانٍ ليس فيه شهوة قط.

وهى تلتصق بى، عارفة، فى صمت.

وأسريت تحت الأسوار الطويلة، وسمعت هرير آنوب فى العتمة تلتف حول وسطه الكوبرا الملكية، مميتى وفاتح فمى وباعث مزق روحى من الممات - ان كان ثمت - يرعاها سربا هائماً لا تعرف مستقراً.

ولما ذهبت الى الجزيرة التى يسيل عندها ماء النيل كانت الغرانيق

بعيدة التطواف القادمة من أقصى بلاد خراسان حيث الثلج الدائم، تقاتل رجلاً من الحجر قامته قدر مائة ذراع، تطير وتحوم وتهدف الى عينيه الفاغرتين وقد لفَّ على رأسه ثعبانه الملكى، وهو يخبطها بذراعيه فى حركات متصلبة، بينما الكوبرا تهب وتنفخ عليها، وينشق فمها عن لسانها المزدوج الحاد، والغرانيق ترتفع جداً ثم تسف وهى تصبح.

كان الرجل الهائل الجسيم واقفاً على أعلى صرح مشيد كالجبال، يمسك فى يده فتاة تبدو كالعصفورة، تتأرجح أطرافها الأربعة وتتلوى فى الهواء، وتهب الرياح التى تثيرها الغرانيق حديدية الشكل متوازية الأجنحة، فيرتفع طرف فستانها الخفيف عن ساقين أملودين صغيرين جداً فى يد الملك القرد المهول.

بكيت، فى السّر، بالدموع السخنة الخفية، عندما لم تأخذنى أمى الى سينما ستراند، عندما لم أر «كِنْج كونج». ولم أنس لوعة الخذلان حتى بعد ستين عاماً. يا هووه! ستين عاماً مازلت أذوق على طرف اللسان طعم ملح الدمع الذى سقط من ذلك الطفل، كأنما رغما عنه - هل كان ذلك سنة ١٩٣٦؟ - لأنه حُرم - بعد وعد - من متعة تحقيق خيالات هائمة.

رسَمَ خطوطاً ساذجة للرؤى الساذجة، وما زال، لكنها لم تحمل اليه عزاء، لا عندئذ ولا الآن.

نامت الغرانيق، وضعت رؤوسها تحت أجنحتها، واقفة على ساق

واحدة. نامت الغرانيق.

لكن شيخها لم ينم، ولا ينام أبد الدهر.

عِنَّابى .. عِنَّابى

يا خدود الحليوة ..

مجاريح الهوى - كما هو ذائع ومعروف - ليس لهم أطبّة.

ولا المحبوب طبيب، ولا عنده دوا.

هل يترصدنى آنوب، كما يرصدنا جميعاً، إن شاء الله؟

سمعت هريره الأبح وشممت أنفاسه النتنة، وجهه لا أراه، أعرف أنه خلفى، قريبٍ جداً منى، أعرف أنه ممدود الخطم ناتئ الأنياب. سَرت الىّ منه برودة لم أعرف مثلها قط، ذراعاه البشريتان تستديران بى، لهم حس سيقان الحيوان الأشعر كثيف الجلد.

أما التماسيح - فى وسط شوارع رأس التين، أم بين دورُ صندابورة؟ - فقد كانت تزحف ببطونها قوية الحراشيف على التراب الرمليّ الرطب، ذيولها الضخمة تخبط الحيطان، متجهة، بتصميم، الى الماء الخلو البعيد، هل تصل؟

وعندئذ فتح الناس أعينهم ورأوا الحية العظيمة وقد انتصبت برأسها، وقامت بجسدها الأملس، ونفثت شيئاً بصوت ضَخٍ محبوس، بشهقة كأنها أنين اللذة. وتصلب ركاب البوينج ٧٤٧ فى مقاعدهم، والطائرة تشق بهم أطباق السماء، بصوت هدير محركاتها النفاثة الأربعة،

منتظماً، رتيباً، تحت أنوار النيون اللبنية من وراء مسطحاتها المستطيلة المثبتة فى السقف. هبتّ رياح مسمومة، تجمد كل الناس، دون حياة، دون رجعة، ومضت الطائرة وحدها تمخر الأجواء الموحشة، دون أن تترقف، دون أن تسقط، دون أن ترتفع. الطيّار الآلى لا يموت، هو.

أما أنا فقد نظرتُ الى عينىّ الحية العظيمة، ونظرتْ الى عينىَّ.

ومن نظرتها النجلاء، مصفّرة وخضراء وكلها شبق، جاحظة العينين قليلاً، مدورة الحدّق، جاءتنى حياة شرسة ما زالت تفتك بى.

وما من رقية تنفعنى من لدغة هذه النظرة الأولى.

كل الخطوط وكل الحروف وكل التعازيم، أعيدها وأزيدها، لا تبرئنى، ولا تبرونى.

كانت مخازن القطن على جانبى الشارع تعمل بنشاط، بنوع من الاستبسال اليومى غير المدرك لشجاعة يأسه، النوافذ التى تشغل واجهة حائط المخزن كلها، ثاغرة، ارتفعت مصاريعها الحديدية المصبوغة بالأحمر الكابى، عن فراغ متهلف بعيد الغور. الأوناش الضخمة تئز سلاسلها المتينة خطرة الشكل ترفع بالات القطن الهائلة المحزّمة بسيور مسطحة لامعة بين الزرقة والسواد مغروزة فى جنوب البالات، تمسكها بدقة واحكام. الأسطى الونشجى يشوّر بيديه وذراعيه بحركات متفق عليها: بيرة، . . ! فيدور الونش دورة كاملة .. نص عندك.! تهتز البالة فى نصف دورة .. ستوب.

البالات مشبوكة بخطاطيف ماكرة لا تثقبها، تصعد من على ظهور الشاحنات التى يبدو شكلها عتيقاً، مربعة الخطم، مفتوحة تنفث بخاراً عن أفواه محركاتها العريضة، لكنها شغّالة فعّالة حمّالة الأسيّة.

وعربات الكارو الطويلة التى تجرّها أحصنة فارهة متينة الكفل تزاحمها، تترقع إذ تتلاحق دقدقاتها وهى تدور بعجلاتها المكسية بالحديد على بازلت الشارع المضلّع.

قلت: ماهى شونة الخشب نمرة ١١. خلاص وَصلْت.

كانت الشونة مفتوحة واسعة، لها سقف جمالون بالقرميد الأحمر القديم يصل الى نصف الشونة ويترك النصف الثانى مكشوفاً تحت السماء. والبغال مربوطة جنب الحائط، مدمركة ثقيلة، تدس خطومها عميقاً فى المخايل، تزفر فيتطاير حول أسنانها الضخمة المكشوفة رشاش من هشيش التبن بلا وزن، خنيف، خالص.

كان السلمّ كما كنت أنتظر تماماً، مظلما لا أكاد أرى فيه شيئاً، تلمست طريقى عليه بقدمىّ ويدىّ المتمسّكين بالدرابزين الذى لم أكن أعرف حتى مدى نظافته، حدست من لزوجته المتماسكة القديمة أنه متراكم القذر، لكن قذارته جافة، تاريخية.

ذكرّت نفسى: الكات الثالث، يعنى رابع فَسْحة، وعندما وصلت كانت لمبة نمرة خمسة، مدغمسة، صفراء النور فى شعلة السلك الكهربى المتعرج وراء الزجاج غير النظيف، تتقد بضعف على الباب.

قلت لنفسى: كأننى فى فيلم عربى قديم، لكن الديكور، هنا، حقيقىٌ غير مصنوع.

باما الواقع الرثّ يحاصر الخيال المتنزىّ، قلت.

قلت: يا سيدى على الحِكَم... !

هل هناك واقع خارج الخيال؟ قلت.

عندما فتحْت لى الباب، تدفق النور من نافذة مواجهة تفيض وتنسكب بأصص الزرع ونباتات الظل.

رلما انجابت بهرة النور المفاجئ، رأيت أنها تلبس قميص نوم، بينى، طويل الذراعين، ساتان أزرق لامع، ولكن طيات البطن وأعلى انساتين من اللبس المستمر، تركت خطوطاً باهتة بان منها نسيج القماش التحتانىّ نفسه تحت لمعة الساتان. وفتحة العنق مرتفعة، محتشمة، ولكن القميص الطويل مشقوق من الجانب حتى منتصف الفخذ، ليبيح لها حرية الحركة، والمشى. وكانت تلف رأسها - كالمنتظر بالضبط - بِدَوْرة من قماش خفيف مزرقّ، غير لامع، اكتسب من طول مسكته بشعرها طياته ولفاته نفسها، كأنما سَرت فى نسيجه حياة خاصة، وحرارة خاصة، من الشعر الخشن القوى.

كما سوف تلبسه امرأتى الأخرى فى زمنى الآخر.

فى الفَسحة الطويلة البلاط المغطاة بكليم أسيوطى، رأيت طفلها، قالت: اسمه مرسى. اسم الله عليك، شىٍ الله يا سيدى المرسى أبو

العباسّ، كان الولد عمره سنتان ربما، أو أكثر قليلاً، يمكن. وكانت عليه فانلة واحدة، ع اللحم، جسمه مدملك أسطوانىّ الشكل وبطنه بارز، جالساً على قصرية صاج، سعيداً بما ينجزه، فى وسط الصالون.

وقدمت لى كوب كركديه، سخناً، فيه حرافة مثيرة.

كأننى فى زيارة عائلية، لبيت الجيران مثلا.

لاحظت، لأول مرة، انها لم تكن قصيرة جداً، ولا طويلة جداً. سوف أعرف حنكتها بفنون صنع العشق الجسمانى الخالص، واستثارتها لكوامن جسمى وخفاياه التى لم أكن أعرف مدى لطفها ودقتها، على أننى عرفت معها - فى تقلب غمرات الاسكتشاف والمغامرة - كيف أستنفر مناعمها هى، بعد أن أبلاها ربما، أو على الأقل ثلمها، طول ممارسة الصنعة الروتينية.

وحكت لى، فيما بعد، عن قصة جارتها التى تحت، ضمن حكاياتها الكثيرة، فقد كانت إرهاصا مبكراً بشهر زاد الأخرى، قالت:

- سكينة. كل الناس تقول لها سوسو. مليئة جداً، سمراء جداً. زوجها سائق تاكسى معتبر، من أولاد الحتة، عندنا من كوم الناضورة.

طلعت لى فوق هنا، يجى من شهرين تلاتة، فى نص الليل، تبكى بالدموع السخنة. قل الحمد لله ما كانش عندى حد يعنى. قال يادار مادخلك شر، مالك يا عينى، مالك يا سوسو ياضناى؟ قالت حودة ضربنى علقة سخنة، حودة جُوزْها، اسم الله على مقامك، طيب ليه؟

قالت لى:

جايب لى يا ختى قال إيه قال بدلة رقص، بالترتر، شفتشى محزقة يا ختى كانت حتتفزر منى، وقال إيه قال أرقصى، أرقصى يا وليه، أرقصى لى بيها .. الله يرضيك، الله يهديك يا خويا، طب تيجى إزاى؟ قال على عينك يا تاجر، آدى الله وآدى حكمته، تدخل فىّ ازاى دى؟ قال لازماً ولابد ترقصى لى. باينىّ كان شارب له كاسين طانيا ولا هباب. والله مانا عارفه. قلت ما ينفعش يا حودة، ما يجيش يا حودة. مانت شايف أهه، هوّ أنا حقول لأ ليه بس؟ مش نافع يا حبيبى. هى كلمة ما تنيتهاش، وفين يرجعك، ماخلاش، راح نازل فى تسفيخ، بالقلام، بالشلاليت، باللكميّات، تقوليش باختى راكبه ستين عفريت، لما طفحنى الكوتة بعيد عنّك، وعن السامعين.

قالت له إن سوسو بعد ما نزلت من عندها على وش الفجر، راحت للبوليس، وكتبت المحضر والذى منه، وحولوا زوجها للنيابة، والنيابة حولته للمحكمة.

قالت: وعنها يا سيدى. القاضى قال: «براءة».

طيّب ليه؟ قال لإنه ما تعقلش، كده بالعقل مش ممكن فيه راجل بقول لست زىّ دى - اسم الله على مقامك - ترقص له، وابه فى بدلة رقص كده، يبقى ما حصلش، يبقى بتتبلىّ عليه. القاضى قال لها ياست مش ممكن، اتهامك كاذب. هو ده برضه جسم يتَرقّص بيه! أى وحياة النبى قال! يا خويا . ياما فى الحبس مظاليم!

وعنها يا سيدى واتصالحوا، سوسو وحوده، فى قلب المحكمة، قدام القاضى.

قال لهم صافى يا لبن؟ قالت والنبى على قلبى زىّ العسل!

كأنها لم تفرق تماماً فى لحم جسمها. ذهبت اليه طافية على غمر هذا الجسد.

فكأن جسمها سوف تترقرق على سطحه مياه بحر غير مرئية.

سكبت نفسى على جوارحها الناعمة.

سوف أقول: عينان كأنهما زهرتان منوّرتان طافيتان على ماء اللوتس الذهبى.

عبق ماء البحر الملح، نفث سمك ذفره يتضوّع.

الصَدَفَة التى رأيتها، ذات حلم، وردية اللحم، داكنة، حجرية الازوجة، متماسكة رطرية، على شاطئ جسمى الرملى.

الخضرة اليانعة الظليلة يتفتق لها ألف باب على حرف اليم.

النباتات والزروع حيّة وارنة تشاركنا فعل العشق الحميم.

زروع «السينجونيام» عريضة عالية تظللنا، أوراقها عريضة ومصيكة اللحم، غامقة من الخارج، أما فى باطنها فهى مشجرةٌ مشرجة متدرجة التلوين بالأخضر الفاتح متعدد القيم، عودها منصوب مستنفر منتفخ بعصارته منبثق من التربة المحصورة، ولن أفرغ من تقليب وجهى على الربوتين الملبنتين، شفتاى تتمرغان فى الخصوبة الطرية الداعية

الرخوة مطاوعة ومقاومة معاً، أسمع الصوت بخفوت، ولذة، بعتاب خفيف كأنه استزادة، بأنين كأنه من المتعة كأنه المطر.

أما زرعة القشطة الهندى فقد امتدت أصابعها الخضراء المشرشرة، حتى فى غمار النشوة، عددتها فوجدتها تسعة، كفوف عريضة لها شرايين داكنة الاخضرار تسرى فيها وتتشعب، استقرت الأيدى الخضراء رقيقة الحوافّ مهتزة الأصابع على بطنها الخمران وهى تضغط رأسه بيدها على القبة اللينة، برفق، تريد له أن يغوص مع امتدادات النبات الذى جرت فيه الآن رجفات مستقلة، فيغوص. وأطراف الأسبيدبسرا شبه الحديد النباتي المصبوب صباً بين الجسمين المتلاصقين، نازلة، متكاثفة، مستدقة الخوافي صلبة الشكل، لكنها هنهانة، شديدة الدكنة، متراكبة الورق.

أسمع هدير المدفع الضخم على السلسلة، فى الشاطبى، مرة واحدة، فيدوى الأفق بصدى ملئ مكتوم على حافة الشفق المصمت.

القمر ساطع على موج متراوح متناوب الزبد، وشبح السفينة بعيد، يسرى بلا صوت، كأنما من غير مُحَرِّك، من غير بحارة، من غير بوصلة ولا دفة، لكنه كأنما يعرف طريقه.

روح مسكوبة، نازفة، مفتوحة بلا أسرار.

غرابة التماسّ اللصيق الذى لا ينبع عن دخيلة هذه الروح.

عين الجسد المظلم تطلّ على أفق خاص بها ، وحدها.

لا أعرف هذا المسّ الحميم، هذا المسيس، هذه اللوثة الا بانصباب نبع حنان مكتوم لا اسم له، وان كان نزراً، وربما لا ضرورة له. لكن الجسد من غيره لن تقوم له قائمة. حنوٌ غير محدد بل شائع كماء رقراق منساب على الأرض.

سوف تقول له: لا يمكن أن أعرف الحب دون قدر من التفاهم والعطف الانساني.

«العطف الانساني» هكذا سوف تقول.

قال لنفسه: أى قدر يكفي. أى قدر يمكن أن يصنع، أو يوجد، بلا تعب، هكذا عفو اللحظة، أليس كذلك؟ أين تعب المحبة؟

الجسر على موج الماء العميق، يذهب الى وسط المجرى المريض، وينقطع.

أما سلسلة الحديد فقد كانت تسدّ الطريق.

تتعاورنى الصور القديمة - وهل ثمة شئ آخر؟ - تناوشنى وتراودني، تساورنى وتغوينى، وجوه وجسوم أنثوية قد حققت فى روحى أنا خلودها العابر، أو ثباتها على الأقل طالما بقيت، ديمومتها، متوقفة علىّ أنا وحدى، نجوم ساطعة فى عتمة الثلاثينات والأربعينات، فانتازيات لامعة على بطاقات رمادية مصقولة. يجمعها رفله أفندى من علب السجاير الورقية المقواة البيضاء التى تفتح - كصناديق باندورا - الى أعلى، فتكشف عن السجاير المبططة مرصوصة صفين على بطونها،

لها عبق نفاذ، مذهبة الفمّ وعليها «جناكليس» بالحروف الأفرنجية والعربية .. ذهبية اللون أيضاً، وتحت الورقة الشفافة - كأنها دهنية الملمس - البطاقة الهدية: نجمة - أو نجم - من هيولوود.

يحفظها رفله أفندى فى علب خشب «أرتيك» رقيقة محفورة بتجويفات منمنمة مرهفة على شكل زهور ونباتات متفرعة مفرغة فى جسد الخشب الرهيف.

قضى رفله أفندى سنوات طويلة مدرساً للجبر والهندسة فى المرقسية الثانوية فى اسكندرية، وكان أعزب، وله شقة فى محرم بك، ولم يتزوج الا عندما كبر جداً، ولم يخلّف وكان عندئذ مفتشاً ثم ناظراً فى سوهاج.

«كان يقول لأمى بلهجته الصعيدية الأسكندرانية العذبة الجَرْس: «يا مَرة خالى» كانت أمه بنت عم أبى، عرفتها فى أخميم: امرأة صلبة وحاسمة تسد مسدّ ألف رجل، وتلبس طرحة سوداء مهنهنة شفافة.

كان رفله أفندى مدور الوجه، أبيض البشرة وناعما قليلاً، وله عينان جاحظتان شيئاً ما، تتألقان بالمرح، وسريع النكتة متدفقاً بالكلام، وله شارب مشذّب ينزل من تحت أنفه بين خطّين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذى تظهر صوره فى اللطائف المصورة.

وكنت أحبه كثيراً.

كان يعزف الآن فى الغرفة الداخلية، على العود، موسيقى «ليه تلاوعينى وأنت نور عينى» بشجاها الراثى للنفس المشفق على آلامها،

تتجاوب بخفوت فى رنّات لها صدى - من وراء الجدران والباب المفتوح - مع أشجان طفلية غير مبرّرة.

جمال وجهها الجليدى البلورى تقطعه عينان نجلاوان مفتوحتان على سعتهما بكل رعب السينما المصنوع تحت قبلة مستر فردريك مارش مستر هايد قبحه وتشوهه المدّبر المحسوب، معد بعناية لكى ينفّر، ويجتذب معاً: مريام هوبكنس.

جوان كرافورد وروبرت مرنتجمرى: نموذج ونمط وحلم الشاشة البيضاء الرومانتيكية، الشعر المصفف بدقة، ليست فيه خصلة ولا شعرة واحدة غير مسوأة، والنظرة الحالمة (أمام الكاميرا) وصدى ابتسامة كامنة وهى تضع يدها على ياقة جاكتته العريضة وتسند رأسها الى كتفه العريضة. هو ، الثقة والأمان فى وجهه الذى يعتمد عليه فى ملمات العواطف، يتقبل الحلم.

بتى جرابل، نجمة راديو، من البروفيل، شقراء كاملة الجمال الى حد الهندسة، مقوسة الحاجب فى خط تام التدوير، الشفتان الرقيقتان الناضجتان معاً مصبوغتان تلمعان بالبريق، منفرتان عن طلب مردف - لايكاد يخفى - للحب، ثم الأنف المنحوت والشعر معقّد البناء مركب الاسترسال محكم الانثيال ..

الطفل الصبى تستثيره دائماً فاتنات هوليوود المغويات المصنوعات ببراعة، ورومانسيات البطولة أيضاً الموزعة بمعرفة شركة جناكليس

للسجاير المصرية الفاخرة، يعود الآن الى غيط العنب مع أمه فى زيها البلدى، ملاءتها الحريرية اللف المحكمة حول جسمها الرشيق الناعم والبرقع الشبيكة المخرّم الهفهاف، بقصبته الذهبية المحززة على أنفها، يخفى - ويضئ - نصف وجهها المشرق.

مع الصبى الطفل حمل هذه الأطياف الطائرة التى لم تغادره - أظنها لن تغادره قط حتى آخر لحظة في حياته: وبعدها؟ بفعل الكتابة تبقى؟

هاه ..

قالت لى نايرة بالأمس فقط: أحيانا أحس أننى بعيدة عنك جداً. ندما تنقلب فجأة الى انسان شديد القسوة. كأنك جراح.

قلت لها: أنا؟ أنا لا أعرف فى نفسى هذه القسوة، أبداً، ربما كان ذلك بفعل ما أفضّل أن أسمّيه صرامة عقلية، أو نزاهة فكرية، أو أشياء عنترية من هذا القبيل.

ضحكت، وضحكت هى على التليفون.

كانت شوارع محرّم بك هادئة ومظللة فى الغروب. وهناك ربوة هينة الارتفاع، مرصوفة كلها بأحجار البازلت العريضة السوداء، دانئة، لامعة ونظيفة كأنها بلاط حمام، تنبثق من بين شق فى تدويرات البازلت الناعم أعشاب خضراء ندية، مبلولة وشهوية.

وعلى قمة الربوة سلسلة حديد، ضخمة الحلقات، تمتد بين عمودين

مدّورين مغروسين فى الأرض، لهما رأسان مفلطحان.

هل كانت السلسلة الحديد لتمنع مرور عربات الكّارو وشطط أحصنتها الجامحة؟

أم لتعوق انحدار السيارات التى كانت قليلة ومربعة الفوهات ولها رفارف تضع عليها رجلك قبل أن تفتح أبوابها العريضة؟

أم لشئ آخر؟

كانت السلسلة الحديد المشدودة بين العمودين تسحرنى.

فى أحيان قليلة، ونحن عائدان من عند ابن عمتى رفله أفندى كنت أجد أن السلسلة الحديدية منزوعة من أحد العمودين، ملقاة على أحجار البازلت، طريحة على الأرض بجسدها العِضل الكثيف الحلقات، مستسلمة.

أما دولوريس دلريو، عارية الظهر والصدر الا من أكليل الزهور الاستوائية الباذخة، شعرها منفوش بقصد ومكر، ومن وسطها تنزل الجيبة المضفورة من قش النخيل، فيحملها بين ذراعيه الحانيتين القويتين جويل ماكرى - عارى الجذع تماماً - يدها مبسوطة على منتصف صدره تماماً ويدها الأخرى وراء عنقه، بتلك الحركة النسوية الشبقة التى أعرف أثرها المدمر الدافق فى صميم حقوى، عيناها مُسمَّرتان بعينيه، يحدقان الى أحدهما الآخر بوله واستغراق، لا تستطيع تغيير مسارها المدفون فى عمق عينيه، ولا يستطيع.

فرانسيس دى، شرقية الملامح تكاد تكون مصرية، قوية الذقن لكنها حالمة العينين شاردة النظرة، شعرها الغنى يعكس أضواء البروچكتورات القوية فيبدو مثل موج الليل الخصيب.

أما ليان هايد الالمانية فهى «الربيع بأجلى معانيه» شقراء، باسمه، ترنع بسمة صافية عن أسنان لامعة مكينة، وعينين صافيتين، الى أزاهر مطلولة تونع وتنبثق من على تعريشة مصنوعة الهندسة.

ونانسى كارول فى ثياب البحارة، غلامية، مقصوصة الشعر، قبعة صغيرة أنيقة لا تكاد تخفى رأسها، سوف تذكّرنى فيما بعد ذلك بكثير بقبعة زرقاء صغيرة أهديتها «رامة» فى روما صباح يوم سفرها الى برلين، وصلتها للمطار قبل أن أقتل التنين. هل قتلته أبداً؟ هل قتلته؟

كانت القاعة المنيرة الدائنة مزدحمة بالمشاهدين، على الكراسى الخيزران المصفوفة، فى غير راحة، أصوات احتكاكها بالباركيه تندمج فى لغط بهجة التشوفّ، أمام خشبة المسرح، كان الجو متوتراً بالشغف والانتظار واستشراف المتعة الآتية. ولم يكن لى كرسى، وقفت مسحوراً وتلق الجسم بجانب أمى فى الزحمة بين النسوان، روائحهن النسوية تلزنى وتدغدغنى، أمد عنقى للمسرح الصامت المتقفل على أسراره.

هل كانت جمعية الشبان المسيحية - أم كانت جمعية الشابات المسيحيات؟ - عندئذ فى مكانها اليوم، في شارع عبد العزيز الهادئ الفسيح، بالقرب من شارع شامبليون الذى كان عندئذ أرستقراطياً، بليل

النسمات مفتوحاً أمام البحر، تصطف على جانبيه أشجار النخيل السلطانى، وترتفع على أحد صفيه - بعد تقاطع محطة ترام الأزاريطة - ربوة المستشفى الميرى المرهوبة الجانب؟

الأضواء الحارقة على خشبة المسرح الصغير، الستار المخملى الأرجوانى يرتفع ببطء ليكشف عن قاعة العرش الذهبية المهيبة، الملك فى طيلسانه يخبط بصولجانه على الخشب، لحيته طويلة على صدره وعيناه تبرقان، بالغضب أم بالجلال؟

عشتار، السيدة الصغيرة الكوكب المشعة عروس السماء شجرة الآس، تدخل تجرى مندفعة غير مأذونة وغير مطلوبة، ثوبها الأبيض السابغ يتطاير حول ساقيها وهى تنطلق حتى سفح العرش لتسقط أمامه جاثية، شعرها أسود منسدل على كتفين من الساتان، سوسنة الحقل، مصبوغة الشفتين الحادتين بحمرة قانية. ولكن فى صوتها - عندما تكلمت - بحة غلامية، صدرها ناهض ملئ، هل هو أنثوى، أم لزوم التمثيل؟

كان الملك - فى الأول - غاضباً، يستنكر بقوة وخشونة دخولها عليه دون إذن، لكنه أصغى اليها. قالت إنها صائمة، وإنها تصلّى للهّ، وتتضرع للملك تكشف له مؤامرة الرجُل الذى ينوى أن يعصف بها.

وكان مستشار الملك يقف على مبعدة قليلاً، شيخاً منتصب العود، متهدل الشيبة، ممسكاً بعصا غليظة ذات عُقَد ناتئة.

ودخلت البنات الصغيرات، فراشات متطايرة السيقان، يترنّمن بالتراتيل، وبالشكر لله، بأصواتهن الرفيعة الثاقبة، وجيباتهن الوردية المنفوشة تصعد وتهبط مع الأجسام الضيئلة الرشيقة.

ونحن ننزل السلالم - أمي الآن في فستانها الافرنجي السمنّي اللون وشعرها مقصوص آلا جارسون على طريقة كونستانس بنيت، تشبهها على نحو ما، ورفله أفندى يمسك بيدى، وباليد الأخرى يسند امرأة خاله فى نزولها على السلالم المتحدرة، والنور القوى يسقط على الاعلانات الملونة بالأحمر والأخضر والأزرق - مرسومة ومصبوغة باليد، ومثبتة على الحيطان بمسامير رسم كبيرة، وفيها صورة الملكة الراكعة أمام عرش غائم الحدود لكنه مكين.

الشارع الصامت معتم قليلاً، وشبه خاوٍ.

من النافذة، وأنا أشرب كوب الشاى ماسخ الطعم قليلا، وأحس أننى لست موضع ترحيب، أرى قطار أبو قير يدقدق ويهتز على القبضان خارجاً من المحطة يستجمع طاقة متصاعدة، بصخب متصاعد، حتى أسمع وقفته، هامداً، يفح ببخاره المهدور على محطة الحضرة.

كنت قد جئت من القاهرة، فترة نهاية الأسبوع فقط، وقررت نجأة أن أرى صديق رواق الصبا القديم الحميم، وزرته فى تلك الفيللا التى لا أعرف الآن أين موقعها.

وفيق فتح لى الباب، فوجئ بزيارتى غير المنتظرة، وكان بالفانلة

وبنطلون بيچاما مخطط، منفوش الشعر منتفخ العينين، وخيّل الىّ أن في غرفة النوم الداخلية أحداً، امرأة في الغالب، لكنه لم يقل لى شيئاً، ولم يلحّ علىّ أن أبقى، عندما هممت بالقيام.

جاء قطار مصر منطلقاً لا يلوى على شئ، أشمَ، رافع الصدر، يهدر بعزم قوىّ. سمعت عن عربدات هذه الفيللا، حكاها لى رفيق فى ساعة رَوَقان ومرارة، وسمعت طرفاً من أبطالها، شخوصها، دُمَاها: صديقى أحمد صبرى الرسام، بلكنته التركية الفرنسية ومصريته الأرستقراطية البوهيمية معاً، كأنه من عالم آخر وان كان ابن بلد، من هنا، جداً. ونروزى المرْ ساكن شارع الأسكندرانى قديماً، مدرس الأنجليزى الذى ضاق صدره بما تَصور أنه أضطهاد منظم له - فى ظل الثورة - وتحقير مضمر حيناً وسافر أحياناً لعقيدته وأقليته، فهاجر الى كندا، وتبناها وطناً، على الكبرَ، وكان يدافع، بحرارة أكثر من اللزوم قليلاً، عن ديمقراطيتنا فى كندا، ومات هناك. ثم ايهاب الحضرى الضخم، أسمر داكن الوجه، ملامحه خشنة قاطعة الحدود، وان كان فيها سحر حيوية دافقة وخفة دم لا ينال منها شئ.

حكى لى رفيق حكايات عن فيللا الشلة، بلا مبالاة، وزراية، وسخرية عاتية اصطنعها حتى استحالت فطرةً وسجية ثابتة.

كيف كانت النسوان - وحتى بنات الكلية وخريجات الفلسفة والأنجليزى - يأتين الى الفيللا، وحدهنّ أو جماعات، الهاويات

والمحترفات على السواء.

تُقفل النوافذ التى تُطلّ على شارع - أو ممر - مهجور تحت خط السكة الحديد، وتضُاء الأنوار الحمراء - حتى فى عزّ النهار - حسب أصول العربدة الموصوفة. وبالفعل كانت هناك فى الفسحة الواسعة المفروشة بسجاجيد قديمة، ولكن فيها آثار العز، نجفة مصابيحها القوية مصبوغة بالأحمر الكامد، واضح أنه من ألوان أحمد صبرى وأنه صبغها بنفسه.

الضوء الأحمر - حسب المجرب المأثور - يهيج معاشق الأجسام المقهورة التواقة للجموح، مع براندى چناكليس الفاخر الباذخ المذاق - الزجاجة كانت بـ ٣٥ قرشاً، غالية، لكن تستاهل - فى سطوته تتصاعد سورات النشوة والاستهتار وضرب الدنيا بالجزمة، تدفعهم الى استغراق الحواس فى سمادير الهوَس، غضباً لا متعة، ورفضاً للانصياع والامتثال.

من حكاياته أن صفية بدر العرب - خريجة الفرنساوى - كانت بعد أن تشرب وتنال حظها من اللعب، تنام على بطنها، تحت النور الأحمر، وكان أحمد صبرى يرسم رسومات شبقية على ظهرها وردفيها بفرشاة رفيعة، بينما وفيق يتلو عليها الأشعار الماجنة، موزونة مقفاة، بالانجليزى، لا يكاد أحد يسمعه فى وسط الضحك والصخب المستميت، فوزى المُر مستلق على ظهره كأنه ليس هناك، يحدّق فى السقف أو فى

بواطن خفية حتى عنه، بينما ايهاب يرقص حول الجثة الممدودة المرسومة رقصة الهنود الحمر، ويطلق - ضرورى - صيحاتهم فى أفلام هوليوود.

كلهم بعد ذلك أصبحوا محترمين - فيما عدا أحمد صبرى الذى عاش ومات عبقرياً - تزوجت صفية بأستاذ مصرى يُدرِّس الفلسفة بالفرنسية فى طولوز وانفصلت عنه بالطلاق، بعد لأى، وبعد أزمات عقلية وعصبية - دخلت المصحّة وأجرت التحليل النفسى اللازم، وكلّهُ - وبعد ولد وبنت أصبحا - طبعاً - فرنسيين، لا علاقة لهما بمصر، إلا علاقة عاطفية غامضة، وحنين ربته فيهما الثقافة الفرنسية، وربما دماء عريقة، من يعرف؟

قال لى رفيق إن شغلتهم أساساً كانت اصطياد النسوان واستدراجهن الى أحابيل النسيان، هكذا قال.

أين هذا من حكاية كأنها تماماً من أحابيل أفلام هوليوود فى الأربعينات، عن ضوء القمر الفضى ونور مصابيح الكورنيش البنفسّجى الهادئ - فى ١٩٤١ - على أمواج سيدى بشر الحالمة المتراقصة بزبدها الأبيض، مجرى الحب الطاهر، وأحلام الجزيرة النائية الخالية ليس فيها الا الحبيبان، كأنها الجزيرة المسحورة التى تحيا فيها - فى عتمة صالة السينما، لمدة ١٠٠ دقيقة - حوريات مثل دوروثى لامور أو دلوريس دلريو، مكللات بعقود أثيثة من الزهور الاستوائية الضخمة، صفراء ساطعة وحمراء ناصعة تلتف بالجيد وتنزل على الصدر تخفيه - هل

كانت الصدور عارية؟ - والجونلة ضافية حتى الأقدام الحافية، مصنوعة بحذق من جدائل رفيعة مضفورة من سعف نخل الجوز الهندى، الرومانتيكية كان قد عفا عليها الزمن، بسرعة.

«عزيزى . وصديقى المحبوب ..

.. ليس هناك ما هو أشد إيلاما للنفس الحساسة من أن تكتشف أشياء لم تكن تود رؤيتها فى يوم من الأيام .. هناك بعض النفوس .. لا تهتم كثيراً ولا تتأثر بما تصدمها به الحياة من صدمات متتالية، فهى تتقبلها فى خضوع حيوانى ساكن .. وأذكر أنك فى خطاب من خطاباتك الماضية ذكرت لى مثلاً شبيها بذلك، هو «حمار السبخ »...

أما تلك النفوس الحساسة اللعينة المجنونة .. فأنها تثور لأتل شئ، ويؤلمها أتل شئ، وتوجعها أتفه الأشياء! أليس كذلك يا عزيزى؟»

لماذا ألعن دائماً كل ما أحبه؟ ألعنها بأستمرار، ألعنها لآلاف الأحلام الهنيئة التى مازالت تعيش فى، والتخابيل التى تدور حولها، هى فقط، والكوابيس المميتة التى تملأ وحدتى فزعاً وتعذيباً، ألعنها هى، ليأسى أنا.

«اسمع يا صديقى! يخيل الى أننى بسبيل أن أنضى اليك بأشياء قد تدهشك وقد أكون متسرعاً فى الافضاء بها، فقد أكتشف فيما بعد خطأى فيها .. فأندم .. ولكن ذلك لا يهم طالما أنا بهذا الكلام أسرى عن نفسى .. بذكر هذه الأشياء، التى تزلزلنى، فى قلبى .. قسوة غريبة ..

يخالطها - وتصوّر الجنون - شئ من اللذة الغريبة الخانقة! أننى مجنون يا صديقى .. ولم أنم أكثر من ساعتين ليلة أمس. !»

ليس فيه عودة، ذلك البحر، وتلك التى معى. هما البدء الذى لا يزول ولا تدور به دورة ما. والبدء أصلاً قائم دون أن يكون ماضياً ولا حاضراً وليس له مستقبل.

هو الآن. فقط. دون أدنى حسٍ أنه الآن.

عصا سحرية قد محت عنه المستقبل الذى أصبح ماضياً فيما بعد والذى لم يطرأ قط بعد ما كانت معى. وكان هناك سلام، ونور الصبح الرائق.

وكانت ملامحها غير واضحة، كأنها تسبح فى سحابةٍ مشعة صامتة الضوء.

لم يكن مهمّاً - ولم أتساءل قط، ولم يخطر لى أن أسال - أبداً من تكون. أعرفها تمام المعرفة، مطمئناً وراضياً، وساجى الروح.

ليس للحلم زمن. ليس حلماً. ليس هناك زمن.

عندما هب الهواء فجأة، منعشاً وأميل للبرودة، كان أدعى للتحدى.

وعندئذ تخلل نُور شمس الشتاء شعرها الأصهب المصفر، وسقط بوضوح على خصلة خفيفة منه مرفوعة على جبينها المدور، فاشتعلت بالنار. كان حاجباها عميقى السواد، وكانت العينان فاتحتين وصلبتين

فيهما شكة تخز القلب، تفيضان بايحاءات إستفزاز.

«بى رغبة أليمة فى البكاء يا صديقى .. ولكن هذه الرغبة ذاتها تبعث فى شعوراً عميقاً بكراهية لا حدود لها .. وحقد عميق مخيف .. والمصاب .. أننى لا أعرف الى أين تتجه هذه الكراهية أو الى أين يندفع هذا الحقد الأسود المجنون .. لا جهة معينة .. ولا مصدر معروف .. أنها شبه شئ مخيف ثائر مهول، يندفع فى كل اتجاه وكل مكان يا صديقى .. دون أن يذهب الى أى اتجاه أو أى مكان، دون أن يتوقف لحظة أو يستقر ثانية .. وهو فى أثناء هذا كله .. لا ينى عن نزيف ممتد وزئير مخيف .. محطماً .. مدمراً متقداً.

.. أفكر فى الانتحار كثيراً .. ولكن هل أنوى أن أنتحر حقاً؟»

كنت قد قلت لا. هذا كفاية. لا يمكن أن يستمر هذا الألم. كفى.

وقلت هذه بداية المهزلة الحقيقية، ربما، أو ختامها، لست أدرى.

كان فى جيبى ثلاثة قروش، وفى روحى مرارة وغضب وعزم معقود.

قلت يجب أن أتحرر، يجب أن أحطم الأسوار، أسوار الحياة نفسها.

كان ما وراء ذلك كله عَدَماً كاملاً يبدو لروحى راحةً كاملة.

قلت انطلقْ إذن انطلق، أُخرجْ من وحل الألم والحب المنكور ووطأة الصمت.

ما أشد رهبة هذا اليمّ، وما أقوى دعوته وغَوايته، عذوبتُه لا تضارع.

وسرت على الرمل المبلول متجهاً الى هذا القبر الطامى بكُتَل الماء الضخمة السوداء، حتى وصلت الى الشط، وكان تصميمى ثابتاً وكأننى فى غيبوبة، وكانت أمامى خطوة واحدة.

أتخيل عالماً كله لحظات حادة ولامعة.

كحد سكين.

قاطعة.

ليس فيه لحظات مترهلة مجوفة سميكة الجلد.

ليس فيه عجين حامض خمران.

أريده.

عالماً لا يطاق.

«أفهمت شيئاً يا صديقى؟

خير ألا تفهم .. ولكنى بالرغم من ذلك أنتظر منك .. بل أتوسل اليك أن تتكلم. وألا تؤلمنى يا صديقى، ولو دفعك هذا الى الكذب علىّ.

نعم لا تؤلمنى .. فكفانى نفسى .. وكفانى خيالى .. وكفانى ليالىّ الطوال.

أين أنت الآن يا صديقى؟

إننى فى حاجة مخيفة اليك يا صديقى المحبوب.

إننى فى حاجة اليك أيها الملاك الهادئ النقى البسيط النفس والقلب.

يا آلهى .. كم يخيّل الىّ أننى طفل صغير يحبو .. وانك لى أب حنون! عطوف !

وكم أشعر بلذة غريبة لمجرد هذا الشعور.

تذكر يا صديقى .. أننى خلقت وحشاً وهو يقتلنى الآن، رويداً فإياك أن تخلق أنت شيئاً .. فلتُمتْ فى سكون .. بعيداً .. فى صحرائك الجميلة الهادئة بوحشتها».

رفيق

من يجرؤ أن يكتب الآن بهذه الحرقة، بهذا وفيق غير المحكوم، بهذه العاطفية التى لا تخجل من نفسها؟

ومن يستطيع؟

الآن؟ فى عصر ثورة المعلومات والتكنولوجيا العالية، فى القرية الكونية الواحدة، فى عصر الأقمار الصناعية، فى عصر ما بعد الامبريالية، ما بعد الصناعة، ما بعد الحداثة، ما بعد الحرب الباردة، ما بعد التوازن النووى، ما بعد تفكك الأمبراطورية السوفيتية، كأنما هو

عصر ما بعد الحياة نفسها.

ولماذا ندين هذه الكتابة - أو ننظر إليها من علٍ؟ ألاننا نخشاها، أو نتوجس من وخيم عقابيلها؟

ما شأن ذلك كله بأى شئ؟

وكيف أستطيع أنا أن أبعث هذه «الوحوش» بعد نومها الطويل، وأن أخلق «رواية» كأنها هى نفسها فرانكشتين الذى يتحدث عنه صديقى القديم. وحوش الكتابة الرابضة.

ها هوذا «النصّ - الوحش» يعكف على ذاته،على مرآة لا نهاية لترداد صورته فيها. أعمدة الملحّ متكررةً حتى المدَىْ.

الملاك النقى البسيط القلب؟ صحرائى الهادئة بوحشتها؟

من؟ أنا؟

بعد طول تجوال هامة وصلتُ، ويدى خاوية، الى مرسىً حجرىً، مؤقت جداً، عند تقاطع طرق متشعبة، وشتّى؟ أم فى نهاية طريق؟

كأنما كانت هذه الكلمات استفزازاً لى، واستنفاراً لما هو فىَّ - بالقطع، غير ملائكى، ولما أعيش فيه - بالقطع .. مما هو غير الصحراء الهادئة.

تبنيتُ هذه الكلمات تبنياً مضاداً، بعد أن عاشت فى داخلى، وليس فقط فى أدراجى العتيقة، أكثر من خمسين عاماً.

كنت أحب نوريس فخرى الفخور الشامخة الصدر، وأموت من المرارة والوجد فى ظلام الوحدة وراحتها السرية، دون أن أقول لها أو لأحد كلمة واحدة. كنت رومانسياً أعرف شيلى وكيتس وناجى وابن زيدون ولا أعرف من التنين الا ذهبه الأصفر الساطع فى القلب مخايلا فى المستقبل المدثر البعيد. وبالمناسبة أشترى لى أبى بدلة - شاركسكين بيضاء تمرج نصاعتها الحريرية المنسدلة بانسجام وكرافتة حمراء منقطة الأبيض وجزمة بيضاء على بنىّ ذات نعل كريب عال ومريح وطرى، ينزل بى قليلا عندما أخطو على الأرض كأنها خفٌ جمل. ولم أكن قد عرفت بعد أنه قد مات فى آخر هذه السنة.

كان روميل قد توقف فى العلمين، ولكننا كنا قد مللنا الهجرة الى أخميم ودمنهور والطرانه، وقلنا سنبقى فى الاسكندرية، خلاص، مهما كان الخطر. ربما كبير. وكنت أمقت الألمان كما أمقت الانجليز سواء، وقلت هم فى البلاء سواء. فى السادسة عشرة كنت صاحياً وليبرالياً ونباتيًا، ومن عشاق روسو وقصيرى والسيرياليين. ولم أكن كبير الاهتمام بأخطر الاحداث فى آخر هذا النصف الأول من القرن العشرين، كنت فقط قد حزنت جدا لسقوط باريس التى أحببتها من كتب أناتول فرانس وزكى مبارك وأحمد الصاوى محمد وموباسان وكنت أحلم أن أعيش فيها معنى المعرفة والحرية، ولم أعرفها قط الا بعد اكتمال العمر زائراً مشغوفاً يرثى أحلام صباه.

قالت لى إن المخبأ الواسع الكبير فى عمارة التركى أمام كازينو كليوباترا كان بارداً بالليل، وقالت إن تيته كانت ترفض أن تنزل للمخبأ وتقول إن العمر واحد والرب واحد، وكانوا يحضرون لها البطاطين ويلفونها حول جسمها الصغير الرقيق فكانت تهز رأسها الشفّاف الأبيض وترضىَ أن تذهب معهم فقط حتى لا تتركهم وحدهم. وقالت إن الست تيريزا الطليانية وأولادها: البنتين والولد، كانوا يبكون بصوتٍ مكتوم عندما تدقدق المدافع المضادة للطائرات، وإنه عندما يشتد الضرب كانت «أبانا الذى» تختلط بسورة الكرسى، والدعاء باليونانية والطليانية يختلط بيا لطيف بالطيف يا خفى الألطاف نجنًا مما نخاف، وإنه عند انتهاء الغارة بالصفّارة الطويلة المتصلة البهيجة كانت الناس تضحك، وتصعد سلالم المخبأ وهى تكاد تسقط من النوم.

قالت إنه عند سيدى جابر تقوم صخرة كبيرة بعيداً فى البحر وكانوا يسمونها، «صخرة مالطة» ويتسابقون فى السباحة إليها، وكانوا يعودون إلى صخور الشاطئ العالية البريّة الشكل، ويطاردون أبو جلمبو الصغير الأبيض الجسم الشفّاف الأرجل، بأن ينقروا على الثقوب الصغيرة التى يأوى اليها في قلب الصخر، يدفعون اليها بعصًى رفيعة ترغم الحيوانات المذعورة الدقيقة على الهرب الى الخارج، وإن مَنْ كان يجمع أكبر عدد منها كان له الحق فى أن يكون سلطان اللعبة أو سلطانتها، وأن يملى شروطه.

حكاية خضبتُها بدم قديم هبت عليها أنفاس النار اللافحة مع سكرات عشقٍ بائد.

كان موعد درس الرسم يزعجنى، الثالثة بعد الظهر تماماً كل يومىْ اثنيْن وخميس، كان معنى ذلك أن أخلص بالكاد من مكتب الترجمة وأسلمّ على الخواجة ساسون، وأقطع شارع سعد زغلول صاعداً حتى محل بنيامين فأخطف سندوتشين: فول، وفلافل، آكل فى الطريق الجانبى الذى تقع على قمته سينما ماجستيك ويحفه السور الطويل الذى لم أعرف قط ماوراءه، وأنفذ من شارع السلطان حسين، فالنبى دانيال، فشارع نزاد، وقبل حلوانى بودرو أعبر الى الرصيف المقابل، وأدخل الى حارة واسعة وقصيرة، فيها البيت العريض المنخفض.

السلالم خشبية تتأرجح وتئز تحت قدمى، وعليها دائماً تراب خفيف، واطئة مريحة تدور فى الحوش الكبير المدكوك بالحجر الأبيض الذى نعمتّه السنوات، ويغطيه سقف عالٍ زجاجى مثلث الأضلاع، وقد بهتت ألوان الألواح الزجاجية وتحولت الصفرة الى صهبة فاتحة، والزرقة الى بنفسجىٍ كامد، والضوء يتقطر منها نزراً فيه حمرة مكتومة.

قلت: ألوان الصبا، ما أشد قتامتها، وعنفوان نديرها.

كنا أربعة فى الدرس عند المايسترو أنطرنيونى. أنا، وأحمد عزمى مدرس الانجليزى فى المدرسة المرقسية الذى مات فى شبابه قبل أن تزدهر موهبته الحوشية، والآخران مَرادِكى: إحسان الذى كان حتى فى تلك

الأيام مدوراً سميناً يتسايل شعره على جبينه وضحوكاً مقبلا على النساء وطيب الحياة، وإلهام الذى كان موظفاً بمخازن وزارة المعارف العمومية فى محرم بك، نحيلاً وأميل الى السمرة والتأمل والانطواء.

أتخوننى الذاكرة أم تَصور لى خيالاتى شيئاً أكثر واقعية من أى «واقع» فعلىّ، أم أن هذا «ما حدث» فعلاً؟ (ما شأن ما أكتب هنا بما حدث فعلاً؟ هل ما حدث أكتبه؟ وما أكتبه حدث؟ ثم ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟)

ذهبت اذن الى «المنطقة» (إدارة منطقة وزارة المعارف العمومية، أليس كذلك؟) ولقيت إلهام مردلي.

لم أكن قد رأيت شيئاً من لوحاته، واذا كنت مررت بها فلعلنى لم ألق اليها كبير بال. لم أكن أظن أنه رسّام كبير، أو حتى مهم.

صعدت سلالم رخامية متهدمة فى بيت من البيوت التي تشغلها الادارات الحكومية بعد أن كانت سكن عزّ قديم، حميمة. أخذت حيطانها يتساقط طلاؤها الجميل، وأخذت أشجارها القليلة تذبل وتجفّ قليلاً، وخشب الشبابيك الطويلة قد بهت لونه، وفى البيت أطياف ساكنيه القدامى، أشباح لم تركن الى راحة بعد. كان منهم فتاة الروب الأزرق التى لم أعرف اسمها قط، وكانت تسكن أمام بيتنا فى محرم بك، وكنت أحبها على البعد - عبر شارع لا عبور منه - (شارع بنى مروان المتفرع من شارع عرفان) من شرفتنا التى تقابل شرفة بيتهم. لم تكن تخرج الا

خطفاً، تسطع، جسمها ملفوف فى الزرقة الناعمة الحريرية، للحظات. أظل أترقبها طويلاً، بالساعات، وما تكاد تشرق، ويمتلئ العالم بها وهجاً، حتى تؤوب الى الداخل الخفى عنى، البيت المكنون على أسراره، والحديقة بأشجارها الخلفية ونخيلها الذى لا يلوح لى منه الا سعف متكاثف علوّى. كان عندى أيامها ثلاثة عشر عاماً.

كان الهام مردلى يجلس وراء مكتبه المكدس بالملفات والأوراق فى غير نظام كما يبدو، وطبعاً لها نظام خاص عند صاحبها، فيما أظن، أم أن لها نظاماً، حقاً؟

وقف من وراء المكتب نصف وقفة، ومد اليّ يداً وجدتها من غير قوة شدّ ولا حرارة لقاء، وجلس بسرعة.

كانت الغرفة معتمة قليلاً، هل كان الشبّاك القديم الطويل موارباً أو مغلقاً؟ وهل كان المصباح الكهربائى العارى المدلّى من السقف يسكب ضوءه الأصفر الشحيح فى النهار؟ تتخايل لى الآن الملفات الكثيرة، مكومة ومكدسة وعليها غبار وأغلفتها رمادية من القدم، هل كانت ملفوفة، كل دستة مثلا بدوبارة؟

خرجت من حارة الجُلنار المزدحمة التى كنا نسكن فيها منذ سنين، وحيطانها المتقابلة تغطيها دائماً مساحة داكنة الرطوبة صاعدة من الأرض، متعرجة الخطوط. والرائحة الثقيلة التى لا تنجاب عنها أبداً وتسطع فى آخر النهار، محسوسة. رائحة مياه الغسيل والمسح وبقايا

الطبيخ وريش الفراخ وقشر السمك التى تصب، ويطوح بها من النوافذ والبيبان والسطوح فى أى وقت من الليل والنهار على تراب الحارة، فلا يجف الوحل أبداً حتى على الرصيف، ورائحة ما يتركه الاطفال تحت الحيطان عندما يرفعون الجلابية ويقعدون فرادى أو جماعات، ويغيبون لحظة عن العالم فى نشوة مستغرقة خاصة، ثم يثبون، وينطلقون جرياً الى صراخهم ولعبهم الذى لا ينقطع، حتى تلحق بهم أخواتهم البنات الأكبر قليلاً، يضربنهم على الرأس والكتف لكى يعودوا للبيت.

كنت قد صحوت من نومة بعد الظهر المتأخر، وكنت بالبيجاما القطن وفيها خط مستطيل لامع، وصعدت السلالم القديمة بسياجها الخشبى الذى يلمع سواده من القدم ومس الأيادى. وكان معى «جمهورية أفلاطون» وأنا أطل من سور السطح على الحارة التى تتقلب فى ضجيجها وروائحها ونداءاتها.

الستّ سنيه زوجة المعلم أبو دراع العربجى، فى البيت المواجه القريب أمامى، من تحت. تطل من النافذة القديمة المفتوحة، بصدرها الثقيل، مكشوفاً فى قميص النوم الساتان الفضى الناصل النسيج المشغول بدانتيللا سوداء. كان صدرها مضغوطاً على قاعدة النافذة بلحمه الأسمر الزيتى، أراه من فوق. وجهها يبدو منتفخاً، وعيناها ثقيلتان قليلاً من نوم بعد الظهر، نأضم بينّ ساقىّ صلابة استدارة غير مقلقة وغير ملحة.

فى تلك السنة أجّرنا كابينة فى مصيف أصدقاء الكتاب المقدس فى

المندرة. وكان للمصيف سور منخفض من الطوب الأحمر حول أرض واسعة ناعمة الرمل. وكنت أحب أن ألعب تحت النخل العجوز العفّى خشن الحراشيف، بين الكباين الخشبية المتناثرة من غير نظام، وأن أنظر الى عناقيد البلح الأخضر المدّور تقريباً بغضارته الكثيفة تحت السَعَف العريض، وهو يهتز بأطرافه الشوكية المسننة على زرقة السماء التى تكاد تكون بيضاء. وكانت الفراخ تجرى وتنق وتلقط أكلهاْ من الرمل تحت النخل وحول الكباين، ونقفل الباب الخشبى فى السور، عندما نجرى وراءها، أنا وأمى، لنمسك واحدة. وتذبحها أمى بالسكين الحادة التى تومض فى الشمس، وهى تقول «باسم الصليب، وشارة الصليب كاك كاك، إلهى يصبّرك على ما بلاك» ثم ترمى الفرخة على الرمل تصفّى دمها وهى تجرى قليلاً ثم تسقط وأجنحتها تتخبط بجسمها.

وكان أبى يأخذ حمام الصبح مع أمى، مبكراً جداً قبل القهوة، هو بالمايوه الأسود الطويل الطويل كالفانلة، وجسمه كالعود مشدوداً، وله عضلات جافة ونحيلة. وهى بالمايوه القماش، غامق الزرقة، مقفل تماماً، له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل الى الركبتين، وكانت قد فصلته وخيطته بنفسها على الماكينة السِنْجر القديمة الرفيعة البطن التى بهتت الكتابة الذهبية عليها، قليلاً.

وأجرى معهما، وأنا لما أكد أصحو من النوم، بالشورت الأبيض والقميص الخفيف، نعبر الكورنيش اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة، هواء البحر البارد بعد كنّ الكابينة ودفئها يصدم وجهى،

والسيارات قليلة جداً في هذه الساعة، وننزل إلى الرمل الواسع المتحدّر، وليس فيه ولا شمسية، ولا أحد، وأقف على حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر، وعلى ذراعي الفُوَط الطويلة كثيفة الوَبرة.

كنت ذاهباً الى الربعْ القديم في بحرَى، وقد أستأجر فيه قاسم اسحق شقة صغيرة، من غرفتين على السطح، ليهرب من مطاردة البوليس.

وكنت أمشى بسرعة بين البيوت المبتلة القليلة الارتفاع، أحاذر أن أنظر، بشكل صريح، الى المداخل المعتمة قليلاً المليئة بالنسوان، منهمكات فى الطبيخ أمام مواقد الجاز التى تفحّ وتنير العَتَمة بنورٍ أصفر ثابتِ الاتقاد، أو متربعات أمام الطشوت المعدنية يغسلن ويَدعكن هدوم الرجالِ والعيال، أو محنيات الرؤوس عاكفات على تنقية الرزّ فى الصوانى النحاسية فى نور النهار على عتبات البيوت، وهن يرضعن أطفالهن، تركن لهم أثداءهن بحركة نسيان لهم وللعالم كله. وكنت أحس عيونهن مفتوحة عليَّ صاحية لى فى الوقت نفسه، متسائلة.

عندما عبرتُ الباب الضخم العتيق، عالياً جداً، ورؤوس المسامير الغليظة مدقوقة فى خشبه السميك، احدى ضلفتيه مغروزة فى تراب الحارة التاريخىّ، والثانية مسنودة لا يمكن تحريكها على حجر الحائط العريق المسْود، فَجَأتنى رائحة الرطوبة وبلل التراب فى الفَسحة الواسعة المعتمة. كان زجاج نافذة المنْور العلوية، وأنا أرفع إليه بصرى، فيه أثارة باهتة من ألوانه القديمة الزاهية، وتراكمات التراب الذى تكثف وجفّ حول حفافى الزجاج قد زحف وساح تحت مطر الأمس.

عندما عبرتُ الباب الضخم العتيق، عالياً جداً، ورؤوس المسامير الغليظة مدقوقة فى خشبه السميك، إحدى ضلفتيه مغروزة فى تراب الحارة التاريخىّ، والثانية مسنودة لا يمكن تحريكها على حجر الحائط العريق المسْود، فَجَأتنى رائحة الرطوبة وبلل التراب فى الفَسحة الواسعة المعتمة. كان زجاج نافذة المنْور العلوية، وأنا أرفع إليه بصرى، فيه أثارة باهتة من ألوانه القديمة الزاهية، وتراكمات الترب الذى تكثف وجفّ حول حفافى الزجاج قد زحف وساح تحت مطر الأمس.

مررت بجانب العربة الكارو عالية العجلات، ذراعاها الخشبيتان الطويلتان مسنودتان الى حائط بير السلم، وصعدت السلم الخشبى الحلزونى العريض، درجاته تضئ تحت قدمّى، خشبها قد أهترأ أو أنبرَى تماماً وزال من المنتصف فى بعض الدرجات، والدرابزين البلاط السميك المدور نعمته سنوات من مسحَ الايْدى ومسكها وتحسّسها، يهتز ويميس كأنما يوشك على الأنخلاع.

كانت اسكندرة، بنت خالتى لبيبة، كعروسة المولد.

صافية، خمرية، ملساء. عيناها واسعتان خضراوان، وشعرها الوحف ذهبى داكن. ولم تكن خالتى لبيبة، أمها، خالتى على الحقيقة، بل خالة أمى. ولكن اسكندرة كانت فى مثل سنّى، يمكن، أو أكبر قليلاً. وكانت تلبس فستاناً حريرياً، أبيض، مخنصراً وواسع الحاشية، واسع التقريرة على صدرها، وكأنها لم يكن عندها غيره. وصدرها لم يكد ينبت،

ولكنه، على صغره، ناهد، وقوى.

وكنت، فى كل مرة، واجف القلب وأنا أزورهم فى بيتهم في شارع زنيب، فى غيط العنب، قريباً من بيتنا. أدخل من بابٍ خشبى كبير، كأبواب المخازن، ينفتح على حوش طويل كأنه حارة داخلية، فيها حنفية ماء سوداء غليظة القوهة، قائمة من الأرض، عمودية، أمام مرحاض مبنى من الحجر الأبيض الخام، وحده فى الحوش، يخدم البيت كله، وقد نشع الماء فى تموّج قاتم يدور بحيطانه الأربعة، وتهب منه، دائماً، رائحة خاصة نفاذة. تظلله شجرة توت ضخمة، فى الموسم تطرح حبها الأحمر الأسود الغض الدسم، وأحس أن فى داخل جلدها العريض المفتول حياة خاصة وباقية.

رُكِنَتْ على حائط الحوش عجلات خشبية عالية، هائلة الاستدارة، مخلوعة من عربات الكارّو الضيقة الضخمة، وصفائح مياه صدئة، وطشوت سوداء، وكراسى مكسورة الأرجل، وأنا أخطو بحذر وتوجّس بين الكراكيب وبرك الطين المبلولة دائماً، أمام ثلاث غرف متتابعة، أبوابها مفتوحة عن بوابير الجاز التى تتقد وتنفح تحت الطبيخ والغسيل، والستات اللاتى تربّعن على الأرض بلحمهن المنفرط وهدومهن القليلة المفتوحة عن أفخاذ مدموكة وصدور محصورة منبعجة أو متهدلة ساقطة فى أفواه الرضّع، حتى أصل إلى غرفة خالتى - خالة أمى - لبيبة، فى آخر الحوش، جنْب السلم الحجرى الخارجى، الذى نصعد منه

إلى سطح البيت، أنا واسكندرة، ورياتي معنا، أحياناً، أخوها زكي، صغير الجسم، صموتاً، وثاقب العينين. نترجى خالتي لبيبة لتعطينا مفتاح باب السطح، فتخرجه لنا من تحت رأس المرتبة على سريرهم الوحيد، وكان مفتاحاً حديدياً طويلاً له رأس علي شكل حلقة مفرغة كبيرة.

كان السطح هو الذي يسحرني.

كان مسوراً من الخارج بالحجر، وطويلاً، وله باب رقيق الخشب باهت اللون نفتحه بالمفتاح الصدئ الكبير. وعندما يصِّر الباب، وينفتح، تفاجئني، كلّ مرة، تكعيبة العنب تغطي السطح كله، مورقة، ومظللة، وبليلة الأنفاس. والهدوء الساري، وخفوت كل ضجيج، والبلاط الأبيض النظيف ليس عليه الا ورق عنب جاف ساقط وجذاذات رفيعة يابسة من فروعه وتراب خفيف مكنوس. والنور تحت التعريشة اللفاء المتمددة خفيف كأنه خمر، وعِطر الخضرة. وكانت رقرقة الهواء بين أوراق العنب المتربة قليلاً، المتدلية من التعريشة، واهتزاز حلقات الضوء المستديرة تلعب بها الشمس على البلاط الأسود بين الظلال الصغيرة المتراوحة، كأنها رنين موسيقى خافتة من أصابع كريستال بللورية طويلة متأرجحة، وفي آخر الصيف أشم سُكر العنب الذي يستوى، مترعاً بعصارته، على مهل.

كانت اسكندرة تأتي إلى بيتنا، قبل الأعياد وقبل رفاع الصيام،

لنشترى من وابور الطحين الذى أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد، تصنع منه خالتى لبيبة الفطير الفلاحى المثلث على مرق الوزة أو ذكر البط. وكنت أصحبها إلى الوابور أساعدها فى شراء وحمل الدقيق، وأكون معها.

كان هذا المطحن يختلف عن مطحن راغب باشا الذى بعد الكوبرى.

هنا كنا ندخل، أنا واسكندرة، من فتحةٍ صغيرة مربعة متطوعة فى جسم الباب الخشبى الضخم، نعبر فوق عتبة رخامية مرتفعة قليلاً فكأننا ننزل منها إلى عُمق فسيح متموج الهواء معتم قليلاً، بعد الشارع بنوره الحاد، نجد أنفسنا فى باحة عريضة عالية السقف، خافتة الضوء، يسبح فيها رذاذ الدقيق كأنه ضباب جاف وشفاف ورقيق جداً، وأرضها سوداء صلبة الحجر، ويقف، فى مواجهتنا، فى آخر الباحة، حاجز عالٍ من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تماماً للشق المفتوح على الشارع.

ووراء السلك فى حزمةٍ من نور الشمس تسقط من فتحةٍ مدورة مغطاة بالزجاج فى السقف، تقوم الأقماع الحديدية الهائلة، جنْبها سلالم معدنية مكشوفة مثبتة إلى الحائط بقضبان أفقية. تنصّب الأقماع فى مواسير أسطوانية تهتز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التى تدخل فجأة من شقوق ضيقة مفتوحة على مقاسها تماماً فى حائط حجرىٍ، تقع وراءه منطقة المحرّكات الخفية والمحظورة علينا. فى المطحن

كله تتجاوب أصوات الدقّ المتواتر الذى يأتى من وراء الحائط، منتظماً، بقوة قلبٍ معدنى هائل، وخشخشة غربلة مستمرة متراوحة الايقاع، ونشيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء الساقط على شطٍ خشن الرمل.

كان بيتنا الذى أمام هذا المطحن فى شارع البان مزدحماً، ولكنه واسع فسيح ملئ بالحركة والحياة.

لوحّت لى وجوهٌ الميتّين بأيديها المنفصلة عنها من فتحات الرخام العالية، ولكنى كتمت روعى باحتمال طفولىّ مازال معى، ولم أصرخ. بل أمسكت بيد أمى، بشدة، وهى تسير بسرعة ورشاقة أمام مبنى الملجأ اليونانى الذى يبدو خاوياً تضرب الوحشة جدرانه.

سحب بيضاء ذيول مفرودة لطاووس أبيض في السماء.

سماء الروح التى لا تريد أن تنطفئ.

تتلقى هذه السحب، دون توقف، طعنات ثابتة من الأعمدة الخرسانية التى تنتهى بشعث من الحديد المسلّح متلوياً ومعوجاً، ضارباً فى الزرقة البحرية الساجية لهذه السماء الاسكندرانية التى لا مثيل لها.

ظلت هذه العمارة سنوات لم يكتمل بناؤها، أوشك صدأ البحر أن يأكل قضبان الحديد الناتئة من أعمدتها وعوارضها الأسمنتية الضخمة المتقاطعة، التى تذهب الى بعيد فى غور ظلمات العمارة الداخلية.

نشط العمل الآن فيها، فجأة قلت لنفسى، وأنا أمر على

الكورنيش، عند جليم، وهواء البحر القوى يصطدم بوجهى. ضممت ياقة معطفى الواقى من المطر حول وجهى متلمساً دفء الفرو الداخلي، والرذاذ يصعد اليّ من خبط الموج على الصخر وكتل الحجر الرازحة مغطاة بالطحلب المبلول داكن الخضرة، تحت.

كان الصبح العالى مختبئاً وراء السحاب الأبيض، مازلت أحس أنفاسه، والشمس تتخايل تخترق الحجاب ثم تتوارى. أحس دفق دماء الشتاء الصاحية في جسمى سعيداً سعادة فيزيقية بحتة، بمجرد المشى السريع على الكورنيش فى مواجهة الهواء، وتشوفاً للقاء أوديت فى سكارابيه.

وأنا مع أوديت على حافة البحر أترشف كأس «البوردو» الأبيض، النبيذ مصفّر، شاحب الزعفرانيّة فى بياضه، أعرف الآن فى فمى طعمه الحّريف ناعم الحدّة، وأتلقى طعنة نظرتها، مكبرحة الغواية، تقول بهاتين العينين المصّريتين اليّ، مالا تريد النطق به.

كنت منذ أسبوع، أسبوعين يكن، فى قسم باب شرقى أستخرج ورقة الفيش والتشبيه لتقديمها للنقابة.

ولما خرجت من مكتب الضابط النوبتجى أحسست بخجل قليل من نفسى. البيه الصغير له معاملة خاصة، بينما طابور البطاقات الشخصية يمتد ويتلوى أمام الشّباك بقضبانه وفتحته الصغيرة، وفوقه لافتة ورق أوشكت أن تبلى، بخط رقعة: المملكة المصرية، مصلحة العمل. ووراء

القضبان يجلس الشاويش وراء ترابيزة موضوعة تحت الشباك مباشرة، مكرّمة بالاستمارات والطلبات على عرض حال دمغة والبطاقات الجديدة. عرقان، مكدود، ضيّق الخُلقْ، عليه أن يتعامل مع طابور صاخب بالكلام والاستعجال والتزاحم والتدافع الخفىّ تحت ستار حلو المجاملات. كان القانون رقم ١٢٣ لسنة ١٩٤٤ قد صدر وابتدأ تطبيقه منذ قليل، على الكافة أن يستخرجوا بطاقات شخصية: الصعايدة الخالدين، عمال البناء الذين كانوا عندئذ أغلب من الغُلب، لم يكن لهم وصف الا أنهم يشتغلوا فى الفاعل، حفاة أقدامهم العارية سوداء تقريباً، مشققة جانية الجلد على أسفلت القسم، والبياعين وأقفاص الجريد والمشنّات المرصصة بالفاكهة والخضار، موضوعة على الأرض على جنب - بعد إذن الشاويش الواقف على الطابور ومعه عصا خيْزران قصيرة، وقد تكّرم بالأذن، بعد الشخط والنتر حسب الأصول المرعية، وبعد الفتة بنص فرنك التى دست فى اليد الغليظة، والصنايعية بعضهم بالعفريتة المزيّتة وبعضهم بجاكتات كاكى من «الأورنس» الانجليزى، والكاب العسكرى الطرى المطبّق دون شارات - هل قايضه أسير طليانى من وراء سور المعتقل بزجاجة سباتس؟ - والأفندية بالبدل الكحيانة والطرابيش التعبانة - ليس لهم واسطة كما كان عندى من الأستاذ باسيلى المحامى بالنقض، الا واسطة ربنا وحده.

ولكن ما يدهشنى هو هذه المرأة فى الطابور - لم تكن موضة الرجال فى صف، والنساء فى صف منفصل، قد أُخترعت بعد، وكان كل واحد

ودوره، أو شطارته. كانت تدافع وتزاحم كالرجال، جلابيتها السوداء تشى بأصلها، سمراء محروقة صعيدية الملامح وصلبة قائمة العود، يبدو أنها لن تنكسر. وفى يدها - التى أدهشنى صغرها ورقتها ورهافة أصابعها على ما يبدو فيها من جفاف واضح - وَلَدٌ. قلت إنه، من جسمه، فى نحو العاشرة مثلا وان كان وجهه - الذى يطابق وجه أمه تقريباً بدكنته وصفاء خطوط عظامه تحت البشرة التى ما زالت نضرة ترفُّ بماء الصبا - يبدو أكبر عمراً. وفى عينيه نظرة اقتحام، وشجاعة، وصبر.

كانا قد سارا طويلاً، فى الشوارع الواسعة الأنيقة

جَلسا أمام المتحف، على مقعد خشبى متين مدور الظهر، فى آخر المساء البطئ يتلبّث ضوؤه الكابى على حافة السماء التى تطعنها روافع بُرجيّة متقاربة ممدودة الأذرع، وسقوف مثلثة يبهت لون قرميدها الأحمر الداكن. السلالم الرخامية العريضة شاهقة ولكنها مبرية قليلاً وعاجية البياض، ترتفع أمام أعينهما، بمهابة راسخة وثابتة وناعمة معاً، تحت الأعمدة اليونانية المتقنة الرشيقة، تيجانها مسودّة النقوش، وفى مواجهتها صف البيوت الوقور العجوز الراضية بنفسها، نوافذها المتماثلة الطولية مسدلة الستائر، الشارع خاو تمر به سيارات صامتة قليلة، والنور الكئيب يهبط عليه. عصافير آخر النهار تتواثب كبيرة ثقيلة رمادية الصدر على السلالم الرخام وعلى تيجان الأعمدة، والحمام ينقضّ نجأة من على سقوف البيوت ليلقط فى أول العتمة حبوباً غير مرئية تحت أشجار الساحة الصغيرة الكثيفة المورقة.

وقد صمتا، كلاهما، فلم يعد هناك الآن ما يقال. لكنهما كانا معاً في داخل هذا السحر الصموت، نور آخر المساء يبعث فيه مرة أخرى هذه الأشواق الغريبة التى لا يفهمها. نوستالجيا الصبا وسنوات أحلام المراهقة داخل غرفته الضيقة ببيتهم القديم فى راغب باشا، ضجيج الحارة المزدحمة الحيّة قد خَفَت الآن، ونافذته تطل على منور داخلى يقتنص قطعة من سماء الأسكندرية التى يزداد عمق زرقتها فى نور هذا الغسق الذى سرعان ما ينتهى. كان عندئذ يقول لنفسه أشعار الشباب رتيبة الأيقاع، حزنها طفلىٌ عذب مهدهد للجراح الأولى البريئة الساطعة. وكانت الدموع حلوة ومرضية، أشواق هذا المراهِق الذى لا يعرف أبداً كيف يبلغ سن الرشد تحيط قلبه بنفس قبضتها القديمة، حنَونٌ وتعتصر أحزاناً صعبة. تأتيه من عبر مسافات السنوات صرخة كروان الغروب المفاجئة الثاقبة تشق السماء غير المرئية كأنها سكين. بلا إجابة. وهو يرى حمامة رصاصية اللون منتفخة الصدر، بطيئة، تثب بقدمها الواحدة المفلطحة التى ينبت لها ريش أبيض صغير، على رخام السلالم، وترفع من على الأرض قدمها الأخرى التى بلا جدوى، مكسورة. وهى تعرف بلا شك الى أين تسير بخطاها المتقطعة الصبور العنيدة. وقال لنفسه: لا تراعى. دعك من هذه العاطفية. هذا سهل جداً. حمامة مكسورة القدم؟ وما فى ذلك؟ أظنك ترى فى ذلك أليجوريّة ساذجة ما؟ ألا تنتهى من الاستعارة والتشبيه؟ إنقطعتَ عن كتابة الشعر من زمان، أليس كذلك؟

العصافير والحمام تدور فى حلقات متجمعة، وتدفّ نجأة ثم تطير كالسهام الى رؤوس الأعمدة، ولفائف ورق الشجر، لم يعد يرى، من بينها، حمامته الثقيلة المليئة الصدر.

وعندما خرجا الى ميدان المحطة، فجأة، شاسع الأتساع، كان الهواء يهب بهما بارداً وعنيفا، ويتطاير بأطراف جيبتها على ساقيها المتلئتين، ويحسه ينفذ الى صدره منعشا ولاذعاً فى الوقت نفسه، فاقتربا وتلاصق ذراعاهما المتشابكتان وهما ينزلان بسرعة الى الشارع العريض المستقيم وسألها: نأخذ تاكسى؟ قالت: لا. يا خبر، هل أنت نعسان؟ قال: أبداً، وضحك بسعادة وقال: لم أكن يقظاً أبداً مثل يقظتى الآن. قال: وليست القهوة هى السبب، على الأقل ليست وحدها.

وهى لا تتوقف عن الحديث وهما ينحدران فى الشارع بخطى واسعة وتحكى حكايات. وقالت له كيف كانوا ثلاثة من شباب الحى فى المنيرة يحبونها جميعاً فى وقت معاً، وتذهب معهم الى السينما والى نادى الجزيرة فى عز مجده القديم: كنت صغيرة جداً فى العاشرة، يمكن أو الحادية عشرة، يعنى عيّلة، ما أزال، وليس هناك شئ، وهى تمر بيدها الأخرى، بخفة، على صدرها الناهض المستدير الذى يبدو متوهجاً فى الليل المنير تحت البلوزة الخفيفة فى الهواء البارد، وتضحك ضحكة قصيرة خافتة. قالت: عندما ذهبت للمدرسة الداخلية هنا فى اسكندرية كانوا يرسلون لى الخطابات، ثلاثتهم، سراً، عن طريق صديقة مشتركة

تسافر للقاهرة كل أسبوع. لم أكن أنا أسافر للقاهرة الا كل شهرين أو ثلاثة. تعرف، أبى كان مشغولاً بحكاياته ومسئولياته المتعددة، بمغامراته التى لا تنتهى، مع القصر والجيش والسياسة والفن والنساء ورجال الاعمال.

«أمرّ على الديار، ديار ليلى ...»

فهل تنكرنى الديار أم يستخفى بى عرفانها؟

سماؤها بلون الكوبالت الأزرق العميق فى الغسق. لماذا يسحرنى لون الغسق؟

أنذير الغياب والفقدان؟

أم نعومة التسليم لضياع الجسد الوشيك؟

أسمع سعف النخيل السلطانى على جانبى محطة الرمل القديمة، يهفهف. ما زالت تخايلنى حتى الآن. هذه المحطة القديمة، وكشك ناظر المحطة الخشبى المسقوف بالقرميد الأحمر الداكن، فيه دفء كفاءة مفقودة، وأحترام الدقّة التى ولى زمانها.

أجلس في «كازابلانكا» فى الدور الثانى، وراء النافذة الزجاجية العريضة. الغيم فى سماء الصبح البدرى ينزلق فوق البحر البعيد، أنتظر بقلب واجف أن تعبر ليلاى.

ليلاى صغيرة الجسد، موسيقية الخطو، مرهفة الخصر حتى تكاد تطوّقها أصابع يدّى، فستانها الأصفر الفاتح فريد فى لونه ونسيجه وفى

أناقة انسيابه على القدّ الرشيق البضّ معاً، ينوس على الساقين بساتيهما المتلئتين، كاملتين فى دقة سحبتهما، كاملتين فى دوران خرطتهما، إيقاع مشيتها عندئذ يتردد الآن في ساحة روحى التى أظنها قاحلة خاوية حيناً، وأراها حيناً مزدحمة مثقلة بكراكيب الذكريات وأنقاض السنين.

أما زلت أنتظر عبورها؟

وهى المقيمة.

لست واثقاً أننى سوف أرى الآن مَنْ تعزّ رؤياهن، بل تستحيل.

بل أعرف أن ذلك لن يحدث.

أهذه شذرات ممزقة أسمع حفيفها من الداخل ولا أرى لها أثراً؟

مادلين، وسيريام، بشعرهما المنسدل الطويل، متطابقتين تقريباً فى مشيتهما شبه الآليةّ التى تثير الجسم. ستيفو ذات الثديين الهائلين التى كان يحبها فريد اسكاروس، وظل يذكرها فى المعتقل وهو يمص سيجارته الأبدية بين شفتيه الطويلتين الشهوانيتين. نيتسا تافانيرتيس ملفوفة فى ثيابها المحبوكة دوماً، أنيقة مفصّلة الأوصال، ولدنة ولها مهابة الطول المشوق والجذية الخالصة والأنوثة المرضوعة تحت تحُكم عقل دقيق الحسابات. ثم أرتميس - آه من إلاهة الصيد الجامحة الفاتنة - توقع بفحول الرجال، هكذا فى خطوها، دون اهتمام، دون أن تلقى بالاً.

ايماءات الروح المبدّدة، تسقط أمامها أطلال البوابات الحجرية التى لم

توصد قط، لكنها لم تكن قد فتحت قط.

أهذه ديار مازلت أرتادها، أم لم أعرفها قط، ولم تكن؟

وهل خطت رجلاى حقاً على هذه الساحات المظللة بوارف الأشواق، أم هى مواقع أضمرها بعد أن حددتها الأطياف الأولى، لن تبين، لعلها لم تقم، لكنها تعود، لا تتوقف عن مراودتى ومراوغتى.

أهذه ديار تنفينى، لأنها هى منتفية؟ أم تتغافل عنى، عمداً، تستنفرنى؟

زاد قديم محفوظ، ومع ذلك لاتبلى بكارته، يتقطر، يغذو النفس العطشى التى مهما رويت تظل صادية.

أيامها، بعد اندلاع الحرب بقليل، وبدء الغارات، كنت أعرف جان جاك روسو، كتبت عن جنيات وحوريات شيكسبير فى «العاصفة» وقرأت عن داروين وجوليان هكسلى، وتغنيت بأشعار كيتس وشيلي، وعرفت المعلقات والكامل والعمدة والحماسة، ودرست مستنسخات عن لوحات بنتوريشيو ورافاييل وروبنز، ولكنى لم أكن أعرف سوق المسَلة.

قالت لى أمى: تأخذ الترام من عندنا أمام البيت، يمر من راغب باشا حتى شارع القديس ترفيق، ثم النبى دانيال، ويحوّد فى السلطان حسين حتى يدخل على الشارع الذى نرى البحر فى آخره، شارع المسَلة، وتنزل فى المحطة التى قبل محطة الرمل.

لكنى تهت - أو سرحت، لا أعرف - وفضلت فى الترام حتى شارع

سعيد، ونزلت، وسألت، ورجعت. وعرفت أن شارع المسلة اسمه الآن شارع صفية زغلول، وتذكرت وجه أم المصريين كما كنت أعرف صورته من المجلات القديمة، الوجه المكتهل الصبوح الوديع.

لماذا أحتفظ حتى الآن بهذه الأوراق التى اصفرّت الآن ورقّت، فيها هفّات النزوات والأحلام القديمة التى لم تندثر قط، هبّات شهوات الصبا الأول وغياباته، خيالات جسدانية دائماً؟

من شارع صفية زغلول دخلت من ممر جانبى صغير جنب آخر محطة قبل محطة الرمل، الى سوق المسلّة.

بدهتنى روائح السوق النفاذة الفاحشة: اللحم الأحمر المشبوح مصقول الجنوب وطرّى، والأضلاع المكسورة بالساطور بيضاء حادة البياض، زبل الطيور الطازج والقديم، نفح الفراخ المتميز الحريف. وكانت الديوك الرومى تتوقئ فجأة بصوت ثاقب مرتفع، سيقانها مربوطة بالأقفاص المستطيلة المصنوعة من جريد النخل الرفيع، بقضبانها المتوازية المتقاطعة، بينما ترتفع أعناقها السوداء باللغد الأحمر المترجرج والرؤوس مستدقة المناقير بشكلها البدائى الموحش، صوصوة الفراخ والكتاكيت البلدى وهديل الحمام وانفلات الأرانب فجأة من طرف إلى طرف فى سجن الأقفاص.

السوق يتردد فيه الصدى، ويتجاوب الكلام والصياح، لأنه عالى السقف وحيطانه مكسوة بالقيشانى الأبيض النظيف.. وجدت الجزارين

فى داخل أقفاص زجاجية أخرى، تحت اللافتات المكتوبة بخط ذهبى على أرضية المرايا: «تاوضروس وأبناؤه، لحوم خنزير» ورأيت وجه أبى من وراء الزجاج.

كان جالساً الى مكتب صغير جداً تكدست عليه دفاتر الحسابات الضخمة، بورقها السميك الذى يبدو، حينما يغلق الدفتر، مقعراً الى الداخل، بتقويس منتظم، ولونه أزرق خفيف فيه خطان رفيعان جداً بالأحمر.

كان طربوشه مازال مكويًا حادّ الكيّة، وجهه الناحل بعظم خديه الناتئين، أبتسم لى، بابتسامته العذبة. وكان مندى بعرق خفيف، ولكنه كان يلبس ملابسه الكاملة، القفطان الحرير السكروتة والبالطو الجبردين. أسند عصاه الأبنوس، ذات المقبض العاجى الذى على شكل رأس صقر، الى المكتب الصغير، وكان يراجع، ويحسب، رَصّةً من الأوراق والفواتير وبوالص الشحن وايصالات بضاعة السكة الحديد وحسابات تجار الجملة.

قال لى: ربنا يسهّل ويعدلها، الليلة إن شاء الله ع العشا تكون فُرجت بإذن يسوع، ونجيب الأجرة.

ولفّ لى حتة كبيرة لدنة في ورقة لحمة: قول لستى وستّ الكلّ تشوّحها وترضيّها مزّة ع العشا.

كان أيامها يقضى النهار بعد النهار يلفّ فى السوق، من غير شغل. فإذا جاءه الرزق من ربنا اشتغل، باليومية، بحسابات أولئك

الجزارين أو تجار الطيور والسمن والحبوب والبيض، بلدّياته أو زملائه السابقين من قبل أن يخسر كل شئ فى الأزمة. بل كان أحياناً يعمل بالساعة، أو بالشغلة المحددة، ليرجع لنا باللقمة، والمصروف. وكان دائماً راضياً ودمثاً، ويشكل أو بآخر يدّبر لنفسه كأس الكونياك أو العرقى، والمزّة، يشرب مع أمى، ويعزم علىّ وعلى آخواتى، أما أجرة البيت ..

كم تحملنا يا أبى - أنت، وأنا فيما بعد - من أجل لقمة العيش، بشرف، حتى يعيش من نحب، فقط يعيشون، ولكن بكرامة.

وكم أنكرت نفسى - فيما بعد - بوهم هذا الشرف وتلك الكرامة التى يظلّ يمتهنها الخنازير.

هذا الوهم الذى لا ثمن له فى السوق، وربما لا محل له فى هذا العالم.

بعد أن صُلب المسيح، وطُعن، وروى بالخل، وألبس تاج الشوك، وسخر منه العساكر الرومان وسفلة المتعصبين - وغُفر لهم - مَنْ تلك التى تلتقه بعد أن أنزل من على خشبة التعذيب؟

المجدلية؟

أم مريم الأخرى؟

من تلك التى تمسح ساقى المجهدتين بشعْرها العطر الغزيز؟

«الليل مملكة البوم والفئران والنساء».

ضحكات الصبيينْ الوحشية تقريباً، فى فناء محطة مصر الواسع

الفارغ الموحش، تتردد لها أصداء اذ ترتطم بالسقف الزجاجى العالى والحيطان النظيفة، الساعة الرابعة وقطار سيدى جابر يدخل على القضبان اللامعة، صفيره يدّوى بمهابة، وترحب به صدورنا، ونصعد، ومعنا بنات مدرسة نبوية موسى الراجعات الى الرمل، والطلبة يتبعونهن بأعين لامعة مكتومة الحيّرية، وهمسات المعاكسة الخافتة المؤدبة الحييّة تقريباً.

قال لى رفيق: ولَهْ .. أنا عايز من ده!

فى أول بعد الظهر، كان فى الشارع الظليل تحت شرفاته وبيرته العالية الشبابيك نفحة من هواء البحر المبلول، وصمتٌ بدء القيلولة، وكانت دكاكين النجارين الذين يصنعون نسخاً من طرز الأثاثات القديمة، وبائعى الفحم البلدى الهش، والمقاهى البلدية الصغيرة، قد هدأت كلها. وقد خلا الميدان الصغير الذى تحيط به أسوار ضخمة حول ورشٍ وكالات السيارات، تطلُّ عليه من الناحية الأخرى شرفات لها أعمدة حجرية صغيرة متقاربة، كالسيقان السمينة من غير أقدام. ومرا بجانب جدار سينما مترو المصمت بأبوابه الحديدية المغلقة، واختارا مائدة صغيرة فى ساحة منتهى إيليت المكشوفة، وأمامهما على الرصيف الآخر محطة البنزين ومحلٌ لرولانترس وباب ماتشا لرتشيا الرشيق ونوافذه الزجاجية المسكنة بأرستقراطية خلف الأستار المسدلة.

قال لها: إيليت هذا كان مجرد كشك لبيع الجيلاتى، حينما كنت فى الثقافة العامة سنة ١٩٤١، قبل التوجيهية. وكنا نخرج من العباسية

الثانوية، أنا ورفيق صاحبي، في طريقنا لمحطة الرمل، أو الى البحر، في أول الشتاء، في شمس أسكندرية الناعمة الدفء ونقف هنا ونأكل جيلاتي. وعندما تمر أمرأة ممتلئة بالرشاقة والانوثة معاً - كان معظمهن عندئذ يونانيات أو ليڤانتيّات - كنا نقول لأحدنا الآخر «ولّة .. نريد من هذا ..» ونأخذ جيلاتي فيما يشبه الطقوس ونضحك. وكان الخواجا بنفسه صاحب المحل هو الذي يصوغ الكأس المنعشة الباردة باللبن والشيكولاته أو الفسدق، وكانت كئوس الجيلاتي مدورة وصغيرة ومصنوعة من ألومنيوم مفضّض رشيق.

نظرت اليه وفي وجهها شُبهة ابتسامة لم تتكون بعد، ولن تتكون، وفي عيّنيها لا مبالاة.

طلب من الجرسون اليوناني صديقه القديم والضئيل القدّ، المحكوم في جاكتته السوداء الضيقة بإحكام أدب بائد ودماثة غابرة، بوجهه النحيل المثلث وعينيه التلتين الصغيرتين. وجاء طبق الجبنة المنوعة: الشرائح الصفراء الشفافة، والأصابع الكثيفة المحمرة، والمكعبات البيضاء المشققة الجلد، والسلاطة المرتفعة بكومة منسقة من أوراق الخس العريضة الفاتحة الخضرة، وأرباع الطماطم متقطعة اللحم نضرة ومتضرجة بدمها الصافي البهيج، وأمشاق الجزر الطويلة المستدقة الأطراف بلونها الرُمّاني الفاتح، وفي قلبها استطالات لُبّها الهش الناعم بلونه الخشبيّ الأبيض قليلاً، وعليها كلها نَدَى الزيت النقّي، ومعها زجاجة الكيانتي المنتفخة البطن، زجاجها الرفيع تحتضنه برفق حصيرة رقيقة من القش المجدول الطري النسيج.

كانت شمس بعد الظهر رطيبة بنسيم البحر، وكانت صفوف التلميذات والطلبة والموظفين والموظفات تمر من أمامنا فى اتجاه محطة الرمل، وعربة حنطور تنطلق فجأة بسرعة، والعربجى قد وقف نصف وقفة على مقعده، يتحكم فى الحصان الأصهب الثقيل الذى يجرى فى مرح وقد وجد لنفسه حرية مؤقتة فى قلب شارع صفية زغلول. وكان تحت أقدامهما على الرصيف جُزُر خشبية مرفوعة مدهونة بالأصفر وعليها أصص نباتات الصبّار الغضيرة، قائمة ومنتفخة وشائكة، داكنة الخضرة، تنفجر أجسادها بحشوها المزدحم بالعصارة المكبوتة، ومع ذلك فقد كان شوكها رقيقاً ليس فيه شرّ - وكان على فمه دون غرابة حس الشوك الدائم لا يخدش شفتيه بل يهدهدهما.

سقط معه مصباح الجاز القديم الطراز، بزجاجته المنتفخة البطن الطويلة العنق، وهو يسقط على الأرض، دون صوت. هل هذه هى الحصيرة الصفراء القديمة التى كانت على أرض غرفته، فى بيتهم فى غيط العنب، فى سنين طفولته؟ يداه تتشبثان بالهواء، وقد انكسر بطن الزجاج، وتطايرت شظاياه، خرساء، على الحصير. وسال الجاز ببطء. واسودت بقعة متطاولة الاستدارة على تنائل الحصيرة الرفيعة المضفورة برقة، والممسوحة من طول مسّ الأقدام وضغط الشلت ووسائد الجلوس الطرية. ارتطم وجهه بالألياف الناعمة المتلاصقة. ألم مفاجئ يطعن صدره وهو يفتح فمه المصطدم بالأرض فلا يندّ عنه صوت. أجنحة متسعة المدى

صلبة الريش تصطفق علي جسمه لا يسمع لها خفيفاً. وتدق الحيطان التى تضيق بسرعة وتطبق عليه. النار البطيئة تسرى بلون أحمر فاتح به حواش متراقصة تميل الى لون قشر البرتقال. ألمٌ لا اسم له ينفضه ويرجّه كأن أوصاله كلها تتكسر وتسقط أحجاراً حادة مشعثه الحواف، وكلاّبات التمزق تغوص فى لحمه الحيّ. يخبط بتبضتى يديه على الأرض خبطات لا يصدر عنها أدنى حس ولا صدى، عشواء متلاحقة فى تصميم لا يجديه فى شئ. زجاج النافذة يتزعزع ويصدر عنه فجأة صوت ارتجاج متصل. أول صوت يسمعه بعد الصمت الطويل، ويسقط مرة واحدة فى دوي متقاطر جارح الأصداء. الأجنحة الضخمة ترفرف بخشونة حول رأسه وتصطفق بدروع وثيقة حديدية الصليل، تتقعقع. والرمح الطويل يغوص فى سماء طينية. أيراق النذير فى نواحٍ يأسٍ تسقط فيه النجوم بين يديه وتتفتت بين أصابعه. ابتسامة المتعة فى وجهها الجميل تتفتح فى قناع نحاسيّ صدئ، يتمدد وينسحق تحت الدروع. أمواج بحار العالم لا تمحو المرارة التى في نفسه، ولا تمسح الألم الذى تتفجر به ضلوعه. زلزلة عظيمة تطرح به، وتتقاذفه حيطان الغرفة الضيقة التى احتوت السماء والأرض وقد أصبحت كلها خراباً شاسعاً تهب فيه الريح. جدائل شعرها العسلى تتلألأ من الشمس، والقمر بعيرنه الخضر يتقطر دماً، أحجار الدموع تنحدر من عينيه.

الأختام السبعة مغلقة لا تنفك فى هدير الزلزال، ولا تفضها قبضة

يده التى ما تنى تخبط على مغاليقها. الفرس السوداء تشق السقف هاربة فى هزيم حوافر سريعة منتظمة الأيقاع.

يهتف بلا صوت فى عجيج الزلزال: يا ميخائيل يا رئيس الملائكة يا قائد المئين ...

ذراعاه تلتفان، باستماتة ويأس، حول أرجل مائدته القديمة التى طالما جلس اليها عَبْر سنوات طفولته وشبابه يدرس ويحلم. يرى بعينين لا تطرفان بلاطتها الرخامية البيضاوية، ويتشبث بسيقانها المعرجة المشغولة من خشب أسود نخر فيه سوس قديم تجويفات صغيرة غير منتظمة، والمائدة تترنح تكاد تهوى، ثم تستقيم فوق رأسه وقد ارتفعت ألسنة اللهب برشاقة ودفء تلعق الجانب السفلى الخشن الرمادى اللون من الرخامة البيضاء. ذراعاها الناعمتان الباردتان تحيطان بعنقه من فرق ارتطام الأجنحة الوحشية، فتهب من بينها نسمة راحة رخاء كأن ليس لها ثقل، يتوق لأن يمرغ وجهه المتقطع فى طراوة غرايتها. ولا يقول كلمات التعويذة النهائية التى تكرس سقوطه وراحته: «يا ساحرتى أنا أستسلم لك». فلذات أحشائه لا تُنتهب منها الكلمات. لهب كان لاهج مدمر، لوثة عذاب مسنٍّ من مسرح الألم، فقد عايشها طويلاً لا يمكن أن يعايشها دون عقاب.

فى زمن آخر رأيتك، رأيته تقمصاً لك، فى مثاله قديماً رغماً فى وقت معاً، على رمل المعمورة. وأمسكت بنفسى، فقد كان زماننا قد

انقضى. الجبهة الضيقة، واستدارة عظم الوجنة الدمث، الساقين العضليتين القصيرتين المدورتين، عاريتين تحت الفستان الصيفى الوجيز، بقدميها تفحصان الرمل الساخن بحركة غائبة، تحت الشمسية المائلة. وعينين ليساهما عيناك، وهما هُما مع ذلك، بخضرة عميقة داكنة تحفران القلب، كالمعتاد. ذهباً وسط الرمل الشاطئ الأبيض العكر بنفايات الصيف الذاوية الهشة المبرأة : أعواد بوص لوحتها الشمس وذراها الهواء، وأكياس بلاستيك ممزقة تتطاير وتستعصى على الذوى والتفتُّت، وقشر بطيخ جديد مدفون نصفه الأخضر فى الرمل. هذا الجسم الشاب الفتّى فى صباه الجديد لم أعرفه فيك، حدسته فقط تحت لحم الجسد الذى عَركته وملأتْه وانحسرت عنه الشهوات والسنوات. وهذا الشعر القوى الوفير الخشن الملمس، تحت الشمس، أعرفه، بحرافته ووحشيته ونعومته وإثارته. وفى أصابعى، وعلى شفتّى، بقية من ملمسه. هذه البنت التى نمتُ ليلة فى فراشها العذرى الخالى الذى كان يحتفظ بشبهة من نكهة جسمها. هذا المثول الفريد يكرّر مثالاً غابراً ربانياً فى عالم مايزال، تمخضنى ظلمات حبه واختناقات العشق فيه. وقد انقطعت عن عالم البحر والرمل والصيف ونفايات البورجوازيين الذين يقطعون على شاطئ المعمورة ساعات نهار ضجرة ومضجرة، تحت الشماسى الملونة، على الكراسى القماش المبلولة بين أصوات الكاسيت من المسجلات، ضائعة مبحوحة فى هواء البحر ووشيشه المضطرد، والأولاد

يملأون الجرادل البلاستيك بوشل قليل من ماء يذوب سريعاً في حفر من الرمل قليلة الغور، وباعة الصحف واللب وحلوى السوداني والخبز المسَكَّر الرقيق، والعقود الصَدَفَ، وتفاهات الحاجات المنزلية للمصيفين، الأكواب والأواني والمفارش البلاستيك السخيفة الألوان، وشمس الظُهْر القاسية على أجسام ملقاة في الرمل وفي الظل وفي الماء تبتل وتحترق ببطء وسأم من غير راحة ولا متعة. وأنت - هي، وحدك، الى الوراء من سيف البحر وصفٌ الشمسيات، بعيداً عن. زحمة الشاطئ الذي تأكل رماله أمواج عكرة مزبدة ومستانسة، فقدت عرامتها وسطوتها، كأنكِ قد شغلت سياقاً زمنياً جديداً وأبدياً. ضربت حولك هالة غير مرئيّة من شمس خفية تقطعك عن العالم وتجعلك بؤرة العالم، لأنك هناك تقمّص عائد الى قلبي ومنبثق منه، متعين وحده من غير وهم، فلا يمكن أن يُنَال، بل لا يمكن الوصول اليه. كم يمكن أن يكون الحبُ موجعاً.

عرفت هيلين موسى، ولعلني أحببتها، وكانت طفلة، عندما كنا نزور خالي فهيم في شارع جانبي غير مرصوف، تحفّه الأشجار العتيقة الضخمة من الجانبين، متفرع من شارع الجمرك.

وكانت سرايتهم على قمة هذا الشارع، عند التقاطع، تجاور الحيط في الحيط بيت خالي - الذي لم يكن خالي على الحقيقة، بل قريب أمي قرابة تعود الى عائلة جدتي في شبين الكوم. ولم أستطع حتى الآن أن أتبين هذه القرابة على وجه الدقة. وكنا نزور خالي فهيم في عيد الملاك

ميخائيل، لنهديه أقراص الملاك، التي تعملها لي أمي وتدهنها بزيت السيرج، وتضغط على العجينة بالخشبة التي فيها رسم صليب وكتابة بالحروف القبطية. وعندما تخرج من الفرن، هشة، مقرمشة، فواحة، محفورة بالرسم والحروف الغائرة في لحمها، عندئذ أعرف حقاً فرحة العيد، عيدي الخاص. ولست أنا مع ذلك ميخائيل، لا على وجه الدقة ولا - حتى - على وجه التقريب.

كانت سراي آل موسى تقوم، بمهابة ومناعة، وراء سور حديدي عالٍ مشغول، تنتهي عيدانه الرفيعة المدورة بسهام مدببة مذهّبة، ويحفها النخيل السلطاني الشامخ.

كنت أراها عندما نذهب لخالي نهيم بعد الظهريات، تلعب بكرة كبيرة وتنط بمرح. ضفيرتاها الطويلتان تتماوجان على ظهر نستانها القصير الذي يكشف عن ساقيها الرفيعتين السمراوين، تحت نظرات - ورقابة - مربيتها التي تصورتها نمسوية مثلاً، في اليونيفورم الأزرق الفاتح والكاب الصغير على شعرها المقصوص وراء مؤخرة رأسها على شكل كعكة. فهل هذه صورة من الذاكرة المراوغة؟ أم صورة من فيلم من نوع «صوت الموسيقى»؟ هل أكرر الأكليشيهات المصنوعة التي تطبعها على أرواحنا شركات هوليود المتسللة؟ أم أنني أحتفظ بقسمات حيّة تومض في ليل الصبا البائد الذي لم ينقض قط؟

حكت لي - عند عودتها - بعد ذلك بسنوات - أن أباها كان على

علاقة وثيقة بالرسامين الأسكندرانية، على أيامه: أنجلو بولو، وكليا بادارو، وأرستيد بابا جورج، ومحمود سعيد، وهاجوب هاجوبيان، وانريكو براندينى، وسيف وأدهم وانلى. كما كان وثيق الصلة بالسيرياليين والتروتسكيين القاهريين: جورج حنين، ورمسيس يونان، رنؤاد كامل، وأبو خليل لطفى. وإيزاك ليڤى، وچو شلزنجر، وإيريك دى نيمش. كرّت الأسماء ع السبحة، تحفظها عن ظهر قلب، كما تحفظ التمائم والعزائم والرقى.

لكني لم أعرفه على وجه التحديد من بين جموع المعتقلين معى فى ١٥ مايو ١٩٤٨، فى أبو قير. لاشك أنني رأيته لكنى لم أعرفه وسط جماعات الماركسيين من كل جنس ولون من الأرمن والجريج الى المصريين الأقحاح، وكشافة الماپاى، وشباب صهيون، واليوغوسلاف الهاربين من حكم تيتو، والروس البيض. قالت لى إنه أفرج عنه بعد شهور تلاتل بعد أن رفض السفر والترحيل الى الخارج من المعتقل مباشرة، ثم اعتقله عبد الناصر مرة أخرى فى ١٩٥٦. ومرة أخرى رفض أن يوقع على كل أنواع الالتماسات والتنازلات والتعهدات، حتى رُحّل بالقوة الجبرية، ونقل من المعتقل الى الباخرة «الجزائر» التى حَطّته فى مرسيليا حيث منحه الفرنسيون اللجوء السياسى، ثم الجنسية الفرنسية.

قالت هيلين إنه عندما نزل الى رصيف مارسيليا، قال لها إنه لم يره من وراء سحابة الدموع التى لم يملك أن يحبسها. وإنه بكى مرة أخرى

عندما تلقى جواز سفره الفرنسى. قال لها إنه عندئذ فقط عرف معنى المنفى، والانتزاع عنوة من أرض الوطن.

هل هذا مشهد مؤثر متوقع ومنتظر فى هذا السياق - إن كان «مؤثراً» من الأصل؟ أم أنه قد حدث بالفعل؟

قلت: ما دمت أحكيه فقد حدث، بالفعل.

وكان ثدياها الصغيران ينسكبان، بحرية من ثوبها الواسع الفضفاض، عندما تنحنى ثم تعتدل على الفور، كأنها أحست أن هذا لا يصح أن يحدث هنا. وعندما تنحسر ملابسها عن ساقين طويلتين - مازالتا رفيعتين، ولكنهما امتلأتا الآن بشباب الأنوثة غير المتورّع وغير المكبوت - كانت تسارع بتغطيتهما، بحركة مألوفة عند معظم البنات المصريّات، وبالأخص الأسكندرانيّات.

كانا يجريان في المشهد الليليّ، يفتحان طرقاً لم تطأها قدم، بفرح الشباب الجديد.

الشارع الضيق الممتد يشرئب الى أعلى بقوة. ملوءاً بطاقة مكبوحة ولكن متأهبة. يتجهان ناحية البحر، يحدسان جيشانه وجلاله ومناعته، تحت .. أما الى يسارهما فيقوم سور معسكر مصطفى باشا، سداً مرتفعاً مصمتاً أحجاره الضخمة مغلقة على صرامة غير معروفة، على روح ثقيلة من نيالق الرومان الأمبراطورية فى نيكوبوليس القديمة، وعسكر بونابرت، ومدافع الانجليز، ومعتقلات الأسرى الطليان، وغسوض

ثكنات الجنود المصرية. لكنهما يجريان تحتها، نحو تنتُّع البحر فى نور الليل، يشقان الطريق الصاعد الطويل، هواؤه مبلول، الى نجوم قليلة ونصف قمر شديد السطوع. والى اليمين حدائق البيوت المقفلة بأركانها المتينة البناء وشرفاتها الحجرية، على الطراز الفرنسى النيوكلاسيكى، بيضاء فى القمر، وبرج كنيسة أنجليزية الطراز مفاجئ الارتفاع، من بين كثافة أشجار الكافور والنخل الهندى الملوكى بسيقانه البيض الرشيقة، ونباتات الخبيِّزى الأفرنجى الوارفة الغضة، تترامى على الأسوار الحديدية المشغولة بأناقة، ترمض من الرطوبة وتتنفس عَبَقَّ الخضرة الشتوية الغامضة.

عندما وصلا الى أعلى شهقةٍ فى الطريق وبدأ ينحدر تحت أقدامهما، ظهرت أمامهما، من تحت، رؤوس أعمدة النور على الكورنيش، مصابيحها بيضاء النور، ثمرات مستضيئة متقاربة على أغصانها القائمة الحديدية، تحيط بها هالات مدَورة مشعة من الرطوبة.

جذبته اليها فجأة، وهى تجلس على الرصيف بأحجاره البازلت الأسود المحبَّب الندّى قليلاً، وارتفعت ركبتاها فى جلستها، مدورتين عاريتين مشدودتى اللحم على عظام من جرانيت وردّى حيٍّ، وهو ينظر اليها، فى لحظة ترقند قبل أن يهبط الى جانبها. كان شعرها مسرّحاً الى الوراء، ممهداً، مبسوطاً على رأسها، ملتفاً بها. وجهها ناعم، وحاجباها دقيقان. من تحت عينيا المرفوعتين اليه، فيهما براءة واستغراق، تعبير أبيض مغسول طاهر، كأنهما تنظران الى شئ ما، ينبع من داخلها، رائع

وفسيح ولا وصف له، داكنتين الآن، شديدتى الاتساع والدوران. وعظام خديها رقيقة. وجه امرأة كأنها بنت، عذرى، حليبى.

وأخذت تغنى له، مرة أخرى، وفى داخل علاقتها به، همساً. أنفاسها مازالت متداركة، ولكن محكومة، بصوتها الخشن الجريح، له بحة لدنة: ياريس البحر خدنى معك أحسن لى، أتعلم الكار يوسع البال أحسن لى، خدنى، نوتى أشد البان، أحسن لى. وكانت يداها فى يديه عجينة متماسكة خمرانة، وغناؤها الغزل الخفيض قد ثبتت أنفاسه، تهدجه الآن ليس من الجرى بل من شوق جسدى فوار: يفوت علينا الهوا، يحايلنا، ونميل عليه، وتطير جدايلنا، يفوت علينا قصده يميلنا، وان مالت الدنيا ما يقدر يميلنا ..

قال: فى هذه القصة كلها، رومانسية ضرورية، قاسية، صلبة.

قال لها: كنت أراك تلعبين بكرة كبيرة فى حديقة بيتكم فى الجمرك، من وراء السور الحديدى ذى الأطراف المذهبة، و «نانى» ترقبك بصرامة، هل كانت فسرية؟

دهشت قليلاً - وسعدت قليلاً - عندما قالت لى أن أباها كان يأخذها - هى أيضاً - مع أختها الكبرى كاترين، الى المكس، كانوا يقضون اليوم فى الكازينو نفسه الذى كان يأخذنى اليه خالى ناثان، ربما قبل ذلك بسنوات قليلة. ذكرته - وهل ينسى؟ - بالنوافذ الزجاجية المربعة الكثيرة المطلة مباشرة على مرج البحر الصخرى المزبد. قالت إن زجاج النوافذ هذه كان يسحرها، سميكاً مضلعاً، حوافه مصقولة ترق

وتخف عند الأركان الخشبية الأربعة، حتى يمكن إن تدخل فى حزوز القنوات المحفورة لها فى الخشب. وقالت إن أباها كان يشوى البورى والبياس والجمبرى فى الفرن القريب، يمسح لحم السمك الطرى بالزيت، ويلفه فى ورق زبدة، بعد أن يتبّله بالبصل والملح والفلفل وطبعاً الليمون والزعتر وورق الغار، الذى كان قد أتى به معه من البيت. وأن السمك كان يخرج من الفرن طرياً وشهياً، تحت جلد قشرته التى كانت تقبّ وحدها سهلة الانسلاخ، كان لحم السمك أبيض خفيف الاحمرار، يشرّ بدسمه الطبيعى، نواح.

ضحكتُ للذة الذكرى، لذكرى اللذة البائدة.

قلت: هل نحن شركاء فى جريمة واحدة؟

كانا يقفان تحت عمود دقلديانوس، عمود السوارى.

قال لها: أنظرى الى هذا الجمال. كيف يمكن أن يكون الصخر وردة سامقة لا تنحنى، والجرانيت فيه شبق الجسد الغض المستدير؟

قالت: أليس من السهل أن نقول إنه بديلٌ قضيبىٌ؟

قال: سهل ولا معنى له. حذلقة أو سفسطة اذا شئت. لا. انما أنا أفكر فى روعة وبشاعة وحتمية آلاف، مئات الآلاف، من أجسام أجدادى الذى يقوم هذا العمود على عظامهم. هذا الجمال بكل قسرته، ذهبت أجسام الشهداء طُعماً له. هؤلاء الاقباط، بعنادهم العقيم، وأقول المجيد؟ ما الجدوى؟

قالت: الاستشهاد لا يبحث عن جدوى، بطبيعته.

قال: أما نحن فنبحث. نحن الذين لم نستشهد بعد. نحن الذين شهادتنا معاناة غير مسطورة على حجر، ولا مذكورة فى كتاب.

كان عنف ردةّ لطمة، ليست لها.

كانا قد ركبا التاكسى الأسكندرانى الأصفر الفيات القديم، بمقاعده الصغيرة المطوية، والحاجز الزجاجى العتيق فيه ثقب دائرىً يصل مؤخرة السيارة ومقدمتها، ويغلقها إذ يجرّ عليها نصف الفاصل المتحرك. ووضعت يدها تحت نخله، فأثارته. ودارت من على جانبيها أطلال كرموز وباب سدره وكرم الشقافة، الشوارع التى كان يعرفها فى صباه واسعة مورقة الشجر، يجرى فيها الترام مصلصلاً بجرس بهيج على الأرض المرصوفة بالبازلت اللامع الثقيل. أصبحت ركاماً من البيوت الرثة المتقاربة، وضوضاء المرور المتزاحم الضيقّ بالسيارات وعربات الكارو واللوريّات المثقلة ببالات القطن والمتجهة ببطء نحو مينا البصل والقباري. وتلاطم مواكب مختلطة من الرجال والنساء والأولاد، بالقمصان والبنطلونات والبيجامات والجلاليب والملايات اللف التقيلة والفساتين وقمصان النوم الخفيفة المتغضنة، باللاسات والمدورة البلدى والعمم والطواقى، بالشباشب والقباقيب والكمب العالى والزنوبة التى تطرقع على الأرض، والقليل منهم بالسراويل الأسكندرانى السوداء المنتفخة بفخر واعتداد.

نظر اليهما حارس الآثار العظمّى الرجه، بجاكتته الصفراء الحائلة وعينيه الملولتين المتسائلتين الضيقتين، من داخل ظُلمة الكشك الأخضر الذى تقشر طلاؤه عن الخشب القديم المتين - من أيام الانجليز - وسقفه الهرمىّ الذى تساقطت من جوانبه قوالب القرميد الأحمر الداكن. وأعطاهما تذكرتين، قائلاً: توريست؟ جايد، جايد، ولكام سير ولكام مام نيدوان جايد؟

قال: لا ياعم. صَلِّ على النبى. نحن أولاد بلد.

قال بخيبة أمل طفيفة، وسرور حقيقى مع ذلك: أهلا وسهلا، شرفتوا، زارنا النبى،

قالت له: تتصور، كان هذا العمود مسلة من جرانيت أسوان، أقامها فرعون من سلسلة الفراعنة التى لا تنتهى، أظنه سيتى الأول أو الثالث، لا أذكر الآن.

قال: كيف سوّى أجدادنا حدوده القاطعة المثلثة، وصنعوا منها هذه الاستدارة الكاملة النعومة، الكاملة الرشاقة، الكاملة الجلال؟

فى عاصمة العالم، مدينته المسحورة اليونانية القبطية، برهبانها، وتجارها وبهلواناتها، ممثليها ومغنيها وصنّاعها، بطاركتها وبغاياها، غوغائها وغوانيها وخوذاتها، مكتبتها الواحدة الوحيدة غير المتكررة وحماماتها بالآلاف، كنائسها السرية تحت الأرض وأعمدة معابدها الرخامية الصقيلة، عذاباتها ومهرجاناتها، السيرك والمنارة والمسرح وهياكل چوبيتر وزيوس وآمون، المذابح فى الساحات والمحارق ومعاصر النبيذ وصوامع الغلال الذهبية، وأشرعة السفن المبسوطة والمربوطة بالحبال فى الميناء الشرقية، والفلول الباقية المطاردة من كهنة الدين العتيق، وشهداء الهرطقة اليسوعية الجديدة، وفلاسفة اليهود وعلماء الجغرافيا والطبيعة، والشعراء مايزالون يرصّعون اليونانية القديمة بصياغات وزخرفات لا حياة فيها، والناس الناس الناس الذين لا اسم لهم بجموعهم الغفيرة التى لا تنتهى أبداً، يأكلون ويكدون ويتسلون، ويزحفون

ويَتعون بشهوية ويتمزقون بشقاء لا يوصف، ويموتون بلا أهمية، لا يعرفهم أحد ولن يعرفهم أحد.

قال لها: في عاصمة العالم، أقاموه، على عظام الشباب والخيل في مقبرة كاركالاً.

قالت، وقد اقتربت منه بجسمها ووجهها: يا اسكندراني .. يا متعصب ...!

قال لها: تعرفين أنني، هنا، في السيرابيوم تحت، منذ خمسة وخمسين عاماً ربما، وثبت فوق بئر مستحيلة، لا قرار لها، وعبرت، طفلاً، الى ساحة منيرة، وطرقت ممرات منقورة في الصخر، وأحسست هناك بما يشبه الحرية!

قالت: نعم، حكيت لي.

قال الرجل: متأسفين والله. النزول تحت ممنوع. المياه طافحة.

قال: المجاري تاني؟

قال الرجل: الله أعلم. جاء مهندس من شهرين، ولم يرجع.

سألته: ومتى يفتح؟

قال الرجل: ربنا يسهّل.

كان العمود أقل ضخامة، وأقصر، مما كان يتذكره. والتراب على قاعدته المربعة العريضة وأبو الهول الصغير، تحته، يبدو لا مكان له، أو هو في غير مكانه. كأن مرقعه الصحراء العريضة المترامية الموحشة،

وحدها. وكانا يدوران حول القاعدة، والتمثال، على الرخام الواسع المكسّر القديم، يتجنبان الاصطدام بأنقاض وأحجار صغيرة متناثرة حادة الأطراف، لم ترفعها أيد منذ زمن طويل. أكليل العمود بنقوشه الرومانية والبيزنطية غير الواضحة، يسبح فى السحاب الأبيض المهلهل النسيج، يتحرك بسرعة بين قطع السماء الزرقاء الصافية التى تأتى وتتراجع، وفى الهواء النقى المبلول رائحة تراب مقابر المسلمين الشاسعة المزدحمة.

قال لها: أين نتعشى؟

قالت له: أمرك يا حبيبى. لا أعرف أنا. هذه مدينتك.

كانا، فى الوحشة، يعرفان ساعات صغيرة من الأمن وهدوء الحواس واستنامة مسوخ القلق، بعد عاصفة شتوية وجيزة.

ونزلا الى الكورنيش، فسبحَ السماء، مصطفقَ الموج. وكان المطعم خالياً، وزجاجه تغطيه من الخارج طبقة من ضباب رطوبة البحر، تلعب فيها انعكاسات الأنوار باشعاعات رقيقة زرقاء حمراء. متقلبة ومراوغة. وكان للجمبرى المشوى والنبيذ الأبيض الجاف طعم جديد، وكان حديثهما قليلاً، ولكن من غير توتّر ولا ترصّد، وصدمات المياه بأحجار الأسمنت المربعة الضخمة تحتويها لها صدى مكتوم، فيه إلحاح متكرر ومخدّر قليلاً، وهما يتطلعان الى أشجار صنوبر يهزها هواء الليل على الجانب الآخر. ويحسان أنهما وحدهما، ولا يحتاجان لشيء، والسحب بيضاء تجرى على صفحة البحر الداكنة، ونصف القمر يتزلّ من وراء القلعة البعيدة

التى تبدو صغيرة وسوداء، كأنه قطعة صفيح مكسورة باهتة، تتقلب وتغوص.

قال: لم أعرف نشوة السعادة التى تطير بالقلب وتتجاوز الحواس إلا فى أيام الكشف الأولى التى لا يمكن أن تعود. عندما تفتحت أبواب قديمة موصدة عن ساحات من الخفة والسكر المتقد الصاحى، لم أكن أعرف أنها موجودة فى العالم. عندما كنا نسير معاً فى الشارع الخالى بالليل، ثم قبّلتنى على فمى فجأة ومن غير روع ولا تلهّف، من تلقاء نفسك، فى نزوة عفوية كلها حنان وعرفان، تختم على شئ قد اكتمل وتبدأ رحلة لا نعرف الى أين تفضى.

كان العمود يبدو الآن بعيداً، والشهداء شيئاً ضرورياً. عندما أمسك بيدها، وقال: نعود؟

كيف ينحسر الزمن؟ لا يوجد ولم يكن موجوداً قط. والبراءة الأولية هى القانون.

فى جوهرٍ من الكينونة لا أثر فيه لما مضى، للآن، وللمستقبل، أنا معها فى قهوة على الكورنيش، البحر الأزرق النقى وزبده الأبيض الهادئ بلا صوت، كالصبا، حىٌ لم يندثر ولا انقضاه له، وصافٍ مثله، ليس فيه إيماءة لما جاء بعده، وليس قبله شئ.

«وأيضاً جعلتُ الأبدية فى قلبك».

فى ساحة محطة مصر الفسيحة كانت عربات المنطور السوداء

المنتظرة تحمل معنى معلقاً غير محسوم، مراكب الوصول والرحيل معاً، الأفراح والمآتم معاً، ورائحة بول الخيل النفاذة من البرك الصغيرة لونها أصفر راكد فى الشمس.

كان صوت المطبعة اليدوية يأتى الىّ وأنا أذرع شارع محرم بك. صلصلة الذراع الحديدية السوداء التى ترتفع وتنخفض بدقات مكتومة رتيبة، أراها من وراء الواجهة الزجاجية التى عُرضت فيها كتب الهندسة والحقوق، وفجر الاسلام وضحى الاسلام، والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية من ترجمة راشد البراوى. وعند تهوة الأسكندرانى، انحرفت وليس فى ذهنى هدف معين، قلت أطلع ربما أرى حسن محمد حسين، وربما نزلنا وذهبنا الى سينما بلازا فى شارع فؤاد، وعددت القروش القليلة فى جيبى، ونسيت فوراً كم كانت.

عينان ذهبيتان فى محطة أرتوبيس، وهيّاج من الشعر المخضل بنّار شقراء محمرة.

قالت لى: العنوان سهل. لا يمكن أن تتوه «٩ الباب الأخضر» فى سكة الجمرك.

ولما كنت أكنّ للرقم ٩، من أيامها، إجلالا خاصاً - أقرب الى السحر عندى الرقم ٩ - ولما كان الباب الأخضر أيضاً يوحى بالتفتح والنفاذ الى آفاق مزدهرة بالخصب والحياة، فقد وافقت.

طول عمرى غريق فى بحر الاشارات.

ولكنى لم أكن أعرف ماذا ينتظرنى.

تيقظت فى الصبح البدرى، نافذتى مفتوحة على سماء صافية شفافة الزرقة تقريباً، تلوح لى من وراء الشجر الذى عريت فروعه من الورق، وبدت نحيلة ولا مناعة لها إزاء هذا النقاء المستحيل.

لكن شجرة البنسيانا الوحيدة باذخة الورق، كانت مشتعلة بزهورها الحمراء، متفجرة بنارها النباتية البهيجة سعيدة بمجرد وجودها وازدهارها.

لم أكن عادة أوافق بسهولة على الذهاب الى أحد هذه البيوت «السرية». وكان لى بإزائها ألف هاجس وهاجس، أحسب لها حساباً: الأمراض المشينة المستعصية، البلطجة، احتمالات السرقة أو الضرب أو البهدلة. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فالرثاثة المنفرة والنقر الذى يحبط الحس ويقتل الشهوة. وكل هذه الأمور التى لا تحتاج أن أقولها.

الى اللسان الذى يشق البحر، كان المدفع الضخم وراءه مصوباً نحو الأفق. قالت لى:

- حارجع من هنا، أخُرم من الشلالات. العراف بقى يا خويا، نتُك بعانية، أشرنك بكرة؟

كان فى سؤالها تلق الرغبة الذى يتجاوز مجرد إنهاء صفقة، ونزع من طلب النجدة الصموت.

عندما مضت، كانت السماء صخرية، لا تناقش.

ندمت قليلاً لأننى لم أعرض عليها أجرة التاكسى. قلت، متأخراً، مشوارها طويل. صحيح لم يكن فى جيبى الا حتة واحدة بعشرة صاغ، ونصف فرنك، وشوية ملاليم، لئن كان ممكن تدبير الحكاية، خلاص، قلت، كالعادة، فات الآوان.

أما فى هذا الصباح فقد كان قلبى يطفو فوق الماء الملح المتموّج من الشوق، والرقة، والحبوط النهائى.

لأن عينيها كان فيهما هذا النور الذهبى الباهت عند الغروب، وكانتا مرفوعتين الىّ بسؤال لا أعرف إجابته. ولن أعرف أبداً، قلت.

مازلت لا أستطيع أن أتحمل عبء الاحلام، ولا ثقل الأسئلة.

أنوء بها.

نزلت من بيتنا فى شارع ابن زهر، وركبت الترام لغاية محطة الرمل، كانت البلد يقظة ونشطة، وهواء المينا الشرقية، فى أوائل مارس، مبلولاً.

وكان وشيش ماكنات القهوة الاكسبريسو والكابوتشينو وشهقاتها المفاجئة بالبخار المندفع، ورائحة البن البرازيلى الأصلى النفاذة، تملأ المكان بدفء حميم. شوالات البن مرصوصة على الأرض الرخام مسنودة الى الحائط اللامع من النظافة، وعليها الماركة المدّورة المميّزة، الطاحونة الضخمة، رابضة وراء سور قصير من قضبان حديدية، وتهتز بذبذبات متلاحقة، وتفوح منها رائحة البّن المطحون، طازة عبقة بالحوشية.

وأنا أشرب باستمتاع خالص من الفنجان الأبيض المستدير، أستطعم أيضاً سماكة جدران الفنجان الصينى المدورة، ومفاجأة الشفطة الأولى من الكابوتشينو السخن، رغم أن متعتها متوقعة ومكررة.

وعندما خرجت سمعت ضربات الماء بسور الكورنيش، وطالنى بعض رذاذه، على الصبح، وبلّ چاكتتى الزرقاء الطويلة التى لم يكن عندى غيرها. كانت الچاكتة تنزل الى ما فوق الركبتين بمسافة قليلة. وكان فيها، مازالت، أناقة أيام عِز غابر قبل أن تأتى من أمريكا فى بالات المعونة، وتشتريها لى أمى باثنين جنيه. وكانت مدفئة، بطانتها حريرية. ورافقتنى سنين طويلة.

وصلت المنشية، منتشياً بالبلل فى هواء البحر وإيقاع وشيشه المطّرد وخبطاته على كتل الأسمنت اللزجة بالطحلب الأخضر. وحوّدت من عند ضريح الخديوى اسماعيل الرخامى ذى الأعمدة البيضاء الرشيقة. ومن عند تمثال جده الذى كنت أظنه يحمل سيفاً برونزياً على جنب حصانه الصافن الصاهل دون صوت. وعبرت وسط الزحمة من سوق الخيط وسوق المغاربة وسوق العقّادين وسوق الصيارف وزنقة الستّات وسوق الخَراطين وشارع فرنسا. وعبرت بذهنى، خاطفة، صورة أوديت التى تنتظر منى أن أتقدم لها رسمياً، ولم أفعل قطّ. ولقيتها مرةً فى سوق الطويلة، رأدانتنى الى الأبد نظرتها الجريحة القاتلة، ونفيتها ثلاثاً. وكنت قوى العزم على أن أذهب مشياً حتى الباب الأخضر.

كنت قد دخلت «بودرو» على قمة شارعى فؤاد وشريف، قلت أتشبرق بحتتين جاتو وفنجان شاى على العصر. فيم كان الاحتفاء النادر بنفسى؟ الله أعلم، هو أنا عقلى دفتر، نسيت.

كان «بودرو» فسيحاً ومريح الهواء، نظيف الأرضية، يلمع رخامها لمعة أنثوية تقريباً، والفترينات الداخلية تضئ من وراء زجاجها البلورى السميك بقطع الجاتو لدنة ومتماسكة القوام: الشيكولاته بوجوهها البنّية المحّببة حبيبات مدورة دقيقة فى غاية الصغر محّددة ومتلاصقة، والكريم شانتييه النضّى اللألاء المتجمد برشاقته فى سيولته المخادعة المغوية، والميلّ فيىّ بطبقاته الرقيقة المسواة بعناية الحب، والميرانج الهشّ المكّور أكاد أحس رتّته تنكسر فى فمى لتغمرنى زبدة اللذة المتسايلة.

رأيتها تدخل، مترددة قليلاً، تنظر بقلب الى الرواد القلائل فى أول بعد الظهر، وان كان واضحاً أنها تعرف هذا الموقع جيداً من مراتع جولة صيدها.

كان حذاؤها الأبيض بكعبه العالى المصمت قطعة واحدة من المقدمة حتى الكعب، كان اسمه، «كعب دبابة»، يرن على رخام «بودرو» له صدى.

ابتسمت لها.

ألم أقل اننى، على غير العادة، كنت أحتفى بنفسى؟

كانت سماء الصباح الفضية تهمى برذاذ خفيف الوقع، يطير به هواء

الأسكندرية المبلل من الترعة ومن خضرة الغيطان القريبة. وكان أسفلت الطريق مرآة سوداء لامعة وخطرة قليلاً.

هل كانت تلك هى المرة الأولى التى قدم لها ذراعه بحركة مجاملة ومتارية جسمانية بسيطة رصفو، ليست فيها أدنى فكرة خلفية، مجرد حنوّ الزمالة؟ والمرة الأولى التى أحس فيها، على ذراعه، ثقلها الهين المطارع فى معطفها الصوفى الخفيف الناعم بحمرته الداكنه؟ كانت ابتسامتها له منوّرة، كورد الشتاء النادر، وهو يحدثها عن ماريو بوليس الراقدة تحت الرمال، ويقول لها على الله يصبح الغد صحواً، فالأسكندرية أحيانا تظل غائمة متصلة الرذاذ أياماً بطولها. وهما يخطوان بحرص على حديد الكوبرى الذى يهتز قليلاً، والترعة السوداء الضيقة تحتهما بين ضفافها الملتفة بالخضرة الدسمة، والتراب الداكن من البلل تنحدر عليه خيوط بطيئة من الماء يشق له مسارات دقيقة متعرجة، والتين الشوكى بأقراصه الغليظة الشرسة الشكل تحت الرذاذ يحيط بخصّ خشبى موارب الباب منير بمصباح كهربائى أصفر على نصبة القهوة الضيقة بوابور الجاز وعدةّ الشاى والأكواب المصفوفة.

كان سياج الكوبرى من الحديد المشغول الدقيق نباتاتٍ لا تهتز متفرعة ومتلوية برشاقة الآر نوڤو، من آثار القرن، صنيلاً السواد، فيها نُثَر القطر الكامن وديعاً الآن. واستشعر نفح جسدها الرطيب الدفئ، فى برد الهواء الخفيف، وهما يسرعان قليلاً تحت المظلة المفرودة الواحدة

برفعها بذراعه الأخرى، فى طريقهما الذى مازال طويلاً بعد، الى كازنيو النزهة. وكانت بجعة بيضاء تنساب بجلالها الرشيق، تلعاء العنق، لا ترى شيئاً ولا تهتم بشئ، على ماء المحمودية المتدفق الى البحر، بنقشه رذاذ المطر بنسق متقلب.

قالت لى إنهم كانوا يلتفون جميعاً، صبياناً وبنات، حول الميچور الأنجليزى الذى كان يأتى الى شقة الست تيريزا الطليانية فى الدور الثانى من البيت، فى شارع بورياستيس. كان اسمه چيمى، وكان يحرص على أن يحضر معه، كل مرة، شيكولاته نستلة وبرادبورى محترمة، من «النافى» ويوزعها على عيال الحتة كلهم.

كان طويلاً ونحيلا فى ملابسه الرسمية من السيرج الكحلى، أشقر الشارب وشعره متصرص مشذب ومحفوف جداً. وكان يقضى الليل عندهم، لأن الخواجا لافونتى رجل البيت كان غائباً، كان معتقلاً فى معسكر عمل جنب السويس. كان يلبس القميص الفاشستى الأسود، وبنطلون الركوب الضيق عند الساقين، ويركب الموتوسيكل القديم الذى يطلق دخانا كثيفاً وتعتعةً كثينة، فى الشارع. وكانت مدام تيريزا ممتلئة الجسم وبطيئة الحركة وصموتا قلما تتكلم، أما البنتين والولد فقد كانوا مستبين بيّة العفاريت، ويعاكسون كل الأولاد فى الحتة.

مرة بالليل جاء صوت هدّة قوية في الجنينة الصغيرة التى تطل البلكونة عليها مباشرة، لازم حاجة وقعت. ماهى؟ قنبلة لم تنفجر؟ لا

يمكن، لأن صفارة الانذار ما كانت قد ضربت. شلة الأولاد الذين كانوا نائمين صحوا، رلموا أنفسهم، ورغم زعيق الكبار انطلقوا جرياً بالبيچامات وقمصان النوم والشباشب، وحافيين أيضاً، الى الجنينة الصغيرة. نطوا من البلكونة، ووجدوه على الأرض، ممدد. هادئ الملامح، مغمض العينين. قالوا الميجور چيمى خلاص، مات. وصرخوا. جاء الكبار، وعرفوا أنه فقط سكران طينة. نزل على الأرض اللينة المبلولة وأخذ معه فى وقوعه جزءاً من سور التراسينة التى فوق. راحوا ينادون: «ياست تيريزا .. ياست تيريزا إلحقى چيمى. إلحقى» . واحتمله الكبار وهو غائب، ووجهه سعيد، وصعدوا به الى الدور الثانى، ومددوه على سرير الخواجا لافرنتى، حتى أفاق ثانى يوم الصبح.

أما فى شقة شارع أبن زهر فقد كانت الساعة الثانية صباحاً، وكانت النافذة محكمة الاغلاق عليّ، وكنت قد فرغت من «لزوميات أبى العلاء» وبدأت أستأنف ترجمة «قبّرة» شيلى. وفى اللحظة نفسها التى انطلقت فيها صفارة الأنذار بصرتها اللجوج المتقطع الملحاح، تمزق سكون الليل وتدق القلب، سمعت صوت الهَدة المروعة. واهتزت جدران البيت، وسطع النور الأبيض خطفة واحدة، ملأ منور البيت ودخل عليّ فى حجرة النوم والمذاكرة التى يشغلها السرير الكبير المزدحم بأخواتى النائمات: عايدة وهناء ولويزة، مع برق النور الضارب، صوتُ انهيار أنقاض مقرقع ومتلاحق وقريب جداً. وخطف فى ذهنى أن البيت قد ضُرب، لكنى

وجدت كل شئ كما هو، لبست الجاكته على البيچامة ونزلت بالشبشب. وعند قمة الشارع وجدت فى أول الحارة المتقاطعة معنا، واجهة البيت الذى فيه بياع الفول والفلافل قد سقطت كأنها كشطت بسكين ضخمة، وكومةً من الطوب والهَدَد فى الحارة، والثلاثة أدوار بانت كلها فى ضوء الكشافات التى تجرب صفحة السماء الزرقاء الصحو بين فرقعات مدافع الآك الآك الرفيعة الثاقبة التى تنفجر وتنبسط وُرودُ شظاياها القرمزية والخضراء كالألعاب النارية. كانت المرايا والدواليب، والملابس المعلقة على المسامير فى الحيطان، وكراكيب البيوت، وصور أصحاب البيت، والآيات القرآنية وصور مار جرجس والعذراء بالأزرق والأحمر، معوجة قليلاً، ولكنها مازالت ملتصقة بالجدران الداخلية التى لم تُمس. وكان على الباب مجموعة صغيرة من الرجال والنساء بملابس النوم، والبنات الصغيرات يبكين ويصرخن بخفوت، والأولاد يتعلقن بفساتين أمهاتهم بصمت، ووجوههم تبدو بيضاء فى الليل. وفجأة صفرت صفارة الأمان. طويلة مُمتدة سعيدة. ورجعت.

كأنما قمت بطقس آخر من طقوس لقَانة الرجولة، بعد طقس الحريق، وخلصت من محتويات مراهقتى، فى الدور السفلىّ من «النترينة» الخزانة الخشبية ذات الدور العلوى الذى له واجهة زجاجية، ورصصت وراءها ما أملكه من كتب قليلة «التنين» للشعر الإنجليزى، التوراة والأنجيل، والقرآن، «الأدب والدين عند قدماء المصريين»، «المنتخب من

أدب العرب»، «مختار الصحاح»، وقاموس وست الانجليزى، وقاموس بيلو الصغير الفرنسى - العربى، الذى بَللتّه وجفّت عليه مياه المحمودية عند ما غرقتُ، لحظة، وأنا أخرج من المعدية الى الشط. وأعداد قديمة من مجلات الهلال والمقتطف و«مجلتى» و «أبوللو» اشتريتها من بياع الصحف الذى كان يضع فرشته تحت الجدار الرخامى لشركة ليبون فى آخر شارع صلاح الدين. أجرى حافياً على أسفلت الشوارع النظيفة السخنة، وصندلى تحت ذراعى، بالبيچاما أو الجلابية، عندما تنام أمى نومة بعد الظهر، وأوصى أختَى عايدة وهناء أن يتركا باب الشقة مفتوحاً حتى أدخل دون أن أدق عليه عندما أعود، لاهثاً، دماء الجرى والمغامرة واللقْيا تضرب جسمى، ومعى غنيمتى، دون أن تحس أمى أننى خرجت ورجعت.

فى يوم أحد آخر، بعد أن كانا بالأمس فى النزهة، وعبرا الكوبرى الحديدى الصغير على الترعة، كان ميعادهما فى محطة مصر، خرجا من الباب الحديدى المشبُك يجريان على الرصيف، لا يباليان النظرات المتخرية قليلاً من الواصلين والمسافرين والحمالين وباعة الصحف والبيض والكوروبا، منطلقين فى اندفاع بهجة مشتركة بأنهما معاً، صديقين لا أكثر، لا يعرفان بعد أن الحب مرصود لهما، كامن يتربص بهما. وخرجا الى الساحة الفسيحة ذات الأعمدة، والبوابة الكبيرة الرخامية الطراز والرخام الأسود اللامع المكسوة به الجدران المتينة، ونشقا

ريح الشجر المهتز، وغرقا فى لجب الميدان. رأخذها الى الترام المؤدى الى المنشية الصغيرة. كانت العربة بمقاعدها ذات الخشب المتجاور الرفيع الصقيل شبه خارية فى صباح الأحد، والناس ينظرون من الزجاج السميك المضلع الحائل شديد الصفاء الى سماء شتوية الزرقة، بعد مطر الأمس، يطير فيها سحاب خفيف ملاءات هفهافة من ندف القطن البيضاء.

كانت لا تعرف الطريق الذى يقطعه الترام، بالضبط، وتسأله عن أسماء المحطات والشوارع. والعجلات تدق القضبان بإيقاع متكرر، صوت دقاتها يعلو ويخفت. وعندما نزلا بعد التمثال الأخضر الرشيق، الفارس المنتصى بعمامته وسيفه وملابسه التركية الفضفاضة التى كان يسحره فى طفولته، على حصانه المتوفز بصدره العريض وإحدى سيقانه مرفوعة أبداً، برشاقة خرافية، فى الهواء، وأشجار النخل الملوكى بيضاء السيقان تهتز جدائلها النضيرة فى زرقة الريح، وأنفاس البحر الندية تأتى من اتساعه المتعظم، صوت الموج يرتطم بسور الميناء الشرقية الأبيض، ورذاذه يتطاير على الرصيف العريض المغسول، من بعيد. دخلا فى حوارى المنشية الصغيرة، معظم الدكاكين مغلق، والأرض المرصوفة بالبازلت متعرجة. والكنيسة اليونانية خلفهم بجدرانها البيضاء وقبتها الناعمة الدوراء. وصفقت بيديها فجأة وهى تندفع الى دكان صغير ضيق الباب جداً، فى وسط الأكشاك الخضراء القائمة الغاصة بحزم الزهور، قد امتدت أجسادها النضرة مطلولة وتدلت فى عنف ألوانها ورقتها. وجذبته

من يده وهى تدخل بجانبها الى الدكان، فيمتلئ حيِّز الدكان بها، ويقف ميخائيل نصفه بالداخل ونصفه على الرصيف. وهى تنتقى بلا تردد الدبَّ الصغير بفروه البنى الناعم، والطوق المذهب الصغير حول عنقه، مدملج الجسم مكورَّ السيقان، عيناه الخرزتان السوداوان تلمعان بمرح وتضرع معاً، معلقاً بخيط أصفر مضفور رقيق، وحده، كأنه غريب وسط العرايس والبالونات والدمى البلاستيك المنتفخة الخدود، وكرات أديداس ومضارب الأسكواش وألف صنف وصنف.

تذكَّر وكيل النيابة الذى حقق معه فى الأربعينيات، وكان مهذباً جداً أيضاً. وسأله عدة أسئلة كأنما بلا اهتمام. ثم عرف أن القضية أو التحقيق، لا يدرى، قد حفظ. ولكنه اعتقل فى ١٥ مايو ١٩٤٨، دون أن يرجه اليه اتهام، وخطرت بذهنه شوارع الأسكندرية بعد منتصف الليل، وهو يلصق منشورات على حيطان محرم بك،ومعه فرشاة صغيرة وسطل صغير جداً به غراء صنعه بنفسه، وأنوار الأعمدة الطويلة تسقط عليه فى الشوارع الخاوية. وقد انقطعت الرجل وفات ميعاد الترامرايات، وهو يحاذر من عسكرى الداورية القادم من أول الشارع بحلته السوداء، وقلبه يدق، وحيداً فى المدينة التى يدعوها بحروف صغيرة ملصقة على الجدران، الى الثورة والى الكفاح من أجل الجلاء، والى إسقاط الاستعمار والاستغلال.

كنا نطبع المنشورات فى نصف العتمة حتى لا يفضحنا نور الشركة

بعد ساعات العمل، وأحمل نصفها الى زكى ابراهيم صدّوق ابن البلد اليهودى الاسكندرانى القح، الذى يشتغل فى فابريكة بولفارا ويسكن فى حارة نى العطارين مع أهله: أخته مارسيل، وأمه بالجلابية والمدورة، وأبيه الصغير الجسم الذى كان يشتغل بتصليح الكراسى من بيت إلى بيت، كان زكى أعرج قليلاً، وذراعه اليسرى مشلولة، ولكنه لماح الذكاء وشديد الايمان بالثورة، وعدواً لدوداً للصهيونية، وكان قد اشتغل صبياً فى دكاكين البقالة، وأسطبلات العربات الكارو، وعند الحدادين والسمكرية، وفتح الله عليه أخيراً بشغلة ستع، فى الفابريكة. كان يلبس الجلابية والبالطو البلدى، ويعرف يكتب اسمه بالعربى بالكاد، ولا يعرف كلمة بأية لغة اخرى.

فى ١٩٤٩ رضعه برليس الملك فاروق على مركب، بالقوة، ورحله الى چنوا.

كنا نخرج من المساجيرى ماريتيم وقد لففت الورق الأستنسل ونصف رزمة المنشورات تحت بالطو المطر الغامق الذى كنت قد أخذته، بإذن مكتوب وقع عليه وختمه مستر «لى»، من مخازن البحرية البريطانية فى كفر عشرى، والذى أخفيت في جيوبه بعد ذلك ثلاث تنابل يدوية قديمة اشتراها صديقى أحمد النمس من عرب العامرية. وكان أحمد النمس إرهابياً إسلامياً، ثم ناقشته وحاورته وعلمته، أسابيع طويلة، حتى أصبح، ماركسياً لينينياً، تروتسكياً حافظ عى عقيدته دون حول حتى

مات، حتى بينما كان يضرب فى متاهات الغربة يُعلِّم الرياضيات فى زائير، ويترجم مواداً علمية لهيئات الأمم المتحدة فى باريس وجنيف وفيينا.

نزلت من ربوة العباسية - التى تحولت الآن الى جامعة - «فاروق الأول» بالليل، أتحدر على الأرض المائلة بشدة المخضوضرة بالعشب المتلوى الملفلف الغضر دائماً.

كنا قد قررنا بالأغلبية الساحقة فضٌ الاعتصام. كان الناس طيلة الأيام الثلاثة الماضية يلقون إلينا بالساندويتشات والأكل الجافّ الملفوف فى ورق، من النوافذ، عبر شارع طنطاوى جوهرى. والجيش بدباباته الصفراء الصغيرة، تبدو كاللعب، يحاصرنا. بينما نقوم على حراسة جثمان الشهيد الذى سقط برصاص الانجليز فى محطة الرمل. حفرنا له قبراً فى ساحة الجامعة، وسهرنا والشموع الكبيرة مضاءة حواليه، (من أين أتينا بها؟) ونحن نتبادل الخطب الثورية وننشد الأناشيد الوطنية.

أختبأتُ قليلا فى سفح التلة المخضوضرة، فى الظلام. كانت الدبابات بعيدة نوعاً ما، وسرت بهدوء من أمامها ولم يتصدَّ لى أحد.

ولجت بيتاً قديماً من مدخل ضيق مظلم، وكدت أتعثر علي درجتين متآكلتين فى سلم ترابى طويل من الناحية الأخرى من البيت الذى يقع فى أرض دحديرية الفَخَرانية، بابه فى مستوى الشارع من ناحية، أما الناحية الأخرى ففيها هذا السلم الطويل المحفور فى أرض الدحديرة

نفسها التى تعود إليّ كثيراً، حتى الآن، فى نومى. كان هذا الطريق لا يعرفه الا القلائل من جماعتنا.

كانت الشوارع الجانبية المتربة خاوية وموحشة، تنتهى فجأة ببيوت ... أعود أدراجى الى الحوارى المتفرعة عنها، معتمة وحيطان بيوتها مصمتة بلا نوافذ ومبنية بالطوب النئ، وأنا أجرى نازلاً باندفاع وقوة التحدّر تنطلق بى إلى تحت، لا أملك رد جسمى وهو يهبط حتى أصل الى محطة الحريق أمام محطة مصر، بأعمدتها السميكة القصيرة المدورة التى تشبه أعمدة أديرة قرطبية ذات أقباء وأحناء وممرات مبلطة، تنبثق من بين شقوق بلاطها أعشاب صغيرة غضة، ولها فناء صغير ليس فيه الا الرمل والحصى. تحيط به مخازن هائلة، لها أبواب حديدية منزلقة على عجلات، مرصدة الآن امام كل أمل. وهناك جرس ضخم نحاسى يلمع، مُدلى بحبل غليظ من قبوة عالية، وساكن لا يتحرك. رأيت لسان الجرس المعدنى الداكن الكبير، وفكرت أنه لو أن هذا الجرس دق، فسوف يصحو أهل البلد جميعاً، بل ستدق كل الأجراس فى مصر من أسكندرية الي الشلالات دقاً واحداً متصل الجلجلة ومدوياً يوقظ الموتى. ولم يكن هذا الجرس كنسياً، بل هو أشبه بأجراس محطات المطافئ أو محطات السكة الحديد، صامت، ثقيل لا يهتز أدنى أهتزاز، وحوله عساكر المطافئ واقفين كالحرس بخوذاتهم الصفراء الرومانية الشكلْ، وملابسهم الداكنة الزرقة الكاملة الأهبّة.

دوائر غير كاملة الاستدارة أبداً ما تنى تئنُ شوقاً للنهاية البداية بلا بدء ولا أنتهاء. الأحشاء مصوّحة تحترق وتحرق السمندر فى النار، وتطمّ الماء. الثعبان يمجّ اللبن من فمه المفتوح ، ليس الآن مدعواً للمجئ؛ بل هو مقيم. ميتافيزيقا اللحم تتحدى الحلول والاجابات.

كلُ هذا قد حدث؟

كانت الساعة الثامنة صباحاً يوم جمعة شاتٍ، بهذا التبكير جئت أرى صديقى قاسم اسحق فى بيت بحرَى. لم أجده. طرقت باب شقته على السطح بشدة ولارد، ووجف قلبى، وقلت هل قبض عليه البوليس أخيراً؟ ما العمل الآن؟

فتحت لى أم ميخائيل بابها، من تحت، ونادت علىّ:

- يا فندى. يا فندى. صاحبك مشى امبارح.

- مشى ازاى؟ كده؟ وحده؟

- ما تخافشِ أمال، ديهدى. الرجالة برضو وصلوه لحدة أول شارع خمستاشر، وسى شنوده شال عنهّ الشنطة لغاية المحطة. وقفوا لغاية ماخد الترامواى.

تصورت فجأة الضغوط التى وقعت على صاحب البيت، من ناحية أو أخرى، ربما، وأرغمته على العدول عن اتفاقه معنا، وعن الجنيهات الخمسة الغالية أجرة الشقة الصغيرة على السطح.

- لا مؤاخذه يا سيدنا لفندى. بقى صلى على كامل النور، صليتْ

على النبى؟ بقى أحنا برضو ولاد بلد ونعرفوا الأصول. واحنا نشيلكو فى عينينا من جوهْ يا راجل، لكن بقى العين بصيرة .. وأنت كلك نظر. برضو البيت فيه حريم . آه . وما يخلاش الأمر من كده ، وكده. الحرُمة من دول تطلع تنزل، تيجى هنا، تروح هنا برضو ما يخلاش. واحنا بقى ولاد عرب، ودمنّا حامى. ما نقبلوش على دمنا إنه يبقى فى البيت ُطلبه.. شباب يعنى لوحديهم فى البيت مع الحريم. داحنا كلٌ من حاله بيدورٌ عل المعايش. الجرى ورا المعايش صعب يا سيدنا لفندى، والشرف برضو صعب. ما تآخذنيش، إحنا ما نقولش حاجه لاسمح الله . أبداً والله العظيم مرش مُونْكِن، دحنا رقابينا سدادة. وأنتو أولاد أصول. آه ما هو الكتاب يتقرا من عنوانه، أمال، لكينى بقى لخدْبة العرض وما نقدروش. طبْ دا أهل الحتة كلتَ وشنا ، وحياة سيدى المرسى، بقى لغاية كده ولأ. أسمع بقى يا سيدنا لفندى، أحنا رجاله برضو وحنوصلوك لغيية بر الامان.

عندما سلمت علىَّ لآخر مرة لحظت فجأة الزرقة الناصلة فى وشم الصليب القبطى المورق الأطراف على رسغها الأسمر الناعم، من الداخل.

كان الولد فى حضنها - كالأول تماماً - وكان نهدها فى فم الثعبان.

الثعبان هائل الجسم، يبسط له جناحان عريضان ثابتان فى الهواء، يثب بسهولة من أعلى السلم الخشبى الدائرى، تحت نافذة المنور، جناحاه لايكادان يرفرفان، حتى يحط على ذروة النخلة العريقة القائمة وحدها

فى عتمة الحوش الترابى.

ملامح وجهى مطبوعة على حدقتَى عينيه الزجاجيتين.

هل كنت قد تتلت أليفته الواحدانية التى ما تنى تبعث حية؟

أبمجرد الإرادة تتلتها أم بالفعل، وما تنى تتكرر بلا انتهاء؟

فهل هى يمكن أبدا أن تموت؟

كان هناك عسكرى الحرس فى «معتقل أبو قير» يبدو نحيلا وداكناً فى اللبس العسكرى الكاكى، بالشورت الذى يصل الى الركبتين، يقف بمدفعه الرشاش القصير على كل ركن من أركان السلك الشائك المزدوج الذى يحيط بنا. النور الكشاف القوى يطوف ببطء على السياج، تدور بقعته المستديرة الساطعة دورة متمهلة متربصة.

قال: أهذه - كتلك - صورة من أفلام الأربعينيات عن معتقلات النازى؟ أهذا مشهد من صنع هوليوود أيضاً؟ هل تلعب بى الذاكرة لعبها المعتاد؟

قال: لا. هذا العسكرى الأسمر بالشورت الكاكى والبدلة المتهدلة نوعاً ما، ولفات الألشين الخشنة الرمادية تلف ساقيه الرفيعتين ليس من الجنس الآرى، ولا هو يابانى تحركه وطنية أتوماتية مبرمجة عمياء - كأنه كائن آلى من كوكب آخر - بل هو من أبناء بلدنا. هذه صورة تظل - وحدها - باقية. ليست كاملة السواد، و أحادّية النغمة، ليست من أفلام هوليوود.

قال: كنت لا أحب الخروج بالليل من العنبر المرصوص على الجانبين بالسرر النقالى، مفروش عليها مراتب تش، والبطاطين الميرى، وأصوات أنفاس النائمين المثقلة جسومهم وأرواحهم. الشخير المجهد وأنين الحبس الذي لا يسمح له بالخروج من باطن القلب، ملفوفين بالملاءات البيضاء - غير النظيفة كل النظافة - أو الملونة، التى طلبوها من بيوتهم. وبجانبهم صناديق الشاى أو المربّى، خشب أو كرتون، تقوم مقام الكومودينو، مرضوعة بعناية فى فسحة الممر الضيّق بين كل سرير وآخر، تحت المصابيح العارية المطفأة الآن، والسلك الكهربائى المتدلى المأخوذ بمهارة من الفيشة الرئيسية، وعليها كتبهم ومجلاتهم المختومة بتصريح الدخول من قرمندان المعتقل، وفيها الأكل المحفوظ .. لبن نستله مُركز مُحلّى، وبرطمانات المربّى والبن والشاى والأباريق والكسرولات والأطباق الصينى أو الصفيح، والأسبرتاية وزجاجة الأسبرتو، والفناجين أو الأكواب، وسائر عدّة الحياة فى الحبس.

لكن اذا ضاق بى خناق الحبسة، والزمتة، فى بعض الليالى، غامرت بالخروج من ثقل العنبر ووخامة نرمه الى الفناء الرملى بين العنابر - نسميها «الخِزاءات» - أعب الهواء الليلى المبّلل برطوبة البحر القريب، ورعد الحرية المراوغة، وتجيئنى على الفور صيحات الحرس: «مين هناك!» لتنبئنى وتنذرنى.

فأمشى ببطء، واضحاً، من غير مناعة، لا أقترب من السلك

الشائك، وأنظر الى سماء أبو قير التى أحسها محصورة، مزدحمة بالنجوم، ليس لى منها الا قطعة مجتزأة ومنتزعة عنوة، بينما هى فوقى شاسعة حتى البحر الذى لا منال له.

«الأحياء الشعبية بالأسكندرية كغيط العنب وكرموز وغبريال قد منيت بعدد وافر من الكلاب تحتل كل شارع وزقاق .. وما يكاد الناس يستسلمون للنوم حتى تبدأ وردية الكلاب.»

أما زينب عطيه، أخصائية اجتماعية بكرموز، فتقول:

«أبكانى البامبش وانهمرت دموعى مدراراً، عندما رأيت، وأنا أزور احدى صديقاتى صاعدة درجات السلم إليها، أطفال احدى الأسر الفقيرة يبحثون فى قشر البامبش على باب الشقة المقابلة لهم، لعلهم يجدون ما التصق بقشرة أو بأخرى، لكى يذوقوا طعم البامبش».

حضرة المحترم الأخ العزيز

أهدى اليك أطيب تحياتى، وأتمنى أن تكون مع العائلة فى أطيب صحة وعافية.

الرجا إفادتنا عن أحوالكم فى اخصم وطرق المعيشة عندكم وشدة الحر طبعاً، والعلاقة مع الجيران. وهل أن والدك العزيز سائر معكم أم لا من شدة الغارات على بلدنا المحبوب. واليك أخبار الغارة التى حدثت يوم الاثنين الماضى الموافق ٢٣ يونيو، وعدد القنابل، إذا أمكنك حصرها، والمناطق التى ضربت فى هذه الغارة، راغب باشا وغربال وغيط العنب.

وهذه القنابل كلها محرقة ماعدا قنبلة واحدة متفجرة وطوربيد:

قنبلة على منزل ستى بغربال فى المنور الخلفى، وانفجرت وأحدثت حريقاً، ولكنها أطفئت بمعرفة الجيران، ولم يكن بالمنزل أحد، ولم تحدث أى خسارة مادية.

قنبلة أمام منزل ستى أيضاً.

أخرى على المخبأ.

قنبلة على قمة منزلنا.

اثنين في شارعنا، واحدة خلف منزل ستى، وأخري بعده بثلاثة بيوت.

خمس قنابل بشارع الترامواى، من الكوبرى الى تقابل شارع ايزيس بشارع راغب باشا.

واحدة على مخازن الخشب على المحمودية، رواحدة علي كوبرى راغب باشا. وأخرى على وابور الدقيق الذى يوجد على المحمودية، بعد الكوبرى وليس الذي أمام منزلكم القديم.

وما يزيد عن عشرين قنبلة فى ترعة المحمودية.

وقنبلة متفجرة على نقطة بوليس غربال وذهب ضحيتها الجندى المنتدب للحراسة بأن تقطعت رقبته.

قنبلة على منزل خالتى بغيط العنب، ولم تحدث خسائر فى الارواح.

قنبلة محرقة بغيط العنب أحدثت حريقاً فى إحدى الحظائر، والتبن،

وذهب ضحيتها ٤٧ جاموسة.

كما تعرضّ حى أمبروزو إلى قنابل الطائرات هذه الليلة، وحدثت عدة حرائق، ولم تلب فرق المطافئ نجدة الأهالى لقطع المواصلات التليفونية.

وهذا ما أمكن من سرده لك الآن، وسمعت أن المدرسة ستتحول الى مستشفى. منتظر الرد بفارغ الصبر، ولا مؤاخذة لركاكة الأسلوب حيث أننى لست أديباً مثلك، وعرض الله فى مخزنك الذى فيه مجلات الاثنين واللطائف المصورة والمقتطف والهلال وعشرين قصة وغيرها، الذى كان فى منزل خالتى، بلغ سلامى للجميع. وفى الختام تقبل تحياتى.

صديقك المخلص فرنسيس أنطونيوس

الاسكندرية فى ٢٤ يونيو ١٩٤١

وكنا أحياناً نخدع قلوبنا بالرؤى حول الصخر الوحشى الطالع من أمواج الأنواء البحرية وزبد الروح المتقلب.

لماذا يتراءى لى حتى الآن ذلك السلم الرخامى فى بيت سبورتنج الصُغَيِّرة، نازلاً أبداً لا يصل الى الأرض؟

سيلثانا فى سورة يأسها .. بنت السكاريبه الغلمانية.

سعاد السماحى طويلة أنيقة ملفوفة بإحكام. من أرستقراطية بحَرى العريقة، وجهها الناعم العظام مسحوب، وعيناها غائرتان الى الداخل قليلاً فى محجريهما الناتئين، بجاذبية سرية خاصة. تعرف حبى

لصديقتها وكأنما تحفزنى وتبارك قلبى بنظرتها وابتسامتها دون كلام، تزوجت مستشاراً فى الاستئناف، وسافرت الى العراق قبل أن يهجم الناس على السفر، بزمان.

ديسپينا الدقيقة الجسم كأنها دمية أو لعبة، فى قسم الحسابات، متقنة الماكياج دائماً، لا تكاد تعرف العربي، وتتحرك بسرعة ولهفة كأن العالم يفوتها. يأتى خطيبها اليونانى الجسيم ينتظرها على الباب فى تمام الخامسة كل مساء، فتتعلق بذراعه كأنها لا تسير على الأرض.

زيزى التى ظلت عندى بلا اسم ولا رصيد من حب الا الشرف الخاص الذى لم يُستبَح حتى في بارات باب الكراسته وكازينوهات ستانلى.

ست وهيبه التى كنت عندها ابناً وحبيباً تغار عليه من مسافرة الليل دائمة السفر، حتى لتغدر بها وتكاد تسلمها للتهلكة.

اسكندرة التى غرقت معها تحت الكرمة البحرية، وكان شعرها الطويل يتوهج بنور الشموع في رقرقة الموج الملحْ.

إيثيت ساسون متدفقة بالحياة، مدورة الوجه وحنيات الجسم جميعاً، وشعرها كالقسطل النئ تحكى عن سهرة الأمس باستمتاع، ولا ينى جرس التليفون يطلبها فى الشركة وهى جنبى، فترد بلغات الاسكندرية جميعاً، وبكل أنواع الغزل الهامس أو الصريح، الحيّى أو الاباحى، المرح أو الحزين.

مُنَى المعابثة الخفية القلب، تنظر إلىّ بعينى السلحفاة البحرية

الجاحظتين قليلاً الناطقتين بطلب لم أستطع أن أجيبه. وجمالات الشهيدة التى حملت جسمها على ذراعىّ تسرى فيه ببطء برودة الموت.

خالتى وديدة ضاربة العينين ذربة اللسان حانية عليّ، سحرتْ مطلع صباى ملابسُها الداخلية وسوتياناتها المخرمّة والشفافة يتقطر منها الماء على حبل الغسيل.

وامرأة خالى إستر، أغمضتُ عينَى علي فخذيها وحبست دموعى ونمت عميقاً، بعد أن ألقت البنت بنفسها من نافذة المدرسة وسقطت على البلاط أمام بيتنا القديم.

سُمَيّة فتاة الشاعر المحُبَط وبنت الأنجليزية التى انتحر صديقى منير رمزى حباً لها ويأساً من العالم.

وچانين اليوغوسلافية التى اختلس صديقى فيليب نخلة، من أجلها، وهجرته بعد سقوطه، ومات بالسل بعد قليل.

الست نجية ذات الثعبان الكامن بين النهدين، عيونها القبطية فى وجه مرفوع من على تابوت فى الفيوم.

أم توتو، ديانا النحيلة الهفهافة التى وتَّع مطلعُ طفولتى فى شباكها الشهوانية. صدمته المعرفة ولم يطلع أبداً من أشراكها.

ليلى الأخيلية البدوية ذات الخلق فى أنفها المخزوم، والعصابة الحمراء الداكنة فوق جبينها الأسمر الناصع، شامخة الصدر تأتى معها برائحة الغنَم وإيقاعات الشعر الرتيبة.

نفيسة المشحونة بطاقة متفجرة، المتلويّة على التراب بآلام الجنس والمخاض الوهمية الرحيدة الحقّ.

رانة القتيلة فى سيدى بشر، من قتلهَا؟ العاشق الصعيدى الصلب العود؟ طافية أبداً على يَمّ العشق المرتطم.

سوسو تلميذة نبوية موسى التى سترَتُها من المطر المنصبّ، وسددتُ السكة أمام نفسى عندما قلت لها اسمى الذى طالما أنكرته وطالما رن صداه فى شوارعى.

كتبت الآنسة رضا عبد السلام النعناعى فى ١٢ مارس سنة ١٩٨٠ الى «الاهرام»: انهار المنزل الذى كنا نسكنه فى شارع مختار الجندى رقم ٢٢ برأس التين فى يوم ٣٠/ ١٢/ ١٩٧٤. أخذنا غرفة بالمأوى بشارع البيطاس (غرفة رقم ١٠) أننى أعيش مع أختى الكبيرة المطلقة ومع أولادها، ويعيش معى أخى .. ثلاثة أسر فى حجرة صغيرة لا تسع أكثر من ثلاثة أفراد، مما ترتب عليه وفاة والدتى متأثرة بآلام الروماتيزم نتيجة الرطوبة الشديدة بالغرفة».

كانت المظاهرة قد خرجت من الفابريكة فى آخر شارع كرموز، أما الطلبة فقد كانوا قادمين من ناحية محرم بك، وكان طابور عساكر بلوك النظام، قد اصطفوا فى مفترق الشارعين الكبيرين، غير بعيد من الكنيسة الأنجيلية المبنية بالطوب الأحمر، معلقين فى أذرعهم الدروع الخشبية الخضراء، وفى أيديهم البنادق القديمة الشكل الطويلة الفوهات.

وكنت قد سهرت طول الليل أتنقّل من باب سدرة الى شارع الهرامسة الى سيدى كريّم، أمرّ على زملائنا القلائل من عمال الفابريكة، فى بيوتهم التى أقاموا فى أحواشها أو فى الشارع، حتى أمامها، أفراناً صغيرة وكوانين، وتجرى فيها الفراخ والبط الصغير، نقلوا اليها عيشة الفلاحين.

أما الطلبة فقد قلنا، فى اللجنة، إنهم مسئولية قاسم اسحق. نمت لى ساعتين ثلاثة، ونزلت الشارع مبادراً، كان علىّ أن أرقب تحركات مظاهرة الفابريكة، فإذا جد جديد نفذت من عند دُحديرة الفخرانية لكى أنهى الأخبار الى قاسم اسحق عند آخر ربوة العباسية على القمة. كان هذا الترتيب صعباً ومجهداً وغير كفء، ولكنه كان كل ما فى وسعنا من حيلة، فليس عندنا حتى دراجة.

كانت الشوارع قد أقفرت وخلت فجأة، بعد أن كانت الجماعات القليلة العدد قد بدأت منذ الصباح الباكر تطوف بالحى وتنشد، «بلادى بلادى» و «أماماً أماماً جنود الفدا .. وسيروا الى النصر تحت العلم ..» ثم تقول «سلاماً بلادى وعاش الوطن»، بدلاً من «عاش الملك». كان ذلك أيامها مما يشارف الثورة، وجرأة غير محسوبة العواقب. وكان المتفق عليه بين ممثلى اللجان والجماعات المتحالفة أن تبعد هذه الجماعات، ثم المظاهرات نفسها، عن الهتافات المباشرة والصريحة حتى لا تُستَفز القوات التى كانت متكومة على المفارق فى لوريات بلوك النظام الحكومية،

ولوريات نقل البضاعة المؤجرة من الأهالى، على السواء.

ومع ذلك كانت بعض الجماعات تهتف: الله أكبر، القرآن دستورنا، والرسول زعيمنا. أغلقت الدكاكين أبوابها، وأنزلت المصاريع الحديدية، وكان الترام يتأرجح مترنحاً فى شارع راغب باشا الموحش الآن ليس فيه ركاب كل يوم، بل احتله المتظاهرون يهتفون، وفى أيديهم الأعلام الخضراء بنجومها الثلاث، اضطربت الهتافات وأختلطت: الجلاء الجلاء، الحكم حكم الشعب، يسقط الاستعمار، يسقط الاستغلال، يحيا اتحاد الطلبة مع العمال، الجلاء التام أو الموت الزؤام، يسقط صدقى يسقط بيفن، العزة لمصر، الله أكبر، اسماعيل كان صدّيقاً نبياً، يحيا الشعب، العزة لمصر. كانت المظاهرة قد خرجت عن كل تخطيط وتدبير.

كانت الجموع قد بدأت تُقبل من كرموز وتقترب من محرم بك، وهتافات الطلبة تأتى من بعيد، غير واضحة ولكنها هادرة الصدى، وأخذت الهتافات هنا تنتظم وتحتشد ويقوى جسمها. تهزّ القلب، لها دويها المتموج الغريب فى الشوارع الخاوية، لها سلطة وسطوة.

سمعت أوامر قصيرة غير واضحة، وفجأة ترددت فى الهواء طلقات الرصاص، تناثرت أولاً، كأنها غير مجدية، كأنها دقات جانة، لا خطر لها، تضيع فى الهواء. ورأيت فى وسط الناس اثنين، ثلاثة، يهتزون، ويسقطون بهدوء. وكأننى لم أعد أسمع أى صوت، وكأن السكوت التام قد حل فجأة. رأيت صفوف الناس تضطرب وتلتئم، تهتز وتتجمع، تنتشر

وتحتشد، ثم تتمدد ويتهاوى انتظامها. وكان العساكر راكعين على رُكَبهم، والضابط وراءهم على الحصان، يرفع مسدسه. وكانت البنادق الطويلة الفوهات مسددة الى قلب الجموع. ورأيت الناس يحملون على أكتافهم وبين أذرعهم من يسقط على الأسفلت، ويجرون بهم فى اتجاه الحوارى الضيقة المتفرعة من شارع ١٢ وشارع راغب. انفرط عقد الصفوف، وخلت المفارق تماماً. لكنى اندفعت إلى وسط الشارع فجأة دون أن أعلم تماماً ما أفعل. رأيت جمالات أخت مُنى التى كانت تسكن بيتنا فى حارة الجلنّار تسقط على الأرض. كان وجهها أبيض باهتاً كالعجين، ذراعيها قد انطوت تحت جسمها الذى ارتطم بالأسفلت دون صوت، وانحسرت جيبتها عن فخذيها، ورأيت أن فى قدميها فردة حذاء واحدة، وقدمها الأخرى حافية ومكشوفة.

مازلت أحس بين ذراعَى جسم جمالات السخن الهامد الآن، خيط من الدم يسيل ببطء من ركن فمها، عيناها الجميلتان مفتوحتان ان ناطقتان بالدهشة. فيهما نور الحياة الذى تصورت أنه لن يخبو أبداً. لكنّ الموت لم يكن جميلاً. كنت أحس جسمها منفراً في ثقله وهموده وانحسار الحياة عنه. قلت لنفسى لعلها جريحة فقط، وغائبة عن الوعى فقط، وستعود. ولم أقتنع. كان يحملها معى، من الناحية الأخرى، عامل من الفابريكة كما هو واضح من شكله وتصرفه. ماذا قلت له؟ هل أذكر أنا؟ جرينا متجهين الى بيتها. لم أكن أعرف هل مازالوا يسكنون هناك،

لكنى تحركت دون تفكير. عندما فتحت لنا أمها الباب أحسست نفسى أسقط على الأرض. كان كل شئ أسود حالك السواد، فيه ومضات حمراء خاطفة من وراء جفنى المغلقين. وفكرت بمرارة أننى الآن فى المدخل المعتم الذى طالما عرفته فى صباى، عرفت فيه القبلة المخطوفة على الخد منّى، وذراعى حول وسطها. وكنت أنهج وأشهق ولا أكاد أتنفس، أحس صدرى ينفجر طلباً للهواء، وكنت غاضباً لأننى أنا مازلت لا أملك الا أن أجاهد فقط لكى أتنفس. أنا مازلت أعيش، أنا مازلت أواصل الحياة.

شرارة فى طرف نسيج السماء تشعل الحريق، السماء مهيضة لكنها تمور، دوامة تجرف معها أنقاض الذكر الطافية فى الغَمْر المُرَغّى الصمرت، إعصار أخرس محبوس. ألم تقف هذه الدموع، ألم تنتضِ؟

الشوارع تنشعب عن محطة الرمل القديمة إلى مسارات لها، تحفّ البحر وتشارفه، أراها من شرفة «كازابلانكا» الزجاجية العريضة، وحمرة الشفق تسرى فى السحاب الذى ينسال بنار بطيئة على الأفق، يسقط على قلعة قايتباى. يُمِضّ قلبى بحسرٍ من الأشواق القديمة. أما الموت والحياة والعدل والمحبة. وأقنع نفسى، فلا شك لها قيمة. الشمس التى تغمر جدران البيوت المرصدة على الكورنيش، وزرقة البحر الشاسعة لا أعرف لها حقيقة، لا أرى فيها نوراً، فهل تأتى من نجم غريبٍ أشواق الليلاب التى صَوَّحت وسقطت، والحلم المحبوط والحب المنكور، كأنه لم يعد هناك إلا توهج هذه الدموع المخبوءة فى الليل؟ فلماذا بعد أن

انقضتْ أعلنها الآن؟ محطة الرمل بخامرها غسق المغيب، صرتك قد ضاع منّى بينما هواى لا يبيد.

مادلين وميريام الأختان اللتان لا تفترقان، كانتا تمران فى محطة الرمل، وننتظرهما من نافذة على كيفك العلوية أو من «كازبلانكا» تتلفت خلفهما كل الانظار، شعرهما الأسود، كلتاهما، منسدل مسترسل على الظهر، وإذ تسيران لا تكادان تُحركان ذراعيهما. وفى تلك المشية المتصلبة الثابتة الجسم، السيالة مع ذلك، سحر آسر لا يفلت منه أحد. مادلين تزوجت وهاجرت الى أمريكا، ورأيتها بعد ثلاثين سنة فى فلوريدا، كهلة ناضرة لم تتغير عيناها، وجدّة مرحة. أما ميريام فقد أحبت يهودياً من كندا، وعاشت معه فى تورنتو، لم تتزوج قط، ولم تخلف، ولم أرها قط بعد.

أمّ درلت جارتى التحتانية التى كانت تراسلنى، فى قلب صفحات روايات الجيب: «حبيبى يا أعز حبيب، لا أنام الليل حتى تعود فآوى الى فراشى أحلم بحبنا».

ومادونا غبريال الصامتة، مازالت تشرق علىّ فى الحلم، بنورانية لا تندثر.

خالتى سارة التى تكبرنى بسنين قلائل، ألتصق بها بالليل على فرن القاعة فى خريف الطرانة البارد. وتراودنى كل بنات ألف ليلة وليلة من بغداد الى سمرقند.

وكاترينا الشجرة التاسعة المزدوجة المثمنة ترنيمتها لا تنتهى.

إيفون نقاش فى مدرسة فَكس بعد الظهر تتعلم الفرنسية، وينفتح لى نهداها فى رؤياى أمام هَبَّة الهواء الخفيف من البحر، فاكهتين مترعتين بعصارة غنية محجوزة.

وفتاة الروب الحريرى الأزرق فى شرفة بيت محرم بك، لغزاً دائماً لا مدخل إليه.

ستيفو اليونانية ثدياها هائلان وفَتيّان ومهاجمان، وهى مع ذلك رشيقة الخطو خنيفة الايقاع مفترّة الثغر على الدوام. صديقى فريد اسكاروس يسميها «البقرة» باللغات الثلاث، يُنتشر اللقب فى الشركة وكأنها استطابته فلم تغضب ولم تعبس فى وجوهنا، بل لم تبخل علينا بنظرةٍ باسمة بين الحين والحين.

حيينًاها، كنت قد تزوجت من سنة واحدة بالضبط، ونحن ندخل معاً محلّ مانوليديس فى الابراهيمية، لنشترى خبز عيد القيامة المخصوص المعجون بالبيض، وفى داخله عمله فضية من بخت الذى يجدها. والتهانى بالفرنسية والعربى، وجو العيد البهيج فى صباح سبت النور هو أيضاً نعمة رلتّ ولن تعود. وذهبناً بعد ذلك الى موناخوس علىً القمة الثانية واشترينا دستة جاتوه مشكّل بربع جنيه، لأننى تركت البقشيش للعامل الأسمر ذى المعطف الأبيض الناصع. وكان صاحبى بيّاع الصحف السفروت الصغير يصيح: أهرام جمهوريه تاشودروموس بروجريه أهرام،

وهو يتواثب فوق قضبان الترام الذى يجئ من بعيد يجلجل بجرسه جليلاً ورشيقاً معاً، أزرق نظيفاً، والناس تطل بفرح من دوره العلوى.

أوديت المتحفظة، خفيضة الصوت، عندى معها ميعاد، أهتف بأختى متذمراً ضيق الصدر.

- عايدة، أنا مستعجل فين القميص؟

فتنزل جرياً، بالشبشب وجلابية البيت، وتعود بعددقائق خاطفة وفى يدها القميص المغسول المكوى، ياقته منشّاة. المهندس قد الدنيا الذى يعمل الآن فى المتحف اليونانى الرومانى عنده بالضبط ثلاثة قمصان وبدلة فاتحة وبدلة غامقة. وما أن يعود من الخارج، كل يوم على الله، مبكراً أو متأخراً على السواء، حتى تغسل له أمه أو أخته عايده قميصه، وثانى يوم بمجرد أن ينشف القميص تذهب به الى المكوجى، حتى يعود بالياقة البيضاء المنشاة.

أمشى من شارع راغب باشا الى سينما فؤاد، لألحق حفلة الساعة ٣ بعد الظهر، حريصاً على أن يظل الحذاء لامعاً. وأجدها بالفعل منتظرة فى ردهة السينما، شعرها ألاجارسون، مترددة الابتسامة، وتقول لى:

- عجبك التايير الجديد؟ لبسته لكَ مخصوص.

وتمسك بيدى فى عتمة السينما، فأضع يدى على حجرها أحس نعومته. ونذهب بعدها الى السكارابيه فى ستانلى بيى، نأخذ شينزانو أو مارتينى - جاف جداً - على زرقة البحر الشتوية. هذه الفُسحة

تكلفنى كل ما فى جيبى. ثانى يوم سوف آخذ الجنيه السلفً المعتادمن صديقى أنطوان، الذى كان يشتغل معى من سنين فى مخازن البحرية البريطانية فى كفر عشْرى، وكان هو، شقيق أوديت، لا يعرف، أو لعله يتجاهل (لا أعرف) أننى أواعدها، وأنا لا أجد فى ذلك أى حَرَج، وإن كان يطوف بذهنى حس ما بالذنب الطفيف.

أما أختها آرليت السامقة الطول المتهدلة الشعر، التى كانت تنظر الى دائماً بانتظار وتساؤل دون كلام، فقد قبّلتها مرة واحدة فقط على خدها، بعد أن شربنا في ليلة الكريسماس، وسقط شعرها على وجهى. ولم أقبّل أوديت أبداً على فمها الذى طالما اشتهيته، وما عرفت طعمه قط. سافرت آرليت الى البرازيل، وتزوجت قريبها الشامى البرازيلى رجل الأعمال، وانقطعت عنى أخبارها وأخبارهم كلهم، بعد سنين قلائل.

بعد ١٩٥٦ سافر الجميع تقريباً الى أثينا وروما ومارسيليا، إيفيت ساسون ومارسيل صدوق، ستيفو أورفانيديس، وديسپينا ستاماتوبولو، ريتا وزوجها بيساس، أنا ستازيا وزوجها ديمترى كامبانيس، ماريا سيمونيدس العجوز القوية، وچانين بيركوفيتش، مادلين وميريام وأنطوان وأوديت وآرليت، ولكن چورج سيكريانيدس رفض السفر، ورأيته فى آخر السبعينيات خارجاً، فى الصيف، بنصف كم بمشية العجوز النشط، من قاعة البلياردو فى شارع صفية زغلول.

نعمتى الباقية، موطنى وملاذى فى غربتى الدائمة، ماستى الواحدة

الوحيدة فى «أتينيوس» شارع فؤاد. أصْباح، قائمة كالشهود، لاعداد لها، موسيقاى تعلو وتذوب على جدران الروح. بائع الصحف أمام حلوانى «بودرو» يمد لى يده أبداً بصحيفة من غير تاريخ، قشعريرة نار الندى سورة حميا اليأس والطلب والشجَى معتم النيران، جاتوه ألف ورقة، وأصابعى المشفوفة ترسم نداءها على وجنتيك ألف مرة، وتقف على حفافى شفتيك، المحطة الأخيرة فى كليوباترا الحمامات، توكاتا ونوج باخ عمل ٥٤٥ مقام فاكبير، نباتات متّلوية على جانبى عنقك، هذيان السُكر بموسيقى جسدك وشفتاى على الندبة الصغيرة تحت أذنك اليمنى. أنت معى، لا اختيار لى. يابنت أسكندرية الواحدة مهما كنت كثيرة. كثيرة علىّ. تلجئيننى الى الصمت. وهل هناك فى الآخر والا الصمت؟ مهما ظلت أغنياتى الأسكندرانية صادحة الى أبد الآبدين.

آه يابنات أسكندرية، والشفاه السكّرية.

هل العالم قد امتلأ بالأمس؟ والأمس فيض؟

شباك الصيادين مفرودة على حجر الكورنيش المنخفض، مفسرلة تفوح برائحة السمك، وقد ركعوا تحتها، بأجسامهم الناحلة المنترلة، وثيات اللباس الاسكندرانى الأسود ملمومة تحت جلدو السيقان الجافة، يرتقون قطوعها بإبر طويلة ترمض عندما ترتفع وتنخفض بين فتائل الشباك.

شبّك حبيبى شبّك.

القارب الصغير، مشدود الأضلاع، يقف على سيف البحر، عند الخط الفاصل بين الرمل والماء، يمسك دفته القردُ الآلهى العاقل، مدموك البنيان.

التامات الأنثوية الرشيقة، أراها، فى عكس النور، مجسمة سوداء، والنهود ثمار أخرى لامعة الجلد، ناهضة بعصارتها الكثيفة المتماسكة.

تنزلق الحمائم الداكنة منسابة، بالكادِ تماماً علي سطح البحر.

هل نزل البحارة بخناجرهم العريضة، وذهبوا بهنّ الى سفينة إسبانية جوانبها مصفحة برقائق الذهب، غارقة محمّلة بكنوز القراصنة القدامى؟

ما الذى يهفهف خلف القلعة العريقة التى لا يكاد الزبَد النقى البياض يرغىّ تحت سفحها؟

أراه من فوق حافة «مارى الدامية» وأوقن أنه ليس ثم شئ.

كل شئ سوف ينقلب بين لحظة وأخرى الى نقيض ما يبدو عليه.

القارب السحرى مركب سمك فقير عاد به الصيادون الى المرسى بعد كدح ليل طويل في تبضة المرج. تتزاحم بنات الأنفوشى وبحرى ورأس التين عليه، والستاتِ التُخان بالملايات السوداء النازلة من على الأكتاف المدورة، تبدو منها قمصان النوم غير النظيفة تماماً، عارية الاذرع والنحور، ليأخذن منه بالرخص شروة سمك ملء القفة، ملء الحلة من السهارى والشرِ الصغير، أو ملء الكروَانة جمهرى عاجىّ الجسد.

السفينة السحرية شراع مبسوط فى نسيم الصباح، تُردُّ جناح حمامةٍ

بيضاء، تحلق وحدها فى سماء الإشارات، سبحةُ صبابة، وجدٌ لن يبقى منه أثر.

أترقب، وأتوجّس خيفةً من الزوال والدثور، ملهوفاً أمام دوران دراما لا سيطرة لي عليها، لا أدرى عمّ تتمخض فى أية لحظة. أحس رفرفة فى داخلى لا أعرف أن أهدئها، ولا أريد أن أطَامن من روعها.

وأعرف أن هذا كله قرين البلىِ، وأن العطب لا محالة مدركى، والتهلكة.

النخلة النجرانية كان مرآها خلسة على الشاطئ المزدحم فى المعمورة مضضاً وتعذيبا صراحاً. لم تكن ترانى، ولا عَرفت أننى كنت أراها، تحت مظلات البحر العريضة المتقاربة. كان حولها رجالها - كالمعتاد - سُمراً مفتولى العضَل، على وجوههم سيماء السلطة والفلوس، وهى مسيطرة - كالمعتاد - على الكلّ، بالأنوثة المتفجرة التى تبضّ من كل مسام جسمها، حتى وهى بملابسها الكاملة على البحر. وحديثها، شهرزاد السحّارة الأبدية، والرجال مسحورون أسْرى سِيرسيه أرواحهم نفوس خنازير. القطة اللبوءة سخمت بست من أحراش القاهرة الفاطمية وأنقاض الشرقية ونجع حمادى. قالت إنها تعلمت فى كلية فيكتوريا للبنات فى الأسكندرية، ولكنها ظلت دائماً غريبة على الأسكندرية. سيدة الآلام الجنسية وسورات المباهج الحسية. ورقة قلبها؟ فيم قسوتك على المرأة الفردوسيّة، التى رشفتَ من سلافتها النكتار المصفى، ومنحتْك من حبها

وحنو صدرها مالم يمنحه بشر، ما يحميك أبداً من جرح العالمين؟

النخلة السلطانى، سامقة ملساء الساق، سمرتها صافية، خُصَل السعف خضر مدببة طويلة أسنّة العيون الناعمة، فيها شراسة، وما أعذب استنامتها الى التمسيد وطيب الملامسة، وادعة وهى تنوس فى حضنى تتلمس الأمان، وتستثير دَفق ينبوع العشق، قريبة جداً من العينين، من الصدر، من عمود الاشتهاء. يتتابع النخل القصير على شط المحمودية كأن طريقه يفْضى الى سيرابيوم فردىٍ خاص، أو الى الكرنك الأسكندرانى الشخصّى، الذى لا يفتأ يقوم بأعمدته الصرحيّة وينقض باستمرار. نهداها المدوران محملان بأسباط البلح الرطب الأسود المسكر الحلاوة لا تشبع شفتاى من مماسته وامتصاص سكرهً، شماريخها العظمية المستديرة تنبثق عنها غدائر الغواية بلا انفصال، والأشعة تتخللها شمس طعنتها، أسنان نباتية صلبة وغضة معاً.

جمالهادائم.

وعتيم.

وعندما ذهبت الى قلعة قايتباى فى الانفوشى، وكانت مهدمة وأحجارها مرمية، كان النخل السلطانى قد جف واحترقت أعمدته، سوداء، ذؤاباتها ذابلة مهتدلة، وأوراقها العريضة مصوحة، فأين غابات النخل البلدى المفرح الخصيب، وأعذاق البلح الأحمر البهيج؟ متى غرق تحت رمال سيدى بشر وآكامها المنهارة؟ تحت ضوء القمر كانت أشجار

النخيل البلدى متقاربة، تلقى على جسد الرمل الهش اللدن ظلالها، التى تميس علىَّ بموسيقية هامسة خاصة لا تكاد تحس، فى فضة الكوكب السحرى المعيود. أما في عز الظهر فقد كانت ملاذى فى حر أغسطس، وكانت الأنسام تهب بعطر خفيف من السعف الفضى تحت الظلال المشمسة الهفهافة، نشوة للحس وللقلب خالصة.

لا اختيار لى.

على الكورنيش فى آخر رشدى باشا، سلالم حجرية - أحسها الآن تحت قدمىَّ - منحوتة من البازلت، تنحدر الى أول شاطئ ستانلى.

على شمالى، وأنا نازل السلالم: ساحة صغيرة أمام كازنيو رشدى الخارى دائماً حتى فى عز الصيف، والى يمينى جدار عال عريض، مصمت، يسحرنى، ليس فيه نافذة أو فتحة من أى نوع. فى لون الكريم، تنمو عليه وتلتصق به تعاريج نبات داكن الخضرة، نضر، كثير التفاريع.

أجد فجأة أننى أصعد، بسرعة، هذه السلالم الصخرية.

وأجدها فجأة ضخمة جداً، شاهقة، وعرة المرتقى وخشنة الملمس، حوافها المدببة تحوطنى من كل جانب، وقد أصبحت الصخور أعرض وأكثر تهديداً وخطراً كلما ارتفعت. لا أنظر الآن تحتى، ولا ورائى. مازلت أتسلق هذه الوعور الفسيحة الضاربة فى السحاب، البحر، تحت، سحيق.

وجدت أنني وصلت إلى ذروة سامقة في قلب السماء.

لا أستطيع أن أهبط، شُلتّ قدماي. وقفت لا أتحرك، والخوف قد استبد بي أن أتعثر، فأتدحرج متقلباً ممزق الأطراف على هذه السلالم الحجرية الشاسعة، الشائكة الأطراف. قاتلة.

كانت الڤيللا التي يحدها الجدار المخضوضر مبنية على الربوة المتدرجة في طبقات من المعمار المترف المعتنى به، تطل على الكورنيش من ناحية، وعلى البحر من ناحية أخرى. ولها حديقة مورقة الشجر غنية النباتات، كنت أستطيع أن أرى ما فيها اذا شببت قليلاً وأنا على أول درجة من السلالم البازلت. أريد أن أثب من على سورها الحجرى فقط لكي أقف قليلاً فى الحوش، أو الممر، المبلط النظيف. أوراق الشجر الخريفية الساقطة - كل ورقة بمفردها لها كيانها - على البلاط الأبيض، الذَهب الباهت المصحون من فتات أوراق الجزورينا الصفراء منتشرة على الرخام الممسوح المضئ. وأشجار النبق والزيتون، ونخلة ملكية واحدة تنبثق برشاقة كاملة الى السماء مباشرة، من داخل الاطار المُدور المشغول الذى يحيط بالأرض الطينية الغنية.

فى العالم صفو الأبد كأنما برئ من الزمن، والاسكندرانيّة السمراء الصغيرة النقد منمنمة القسمات، كأنها بنت مازالت خاماً، وفيها جسارة العذرية المفلتة كصبّار غضٍّ الشوك. والأشجار الطويلة المسحوبة بيضاء القامات، لها حفيف بارد فى ساحة جليمونوبولو المستديرة، ونحن في

طريقنا الليلى المتلوى من الشُرب الي الغرفة الزجاجية في ستانلى بيى. وهى بيننا، فيليب النحيل الطويل العظمّى الوجه، وتوماس السمين قليلاً بكرشه الصغير الراضى عن نفسه، ورأسى يدور ويعلو ويفور غاضباً وساهماً وحالماً ومنطوياً على قرارٍ داخلىٌ لم ينضج بعد.

أنزلُ بخفة وفرح الليل على عمود النور المتقد بالغاز المهتز فى زجاجه السميك المضلّع، أمام بيت خالتى حنونة فى شارع سيدى كريّم. نور الغاز يضطرب، وابن خالتى وطراط ينزل بعدى على العمود بجسمه المرن وقد انحسرت جلابيته عن رجليه اللامعتين اللتين بلون القهوة باللبن، واللتين هرستهما عجلات الترام فى الصيف بعد ذلك بقليل. ولمجتى الواحدة تومض تخبئ لى مصيراً غير سار. وفى نور النجوم، الإبر السماوية، يخلع الأولاد ملابسهم كلها ويكورونها فى لفّاتٍ ملمومة على الأحجار المكعّبة المصنوعة باحكام. أجسامهم تزداد سمرة ونتوءاً فى عريهم الكامل الليلى، ونحن نساوم البنت البردانة، الجوعانة برضوح، مساومةً قاسية على قروشنا القليلة، وفينا من شهوة الإذلال والانتقام مالا يخفى على صحونا الذى يغيّم عليه أوار البيرة من عند «لورنتوسْ» فى صفية زغلول جنب سينما ريالتو.

وعُرضت على محكمة جنح المنشية اليوم منعقدة برئاسة الاستاذ محمد حافظ قضيةٌ أتهم فيها شخص يدعى فتحى السيد عباس بأنه فى ٥ مارس سنة ١٩٤٦ أتلف عمداً سيارة للجيش البريطانى بأن صب

عليها بترولاً وأضرم النار فيها. وقد قرر القاضى تأجيل النظر فى هذه القضية الى ١ يونيو وإحالتها الى محكمة الشؤون المستعجلة المختصة بحوادث المظاهرات، بعد أن أثبت نقيب المحامين بالأردن أن ما نُسب للمتهمين يجب أن يقوم به كل مواطن عربى. فقد تعلم أبناء الشعب العربى ضرورة لفظ ومحاربة وقتال الاحتلال الاسرائيلى بكل صوره ورموزه، وما نسب لأبطال «ثورة مصر» أتمنى أن أكون مشاركاً بمثله.

كتبت صدف عبد العزيز بالابراهيمية، الاسكندرية، فى ٢٨/ ١١/ ١٩٧٥.إلى الأهرام»: «عندما طلقنى زوجى منذ ٤ سنوات، وقذف بى وبأطفالى الخمسة منه الى عرض الطريق، بلا مال ننفق منه ولا قوت يسك رمقنا، تجمدت الدموع فى عيني: أليس هو الرجل؟ ألست مجرد أنثى يراها أحد الرجال متعة له، حتى اذا زهد منها ألقى بها بعيداً كما كان يتخلص من نفاية؟ الى أن حصلت بعد عناء على حكم نفقة شهرية من أجل أطفالى، لا تكاد تكفى سد أفواههم أسبوعاً واحداً. لم أستطع الى الآن تنفيذ هذا الحكم، حيث اجراءات تنفيذ الأحكام بالغة التعقيد، كما أن الدولة لم تضع الى الآن نظاماً يؤدى الى تيسير تنفيذ أحكام النفقة دون تلك العقبات التى لا حصر لها. ولقد سارعت الى العمل كخادمة، أتصد باللغة التى يتداولها السادة المهذبون «شغالة» نظير أجر يومىّ يقتضينى أن أعمل يومياً بلا توقف، حتى أنى لا أعرف مذاق الراحة لى كى لا أحرم أطفالى من أجر اليوم الذى قد أتغيبه عن العمل

.. ثم - وكل الفضل لله - توفر معى ثمن بضعة أمتار من الكستور تكفى لتفصيل ثوب لكل من أطفالى قبل حلول برد الشتاء القارس حيث توجهت الى المتجر الشعبى فى حى كامب شيزار كى أشترى القماش، لكنى فوجئت عند دفع الثمن أنى مجبرة على شراء زجاجة حبر .. ذهلت .. قلت لست فى حاجة اليها، ان اطفالى يستعملون فى كتابة دورسهم أقلام الحبر الجاف .. لكن السادة العاملين فى المتجر أصروا على أن أدفع ثمن زجاجة الحبر والا امتنعوا عن تسليمى القماش؟ دفعت مرغمة حتى أتجنب ما يؤذى شعورى، لكننى بكيت غيظاً وكمداً كما لم أبك من قبل».

قبل أن أعتقل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ كنت قد أجّرت، باسم مستعار، غرفة فوق سطح بيت من أربعة أدوار فى شارع متفرع من عرفان فى محرم بك. فى الأربعينيات كانت الأمور أسهل، كان شارعا جانبياً هادئاً ومظللا بالشجر العريق. كان بالغرفة سرير نقّالى قديم، حديد، صدئ رسلته هابطة، ولكن المرتبة جيدة والملاءات التى اشتريتها بنفسى نظيفة فلّ، ودولاب ملابس ضلفته غير ثابتة وغير محكمة، وضعت فيه الكتب والدوريات الماركسية والتروتسكية التى أطلبها من الناشرين، فتأتى إلىّ من أوربا وأمريكا على صندوق بريد فى البوستة العمومية فى المنشية، وأصول المنشورات والمخطوطات الثورية، والمجلات والكتب التى اشتريناها من مكتبة شوارتز فى شارع صفية زغلول، ورَصص

النسخ المترجمة بالمئات من قصص جوركى وتشيخوف التى نشرناها على حسابنا من ترجمة فوزى المرّ وشفيق راقم.

وضعتُ فى الدولاب أيضاً ثلاث تنابل يدوية إيطالية من مخلفات الحرب، ومسدس باريتا صغير، صادرتها، باسم اللجنة، من أحمد النمس بعد أن أقنعته بأن الارهاب الفردى عمل عقيم، وأنه لا جدوى من قتل كبار الرأسماليين المستغلين لأنهم طبقة وليسوا أفراداً. ومن ثم فإن «الإرهاب» الطبقى الجماعىّ الذى يمارسه حلف الطبقات والفئات المستغلة المقهورة هو الديمقراطية الوحيدة الحق. وكان النمس إخوانياً فى الأول، وظل على ولائه للعقيدة التروتسكيّة حتى بعد أن طوحت به الأيام وكتب لى بطاقة بريدية - قبل أن يموت بقليل - فيها كل وحشة العالم، ووحشيته.

أشتريت فازة كنت أضع فيها زهوراً يهديها إلىّ جناينى فى البلدية كنت أريد أن أجنّده فى الحركة، أو أغصاناً رفيعة يابسة متلوية أجمعها من على الرصيف، وأتصها على نسق خاص أرى فيه جمالاً خاصاً، فقد كانت عقيدتى فى الحياة أن الثورة لا يمكن أن تستغنى عن الجمال. وفى الوقت نفسه كانت الزهور والأغصان تنفع فى التمويه على الجيران، فيظنون أننى رسام أو غاوى فنّ، كان فى الغرفة مع ذلك صندوق الجستتنر البدائى الزجاجى وأسطوانته المطاط، وكومودينو، وأباچورة.

لم يكن فيها لا كرسى ولا كليم ولا حصيرة ولاشئ. كانت عارية

جداً، ومع ذلك عامرة بنَفَسٍ حميم شخصي جداً وغير شخصي في آنْ، ولم يكن يعرف عنوان هذه الغرفة الا قاسم اسحق النوبّى المعجباني اللامع الذكاء، الذي أحببته ثم ترك جماعتنا وانضم الى حدتو، ومات بالسرطان بعد أن قضى نصف حياته في السجون والمعتقلات. ولكن المفتاح ظل معي. ولا أعرف ماذا حدث للكتب الثمينة ولا للأسلحة ولا للزهور، بعد أن اعتُقلت أنا وقاسم اسحق معاً.

عندما رأيتها فجأة في شارع عرفان كدت أختنق في صدمة التعرف دون تردد لحظة واحدة. وذهبت إليها على الفور، وعندما صافحتها وجدت يدها رخوة في يدي، ساقطة لا عصب فيها.

كانت جاكتتها الزرقاء التروواكار منسدلة على فستان حريري بدا في عتمة الشارع كأنه أحمر داكن، وخمنت أنه مصنوع من قماش البراشوت الذي كان يباع بالرخص في زنقة الستات، من فضلات بضائع الانجليز التي ركدت بعد الحرب في المخازن.

وعندما صعدت معي الأدوار الأربعة كانت تنهج، وتعلقت بذراعي على السلم، وخيل اليّ أن العيون المتلصصة كانت تحدّق إلينا من وراء الأبواب المغلقة. كانت الغرفة باردة جداً في ذلك الشتاء، وعندما رددت الباب خلفي وجدتها في حضني، كان ملمس شفتيها الرقيقتين غضاً ودافئاً في البرد، كانت شفتاها متحركتين وحيّتين. هدأت رعشتُها بين ذراعيّ، ووضعت ذراعها فوق جانب وجهي تغطيه كله، ولم أعد أسمع

من العالم الا غمغمة جسمها المستند بخفة على جسمي.

كان نور الأباجورة يأتي خفيفاً ومشاعاً، من جنب، نبضٍ بقعة من الحائط الأبيض، ويلتمع فيه ركنْ السرير الناصع المسوّى، ويسقط على عبّاد الشمس الذي جف ماؤه في الزهرية، وصوحت أوراقه المتشممة بتماسك صعب لا ينفرط. أما سائر الغرفة ففيها عتمة مرية لا تكاد يبين منها الإطار الخشبي المزدوج الذي يحمل صورتين مقطوعتين من الكتب، من غير زجاج: ألبير تصيري وليون تروتسكي.

عيناي تحدّقان بالعينين النجلاوين الفاحتين القريبتين جداً منى، غائرتين الآن قليلاً، حولهما تجاعيد رفيقة جداً في الجلد الأسمر الأصيل، وكأنهما لا ترياني لأنهما تحيطانني بوجهها الثابت الصلب. ولكنها كانت في حضني حرية غير مبرزة، ونسياناً لجسمي.

كنت قد خرجت من المعتقل، قبل آخر دفعة، من سنتين فقط. أصدقائي في العمل الثوري كبروا وتخلوا عن حماسات واندفاعات التمرد. كانوا في الأول يتجنبونني، حتى تيقنوا أنني أيضاً قد يئست من الحكاية كلها. بل لم أكن أقرأ الأهرام حتى.

كانت پارلا تقف على الباب، كأنها تنظر الى داخلها هي، لا ترى في الخارج شيئاً، غريقة في النور الباهت الساجي، غارقةٌ في سكونها، قبلتْ هذا الغرق تهبط أبداً إلى القاع بلا وصول ولا قرار.

كنت أعرف أن أنطونيو، زوجها الفتى القوي، يحبها كارثة التي

تقارب أختى الصغيرة سناً، نائمين جوةً على السرير الواحد الكبير.

كنا، بعد أن مات أبي الآن من سنين طويلة، نتحايل على المعايش بتأجير غرفة وأحياناً غرفتين من بيتنا، فى الصيف، بالأسبوع أو بالشهر أو طول الموسم حسب التساهيل.

وكنت عندئذ أشتغل مساعد ورشة فى شركة الباتنيرل الفرنسية المصرية التى كانت تبنى ميناء الدخيلة. أنزل من البيت السابعة إلا خمسة بالدقيقة كل صباح، أكون قد نمت لى ساعتين ثلاث ساعات، بعد أن أكون سهرت أقرأ الروايات الأمريكية والشعر الفرنسى. كنت عندئذ أقلعت عن العمل السياسىّ الثورىّ من زمان، وهجرت طُهرانيّة الثورين، وتعلمت السُكر والنَّهم الى التدخين والسهر فى الفريسكادور، بعد الصعلكة فى الشوارع وغير الشوارع، الى ما بعد نصف الليل. وكنت أحب نعمتى الباقية حباً ممزقاً وممضاً وجائحا، وأواعد أوديت على السينمات أو على باستروديس، ولا أفعل أكثر من أن أمسك يدها في عتمة الفيلم أحياناً، وأقبّلها على خدها عند اللقاء أو عندما أقول لها «الى اللقاء» أحياناً، ودون أن أعدها، صراحة، بأكثر من ذلك على أى الأحوال.

هل كانت پارلا تقارب الأربعين؟ فتية وفوارة الجسد، فى ذلك الصيف، كأنما تهاجمنى بأنوثتها الوفيرة، فى الصبح، تأتى على الإفطار، عارية الصدر تقريباً تحت البلوزة الخفيفة المتهدلة التى

تجارب، ساقطة على ثدييها المليئين، مع شعرها المسترسل الذي يسيل بنعومة وكثافة على كتفيها الشامختين.

كانت أسكندرانية، أصلها من العطارين، ولكنها تزوجت أنطونير صاحب الجراج وورشة ميكانيكا السيارات فى الظاهر، وسافرت معه الى مصر من سنين.

وكانت على العشاء تفتح عليّ بابها، وتقول لى على سبيل المداعبة «بوناسيرا .. كومى ستّاى؟ استابينى؟» عيناها مغُريتان، خضرتهما زرقاء داكنة وضحولتها خطرة وزلقة. قالت لى:

- ايه دى؟ إنت حبيبى تملى تملى كتاب فى إيدك. حتى إنت وبتاكل. ليل نهار، ليل نهار. إيه دى؟ إنت متحبش أبداً شوية فانتازيَة؟ شوية بحر، شوية رقص وموزيكا؟

بلهجة مصرية تاماً، لهجة بنت بلد أصيلة. يعنى، تقريباً.

وكان أنطونيو مولوداً فى السكاكينى، وتعلم فى دون بوسكو. وكان متين الجسم، دائماً منفتح الصدر عن شعر أسود كثيف، عضل الساعدين تحت كمّيه القصيرين الماسكين على ذراعيه المتنفختين بالفترة.

أما كارلا فقد كانت رفيعة العظام، جسمها الطفلى البنُرتىّ له زوايا حادة. وقلقة الحركة وثابة العينين. وكانت أكثر سمرةً من المصريات - حتى لا تقول أبداً إنها طليانية.

كانت پاولا من نوع صوفيا لورين، أو كلوديا كاردينالى، وحارّة، ومصرية الدم، مقبلة على الحياة، حادة الذكاء ومرحة، تبدو محنّكة الجسد، مبذولة ومنيعة معاً. كأنما كان فيها إرهاص وتنبؤ ببعض ما كانت عليه جنيّتى النهمّة، كاهنة تنينى مناتى وسرسنتى ونُونى.

نعومة وجهها كأنها سرٌ محترز عليه من القدم، تشوبه، بل تكمله، حبيبات دقيقة غائرة، كأنها لا تُرى، وكأنها تقع خارج الجسم، خارج الوجدان، خارج الزمن. تمام الوجود الذى لا بدء ولا آخر له. الضباب الجسدى السخن الأبيض يصعد ويتطاير ويتلوى مزقاً حادة الألسنة، وله أزيز متصل ملحٌ. اتشحت بمرط الهوى خيوط الوجد تحتضن بضاضة البطن الوثير المدور وتحبكه. يتمزق النسيج فجأة كأنه يحترق بنار غير مرئية، ولصوت انفصام السدى واللُحمة هسيس غير منتظر، وتتهدل الأشواق مرتمية على الشط المفتوح، أنين الموت شبقاً وجوى، والعشق عذاب لا تنتهى متعته، والقلب الغوىّ مبذولٌ دون حيطة، الثديان حافلين ومحتشدين ينسكبان مبتلّين بغشاوة شفافة من الندى، صعرود المراعى الناعمة بطئ، والأجراس تصلصل لم تصل بعد إلى قرع النواقيس الجسام، ولكن جوف الجرس الضخم يهتز ويتذبذب مرتفعاً متجهاً بلا حول الى جلجلة تملأ السماء بجلال أصدائها حتى أقصى أطراف الكون. الحبال المدلاة فى البرج الشاهق مشدودة، استماتت عليها اليدان المحيطان بخصر الناقوس الأخير النهائى الهزيم. الصلابة القائمة لن تهن أبداً،

تلمّها وتضمّها ظلمة لحم الحب. خامات المادة الأرضية متأججة الفضّة والذهب والخشب والحديد والزجاج والنحاس، وجواهر النباتات مصهورة فى النفق التحتى، تسيل وتغوص بكثافة باشتعال ثقيلٍ تسوقها الى الداخل قوة لا غلاب لها ولا يلحقها فناء.

عدت متأخراً، بعد السينما، وبعد الكابرتشينو الأخير فى الفريسكادور، فوجدت القيامة قادمة فى فسحَة بيتنا.

كانت أمى، هادئة ولامعة العينين بتصميم الفكرة الثابتة التى لن يهزها شئ، تقول لأنطونيو:

- اسمع يا سيسر، خذ آدى بقية حسابكم، وتسيبوا لى البيت من بكره، اعمل معروف.

صورة ماريوسف النجار التى كانت معلقة فى وسط حائط الفسحة فى بيتنا - بيتاً بعد بيت بعد بيت بلا انقطاع - طوال سنين الصبا والشباب والرجولية، فأين ذهبت الآن؟ لا أجدها. زجاجها، وراء الإطار العريض الناتع الخشب، يرمض على نسيجها الورقى الخشن، كأنها لوحة قديمة ثمينة التماش. كانت كثيفة المرأى، القديس زوج العذراء مريم الذى لم يمس أنملة منها، وجهه ملئ بتجاعيد دقيقة محفورة لها جمال خاص، خطوط قسمات وجهه واضحة محددة ومضيئة، وهو ينحنى على الطفل يسوع: الآن تطلق عبدك بسلام يارب، لأن عينىّ أبصرتا خلاصك.

يبدو جيدها المستوى الناعم، بلاط حمام داكن السمرة، من فتحة

العنق الواسعة فى فستانها الكاكى، على آخر موضة. وفى حماستها فى الكلام، تنزلق الفتحة قليلاً عن كتفها الملساء ويبدو شريط السوتيان باللون الكاكى اللميع، لدونة الكتف الملفوفة الصلبة معاً تبدو له نباتا استوائيا غضا، ينمو على عظام هيكل متماسك مغلّف ومدفون فى طوايا جسمانيّة نضرة وقوية.

نشرت « الصبر » بتوقيع حسن مصطفى بالأسكندرية ١٠ أبريل ١١٨٧ أنه حتى الموت أصبح مكلفا أكثر كلفة من الحياة فى مقابر كرموز وسيدى بشر ومدافن السراي، يتقاضى التربى ألفى جنيه فى عملية الدفن الواحدة، وبعضهم يخرج جثة الميت فى ليلتها ليبيعها لطلبة كلية طب الأسكندرية بالقطعة.

كانت محطة الرمل تبدو كأنها تقع فى بلد أخرى لا أعرفها ولا أعرف فيها أحداً ، والمدخل السلطانى عقيم ، صفان متقابلان من شجر طويل رشيق، أشقر الجدائل غريب. ورأيت الناس الذين تصورت أنني أحبهم حب المسيح وتروتسكي معاً، يمضون إلى حياتهم ولعبهم وجدهم، فى ترام البلد وترام الرمل، بعيدين جداً .

أنكرت شهادتي الجامعية ، ربما كنت أعرف كلمتين بالأنجليزية والفرنسية، فقد اشتغلت فى النهاية « مساعد ورشة » فى شركة بناء فرنسية مصرية مختلطة، لكي أحصل على عشرة جنيهات في الشهر. كانت نعمة ، لأن المهندسين المصريين لم يكونوا موضع ترحيب أو تبول

حتي من الشركات سنة ٥٠ ، وانتقلت بعد ذلك ، بعائلتي وأعبائي وحبي من راغب باشا الي كليوباترة. وكنت أول ما اشتغلت في الشركة قد رقعت، بصاعقة ، في حبي، نعمتي، صخرتي الثابتة . ولكن يأسي كان كاملاً من الحياة راغب والسياسة والشعر جميعاً .

في الصبح ، نصف نائم ، بعد سهرة مع مالارميه ، وأنا في الاتوبيس الذي يأتي على البحر ليقف أمام سبسطل، وأغير منه إلى أتوبيس الرخيلة ، رأيت الدبابات والمصفحات وحاملات الجنود تقرقع على الكورنيش، بضجيج صوتها في هواء البحر، كأنما لا علاقة لها بالمدينة أو بأهلها . تذهب إلى غاية غير واضحة عند رأس التين ، وتبدو لي غير جدية وغير مهددة ولا داعية للانفعال . كانت أمواج المينا الشرقية كأنها مضرعة الزرقة ، تضرب كتل الأسمنت الضخمة المعوجة المدفونة في الماء نائتة الحواف تحت سور الكورنيش . زبدها قليل . وكان الناس القلائل بجلاليبهم وأقدامهم الحافية ، وبالقمصان نصف الكم أو البدل الصيفي الكاملة ، يترقفون لحظة، ثم يهتف بعضهم في غير حماسة ، ويدعون الله بالنصر لجيش مصر . كان أخطر حدث في تاريخنا الحديث يقع أمامي دون أن أعيره اهتماماً أو أدرك معناه .

لم أكن ، ولست ، بعيداً عنك جداً أيها الصبي المتنزز المعذب بتمزق جسدك، بينما مادتك الخام تتكسر وتصاغ صياغتها النهائية .

أراك الآن في منتصف ليلة اسكندرانية صحو في أول الخريف. القمر،

مدوراً ونضته صلبة ، يدمر السماء بسطوعه الذى يكهرب جلدك . وأنت فى غرفة الصالون الأرضية الفسيحة المطلة على شارع ابن زهر . الطقم الخشبي المنجد بقماش أزرق مزهر ومشجر وكحلي الوبرة، مازال جديداً ومتيناً ، يبدو ضخم الحضور فى الغرفة المقمرة ، شباكها الأرضي عالي الضلف، له قاعدة حجرية عريضة . أين كان أبواك ، وإخواتك ، كلهم هناك لم يتحيف الموت المتربص أحداً منهم بعد ؟ نائمين ؟ فى الغرف الداخلية المقفلة علي نومهم؟ فكأن الشقة التي تطل من جنب علي شارع راغب باشا ، غير بعيد من حارة الجلنار، كانت كلها لك، خالصة وحرة .

كنت قد ضربك حبك، الحقيقى الاول الذي ظل أخرس ومدفوناً ، والضربة قد غارت الي عمق لم تكن قد وصلت اليه من قبل فى محباتك الصبيانية ، وترجماتك شيلى وكيتس ، ودموعك مع المهجريين، ومع مرجريت جوتييه وأنا كارنينا وآلام فرتر ، وأشعار الروح الساذج الكئيب، وتيهك بالكلمات ، وتيه الكلمات .

الكروانة الصغيرة النحاس التى كانت أمك تأتي فيها بالبلطي من الملاحة ، فضياً لامع القشور وطرياً، ولطزاجته نكهة زفارة نظيفة وبريئة، جافة الآن . كومت فيها أوراقاً كثيرة مهرشة ومُزقة ، فواتير تجارة أبيك القديمة التى أفلست من زمان ، أمتلأت فراغاتها بالشعر. صفحات لامعة الوجه من كراريس المدرسة الثانوية، وقد غطتها كتابة رقيقة الحروف. ورق رز أبيض باهت وخفيف، مزدحم بالكلمات، الكلمات، الكلمات.

وورق كثيف حاد المكسر، وأشعلت فيها النار . طقس لقانة وعبور.حريق أخيلة قديمة الجدة دائمة.

كانت البنت سمراء غضة ملفوفة وخجولاً ، تضم الكراريس والكتب الى نبعة الثديين البرعميين بحركة بنات المدارس المأثورة المشهورة. ولكن نظرة عينيها الفاترتين فيهما غواية أنثوية مبكرة، تطعن الأجسام المتفتحة على عرامة اليقظة الذكورية البكرة .

كنا قد أخذنا كأسين من الدندرمة المشكلة بالفسدق والشيكولاته والمستكة الواحد بستة مليم - من صندوق الجيلاتي في ساحة فسيحة خالية في شارع صفية زغلول، على الرصيف المقابل لسينما ريالتو ، يشغله فتي اجريجي طموح استطاع بعد ذلك أن يستأجر هذه الساحة، وأن يقيم عليها « إيليت » ذائع الصيت .

كم دفعتنى الوحشة - بعد ذلك بسنين ، ربما حتي الآن ؟ - الي المقاهي بحثاً عن لحظات رفقة وأنس بالصحاب، الي الفريسكاور وإيليت وقهوة فرنسا، ولورانتوس والكريستال والتجارية وكازابلانكا وباسترو ديس ، وحتي «قهوة الأشباح» التى كانت - علي ضيقها ووعورتها - ساحة مباريات الطاولة أو الكوتشينة بكل حموتها وصخبها، وضجيج تحدياتها ووهج انتصاراتها وحبوط هزائمها، بين رضوان القفاص وأحمد تنديل ، بين فتوح القفاص وجمال حشمت، الشاعر الرقيق الذي عاش وعلم سنين طوالاً فى الكويت والعراق، والذي

وصمني بعد ذلك بالنجاحة والسماجة وثقل الدم، والذي كان يقول عندئذ: «ما خلاص ، بعد سنين تحط ايدك لا مؤخذه على جسم مراتك، كأنك بتحط ايدك على جسمك، ما تفرقش ، ولا تحس حاجة!». أو بينهم، أو أيهم، رأى من البوابين والبياعين في « أوربكو » الشاهقة التي تكبس على حارة القهوة وتسودها. أما أنا فكنت - ومازلت - لا أعرف أية لعبة ، ما عدا لعبة الكلمات والمعاني التي ما أشد جديتها ، وكنت أموت معهم مللاً وضيقا بنفسي ، وأكتم حسي ، كعادتي .

وعلي أي حال ، فما العلاقة ؟

ما العلاقة بين أي شيء وآخر مهما بدا من توثق الروابط وإحكام الوشائج، ومهما كانت هذه الروابط قائمة وهيكلية ؟ ما العلاقة ؟

لا تكف عن فلسفة الصنيع هذه ؟

أم أنه - في النهاية - ليست كذلك تجرى الأمور ؟

كان رفيق راقم بسطرروس، ابن ناظر محطة السكة الحديد في صفط الملوك، الذي يملك قيراطين أو فدانين يعني ، الله أعلم ، والذي كنت أحبه كثيراً ، يأخذ معي كأس الدندرمة من الصندوق الاحمر اللامع نظافة وأناقة ، علي الرصيف الآخر أمام سينما ريالتو ، وبينما هو يمص العجينة الدسمة الملونة المثلوجة ، يعبر تقاطع السلطان حسين، ويدخل شارع المسلة - صفية زغلول ، ويمر على فرشة بائع الصحف، شبه العميل شبه الصديق. كان الرجل الكهل الداكن اللون، وسيم الملامح بشاربه الأبيض

المنمق ، يحتفظ له - من تحت لتحت - بمجلات الصور العارية اللامعة ، باردة الملمس، وكتب من نوع « بئر الوحدة » و«اعترفات مرمس» و «مذكرات إيفا» مطبوعة علي ورق أصفر خشن بالعربية - مليئة بالأخطاء المطبعية، وهو غير مهم! - وبالانجليزية، مخصوص للعساكر الأنجليز والأسترال والافريكاندرز. كان يحوم حول الفرشة عندئذ ، ولد حافي القدمين بجلابية نظيفة هو الذي أجده الآن بعد نصف قرن ، صورة طبق الاصل من أبيه الشيخ الوسيم داكن السمرة، بشاربه الأبيض المنمق وعينيه اللتين تحملان ، مثل أبيه، إثم المغامرة داخل المحظور. وكان الرجل صديقاً لجاره حسين أبو الليل، التروتسكي القديم الذى كان جزمجيا ، صناعاً كامل الاتقان لصنعته، بل محباً لها حتي العشق. وكان يعمل طوال النهار حتي الليل فى الحيز الضيق بين حارة توازي شارع صفية زغلول من رراء، وبين خلفية محل الأحذية الراتي الذي تقع واجهته الأنيقة على الشارع الكبير .

تطابق الصور . تكرار الصور .

الا أعرف غير الصور بالروتوغرافور أو بغيره ، صور طبق الأصل، صور خير وأبقي من الأصل. ربما ،ولكن أين الاصل ؟

الآن والهواء الرطب يضرب وجهي عبر نانذة « إيليت » المفتوحة على نصف قرن من الزمان، تمر بي تلك المرأة النارية ، چيبتها البنطلون الواسعة حمراء، تحبك ردفيها بقوة، ثم تنزل فضفاضة مزهوة متفجرة

بلهيبها الحيواني النباتي معاً. شعرها أحمر مهوش مرفوع ومشتعل، كأشجار البانسيانا المتأججة هنيهة، أياماً ربما، ثم تنطفئ.

كانت الثورة قد قامت منذ سنتين، وكنت مع أوديت ولقيت حامد عبد الله مع أحمد، جالسين على الرصيف الواسع المزدحم بالناس، والبهجة واللغط الأنيس واسترخاء مساء الصيف. كان إيليت عندئذ مفترحاً على شارع صفية زغلول، وعزم علينا بإصرار، وأخذنا الجيلاتي المستكة الشهير. وقال إنهم هتفوا بسقوط الديمقراطية وسقوط الحرية. وقال إن هذه البلد ستمر بمحنة صعبة وطويلة. قلت نعم، ولكن طريق السعي الى العدل الاجتماعي وطرد الاستعمار طريق وعر ولكن عندك حق. وسكت أحمد، بحكمة، كعادته. وكانت أوديت في التايير الكحلي الأنيق، رشيقة وجافة القد تقريباً، عيناها العسليتان فيهما معرفة مسبقة وتكذيب ولمحة مكر وغزل وترقب معا، صدق حدسها فيما بعد.

وكأن الزمن لم يمر على الإطلاق.

أمر على الديار...

هذا الشرق ذاته، هذا الاضطراب الداخلي، وطيش المغامرة من غير حساب للعواقب، وهذه اللهفة ذاتها.

قبل هذا الرصيف الواسع، كنت أمر على كشك عبد المنعم الذي كان يشتغل معي في الشركة، وعرفني به عصام. وكان يبيع الصحف والمجلات والكتب العربية والفرنسية بعد الظهر. كان شكله يشبه الدرويش

الرومية - وهو يطل بعنقه الطريل من نافذه الكشك ، ومنقار فى وجهه الشاحب ذي اللغد ، وعيناه جاحظتان. وحتي صوته يقرقئ أحياناً عند الانفعال أو الاستغراق فى البيان والحساب. وكنت أشترى منه « المجلة الفرنسية الجديدة» العدد الواحد باثنين وثلاثين قرشاً وروايات فرنسية نصف عمر: أوريليا لجيرار دي نيرفال، وحكاية مانون ليسكو، والشفاليه دي جرييه للأب بريفو، والجولات الأدبية لريمي دي جورمون المطبوعة فى ١٠ يونيو ١٩٠٦، وكنت أدفع حسابي بالتقسيط كل شهر عشرين قرشاً عند قبض مرتبي. وكان عبد المنعم يقف على باب الخزينة - من الخارج - يرصد العملاء ويستوفي الأقساط . وقرأت فى المجلة الفرنسية الجديدة أحاديث لجورج براك، وأشعار لرينيه شار، وشذرات لأنطونين آرتو، ونصصاً ليوجين يونيسكو، ومذكرات غير منشورة لمارسيل بروست، واستشهاد الحلاج فى بغداد بقلم لوي ماسينيون ، ولكتاب وشعراء كثيرين جرف أسماءهم بحر التاريخ المتلطم .

أما رفيق تلك الأيام الذى صاغ مني جزءاً لا يضيع أيا كان صرف الأيام، فقد اختفت صرخاته: «أيها البحر اللانهائي الذى أحالت دموع البشر مياهه العميقة الى أمواج من مرارة لاذعة الفيض، اللامحدود الذى تصطخب فى جزره ومده أمواج الموت، أما زلت جامحاً جائعاً الى المزيد، وقد لفظت العظام الباقية عن عواصفك الى ساحل الموت المقفر الماحل؟»

تطعنني - على عكس ما تريد - امرأة نضرة ، مخروطة الساقين، فى الشراب الأسود الشفاف والحذاء ذي الكعب العالي الرقيق، وهى تترل

مرحبة ومحتفية بي:

- ماذا يمكنني أن أفعل لكي أجلب لك السرور ؟

أبتسم شاكراً وعارفاً انه سوف يعز عليَّ السرور .

وسوف أتنكر لها .

وإذ يخرج الناس من سينما رويال الي وشارع فؤاد وشارع الكنيسة اليونانية وشارع المسلة، متقاربين متماسكين فى نعومة الليل الرقيق الندي، كأنما يخشون شيئاً من عمقه المخوف ، يتهامسون ، ولا يرفعون صوتهم، كأنما يدارون بالهمس، روعاً يسقط عليهم من أسطح البيوت ومن أبراج الكنيسة ومن سقف السوق المخروطي ومن حواف السماء. يضحكون بخفوت ويلتمس الرجال والنساء من دفء أجسامهم عزاء وقوة ورفقة فى مواجهة هذا الليل الصموت عندئذ كنت يا نجمتي، يا نعمتي، أنتقدك، حتى لا تفدحني جفوة تلك السماء، وغربة تلك النجوم. يضربني هواء الليل القادم من المينا الشرقية ومن مرقف ترام البلد ، محطة الرمل خالية الا من حفيف النخل السلطاني علي الجانبين، والليل ينالني فى النهاية ، ينال مني أغواراً منترحة كجروح، أمام صخر النجوم، وإقفار السماء .

وليس هناك الا طريق اللبانة وشارع الشعري اليمانية وسوق المسلة، أذرعُها قد أصبحت شارات ممزقة مرفرفة، تسبح فى الزرقة الصامتة .
